لجنة التعريف بالإسلام
يصــــدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية



تأليف الدكتور
أحمد محمد الحوفي

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

الكتاب السابع والخمسون
١٣٨٩ هـ — ١٩٧٠ م

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المانح للقوة ، الهادى الى العزة ، الآمر بالجهاد ، الناصر للمجاهدين .

والصلاة والسلام على رسول الله خير من جاهد فى الله حق الجهاد .

وبعد ...

فقد مرت بالمسلمين عصور سامية بالمجد ، زاهية بالعلم زاهرة بالحضارة ، عالية بالقوة ، حافلة بالسلطان والسطوة ، اذ كانوا يعلمون دينهم حق العلم ، ويعملون به أعظم العمل . ثم مضت عليهم أعصار بغيضة بالضعف ، ثقيلة بالتخلف ، جريحة بالهوان ، لأنهم جهلوا دينهم أو تجاهلوا ، وغفلوا عن العمل بما يقتضيه أو تغافلوا .

والعجب أن خصوم المسلمين أدركوا أن الاسلام هو النبع الاول للقوة والفيض الدافق بالعزة ، فحاولوا أن يصرفوهم عنه بوسائل شتى من الاباطيل والاكاذيب .

وأعجب العجب أن بعض المسلمين انخدعوا بما زيف خصومهم ، فخيل اليهم أن الدين شىء ، وأن الدنيا شىء آخر ، كأنهم يجهلون أن الاسلام عقيدة وعبادة وعمل وحياة .

ولو فكر هؤلاء المخدوعون لساءلوا أنفسهم لماذا كانت قوة المسلمين تواكب دائما حرصهم على العمل بدينهم ؟

ولمـــاذا كان ضعفهم يصاحب دائما تهاونهم فيما يأمرهم به دينهم وينهاهم عنه ؟

لقد استطاع المسلمون بحماستهم الدينية — وهم قلة فقيرة فى جـــزيرة قاحلة — أن يثبوا الى مواطن الكثرة المحشـــودة ، والثروة الموفورة ، والحضارة المرموقة ، والقوة المرهوبة ، فيفتحوا بلاد الفرس والـــروم •

ثم قفزت بهم قوتهم الدينية الى المغرب ، فما لبثوا أن ركزوا أعلامهم خفاقة على شاطىء المحيط الاطلسى ، وعلى ربوع الاندلس وفى وســـط أوروبا ، وهنالك نشروا دينهم ، وبثـــوا لغتهم ، وأقاموا حضارتهم ، وتفيأت أوروبا بظلالها عدة قرون ، وما تزال آثارها باقية تعلن أنهم كانوا خير أمة أخرجت للناس •

فماذا طرأ عليهم اليوم ، وهم أضعاف سابقيهم عددا ، وأيسر منهم قدرا ، وأعظم منهم ثروة وأوفر منهم أسلحة ؟

لقد فترت حماستهم الدينية ، فتفرقوا بعد الوحدة ، وتنازعوا بعد الالفة ، ولانت قناتهم بعد الجلد ، ورضوا بالهوان بعد العزة ، وآثروا العاجلة على الآجلة •

لهذا ولى كثير من دعاة الاصلاح والنهضة وجوههم شطر الدين ، يرفعون مناره ، ويهدون الناس اليه ، كابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب وجمال الدين الافغانى ومحمد عبده • وشاركهم فى حـــداء الامة الى الاسلام كثير من الشعراء حسبنا أن نذكر منهم أحمد شوقى اذ صور

أله من تخلف المسلمين ، وأمله فى أن يقتدوا بكتاب الله وسنة رسوله ليستعيدوا ماضيهم المشرق العظيم ، فقال فى سنة ١٩١٠ [١] :

فقل لرسول الله يا خير مرسل ... أبثك ما تدرى من الحسرات

شعوبك فى شرق البلاد وغربها ... كأصحاب كهف فى عميق سبات

بأيمانهم نوران : ذكر وسنة ... فما بالهم فى حالك الظلمات ؟

وذلك ماضى مجدهم وفخارهم ... فما ضرهم لو يعملون لآتى ؟

وهذا زمان أرضه وسماؤه ... مجال لمقدام كبير حياة

مشى فيه قوم فى السماء وأنشأوا ... بوارج فى الابراج ممتنعات

فقل رب وفق للعظائم أمتى ... وزين لها الافعال والعزمات

ولكن هذا الفتور عارض قصير العهد ، واستجمام بعد مشقة الجهد ، وتوقف بعد عناء السير ، وغفوة بعد طول اليقظة .

فهو اذا تحفز للوثبة ، وتأهب للقفزة ، واستعداد للانطلاق .

أما هذه الدراسة فموضوعها الجهاد : معناه ، وحكمه ، والحض عليه ، ووسائله وأهدافه ، وجزاؤه ، وعقوبة المنافقين ، وتقريع الجبناء ، وعدد النصر من شجاعة وتسلح واستعانة بالله ، وتوضيح كثير من القضايا المتصلة بالجهاد والمجاهدين ، وفى ختامها لمحات الى صور من الجهاد فى أحقاب شتى من القديم والحديث .

فلعلها تذكر المسلمين بأن أسلافهم الأبطال لم يكونوا يعتمدون على سيوفهم وقسيهم ورماحهم وخيولهم بقدر اعتمادهم على ايمان قلوبهم ، وشجاعة نفوسهم ، وشوقهم الى الاستشهاد فى سبيل الله .

---

(١) الشوقيات ١/١٠٠ .

ولعلها تهديهم الى أن عدد الحرب كلها مغلولة القوى ، مفلولة الاثر ، اذا لم يؤازرها ايمان وطيد بالله ، واخلاص عظيم للوطن ، وايثار للاستشهاد على الحياة •

وماذا ينتظر المسلمون بعد أن اعتدى الصهاينة على ديارهم وطمعوا فى مقدساتهم ، وشردوا الأهلين من وطنهم ، وقتلوا الرجال والنساء والاطفال ، واغتصبوا الاموال ، وانتهكوا الحرمات ؟

ماذا يرتقب المسلمون بعد أن اقترف الصهاينة جريمتهم الدنيئة ، فحرقوا المسجد الأقصى ، أولى القبلتين ، وثالث الحرمين ، ومسرى خاتم الانبيـــاء ؟

أيتوقعون أن يرتحل الصهاينة وهم يقيمون اقامة من لا يريد الرواح ؟

أم ينتظرون أن يقنع الصهاينة ومطامعهم تتوالد كما يتوالد الذباب فى المستنقع والبراح ؟

لا ، لا •

فما السبيل ؟

وهل من سبيل أمام المسلمين غير الجهاد ؟

وهل من أمل فى غير الحرص على الاستشهاد ؟

ان الذين يريدون تنحية محاربتنا للصهاينة عن معانى الجهاد واهمون ، لأن الصهاينة ــ وهم المعتدون ــ يندفعون الى العدوان بنداء من دين مزعوم مكذوب على الله ، فأولى بنا نحن المدافعين أن نسارع الى الدفاع بهتاف من الدين الصحيح الذى ارتضاه الله •

وانى لأرجو أن تكون دراسة الجهاد فى هذا الوقت غذاء للقلوب ، وحماسة للنفوس ، ونورا للبصائر ، وهداية للناس ، وبشيرا بنصر العرب وبعزة الاسلام والمسلمين .

أحمد محمد الحوفى

القاهرة فى **شعبان ١٣٨٩**

أكتوبر ١٩٦٩



الفصل الأول

معناه وحكمه

ليس أجدى علينا فى هذه المحنة التى نصطلى بلظاها من أن نفىء الى ديننا نعتصم بقواه ، وننهض بما يوجبه علينا من علم وعمل وانتصار بالله ونصر لله .

فلنرجع الى الاسلام لنتعرف حقيقة الجهاد ومعناه ولندرك حكمه العام وحكمه فى هذا الوقت العصيب الذى نحيا فيه .

معنى الجهاد

لطالما شهد التاريخ حروبا شنتها أمة على أمة ، مبعثها الادلال بالقوة والغرور بالسطوة ، وغايتها السيطرة والاستعلاء والاستئثار بالسلطان ، واحتكار خيرات الناس .

فهل هذه الحروب جهاد ؟

وكثيرا ما شهد التاريخ حروبا أشعلها مشركون بالله على قوم مؤمنين بالله ، ليصرفوهم عن العقيدة الصحيحة الى الوثنية والشرك والضلال .

فهل هذه الحروب جهاد ؟

كلا ، ان هذه وتلك حروب باغية يبرأ منها الجهاد .

أما الحروب التى تقاوم الحروب الباغية وتصدها ، لتحمى العقيدة الصحيحة والدين القويم والوطن والعرض والمـال والحيـاة ، فهى الجهـاد •

واذن فالجهاد والحرب كلمتان تلتقيان وتفترقان ، فالحرب أعم من الجهاد لانها قد تكون جهادا ، وقد تكون بغيا وعدوانا •

ولهذا عرف الفقهاء الجهاد بأنه « بذل الوسع فى القتال فى سبيل الله بالاشتراك العملى فى الحرب ، أو الاشتراك فيها بالمـال أو الرأى أو مداواة الجرحى أو اعداد الطعام والشراب ، وما شاكل هذا •

ومثله المرابطة ، وهى الاقامة فى مكان على الحدود بين المسلمين وأعدائهم ، لا يتحقق الدفاع عن وطن المسلمين الا به ، لاعزاز الدين ودفع المشركين » (١) •

ومعنى هذا أن الجهاد حرب فى سبيل الله ، فهى اذن حرب محتومة مشروعة للذود عن الدين ، أو للدفاع عن الوطن وما يتصـل بالدين والوطن من أموال وأرواح وأعراض وأخلاق •

ولهذا كان الجهاد حـربا شريفة البواعث ، نبيلة الاغـراض ، سامية الاهـداف •

فالغزوات النبوية جهاد •

ومحاربة أبى بكر للمرتدين جهاد •

ومقاتلة عمر للروم والفرس جهاد •

---

(١) ابن عابدين ٣/٢٣٨

ومناضلة المسلمين للتتار جهاد .

ومكافحة مصر للحملات الصليبية جهاد .

وثورات مصر على الاحتلال الفرنسي والبريطاني جهاد .

ومنازلة ليبيا لايطاليا والجزائر لفرنسا جهاد .

وهكذا كل حرب يشنها المسلمون للدفاع عن دينهم ووطنهم جهاد .

والحرب التى ينهض بها العرب اليوم لتخليص وطنهم من أوضار العدوان الاسرائيلى جهاد أى جهاد .

حكمه

للجهاد أحكام تختلف باختلاف الدواعى والملابسات .

فهو تارة مفروض على المسلمين جميعا لا يسقط عن بعضهم اذا نهض به الآخرون .

وهو حينا مفروض عليهم فرض كفاية ، يقوم به بعضهم فيسقط عن الباقين .

١ — فهو فرض عين فى عدة حالات :

(أ) اذا هجم العدو على بلد من بلاد المسلمين وجب على أهل هذا البلد أن يخرجوا الى العدو ، ليقوم كل منهم بما يستطيع القيام به ، ولا يتخلف منهم أحد ، سواء أكان من المقاتلين أم من غيرهم .

وهذا هو النفير العام الذى يشترك فيه الجميع ، المرأة والعبد والغلام والشخص الذى له أب أو أبوان ، سواء أذنا له أم لم يأذنا [١] .

---

(١) المحلى لابن حزم ٢٩٢/٧

(ب) فان عجز أهل هذا البلد عن صد عدوهم ، أو تكاسلوا عن النهوض له ، وجب الجهاد على من يليهم ، وهكذا حتى يصير فرضا بالتدريج على المسلمين جميعا .

فلو سبيت مسلمة بالمشرق لوجب على أهل المغرب تخليصها من السبى .

قال تعالى : « انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله » [1] .

وقال سبحانه : يا أيها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الأرض ؟ ارضيتم بالحيـــاة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل .

الا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ، ولا تضروه شيئا ، والله على كل شىء قدير [2] .

(جـ) وهو واجب على كل من علم بضعف المسلمين عن محاربة عدوهم وهزيمته ، وهو يستطيع أن يغيثهم ، لان المسلمين كلهم يد على من سواهم .

ولهذا اذا استطاع أهل البلد المعتدى عليه أن يردوا عدوهم سقط الجهاد عن الآخرين .

(د) كذلك يجب على المسلمين اذا ما قارب العدو دار الاسلام ولم يدخلها ، حتى يظهر دين الله ، ويصان الوطن ، ويهزم العدو ، وليس فى هـــذا خلاف [3] .

---

(١) سورة التوبة ٤١
(٢) سورة التوبة ٣٨ — ٣٩
(٣) ابن عابدين ٣/٢٤٢ وتفسير القرطبى ٨/١٥١

ومعنى هذا أن العدو اذا أراد الهجوم على المسلمين صـار الجهاد فرضا على المقصودين كلهم ، ثم على غيرهم لاغاثتهم سواء أكان الرجل من الجنود المخصصين للقتال أم لم يكن فعلى كل مسلم أن يجاهد فى هذه الحالة بنفسه وبماله وبلسانه ، كما فعل المسلمون حينما قصدهم العدو عام الخندق ، فان الله لم يأذن لاحد فى تركه ، لانه دفاع عن الدين والنفس والحرمة ، فهو قتال اضطرار ، مفروض على كل من يصـلح للدفاع وللحرب (١) .

(هـ) ولكنه مع هذا واجب على الجنود المعدين له الذين يتقاضون رواتبهم من مال الامة ، بل ان وجوبه عليهم أوكد .

وهذا الوجوب على الجنود قائم على الشرع ، وقائم على العقـد الذى أبرموه مع الولاة على الطاعة والجهاد ، ومستند الى العـوض المـالى كما يجب العمل على الاجير الذى قبض الاجر ، وتسليم المبيع على البائع الذى قبض الثمن .

وهذا هو السبب فى أن الناس يستنكرون جبن الجندى ويزدرون فشـله أو تخلفه عن الجهاد ، ويستقبحون معاونته للعدو ، أكثر ممـا يزدرون ذلك من غيره ، كما يستنكرون المعصية من العالم أشد ممـا يستنكرونها من سواه (٢) .

٢ ــ وهو فرض كفاية فى حالات أخرى :

(أ) اذا كان بعض المسلمين قادرين على الدفاع وقتال الاعداء .

---

(١) ابن عابدين ٣/٢٣٩ ومجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨/٣٥٩

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨/١٨٤

فان هجم العـــدو على بلد اسلامى ، وكان أهل هـــذا البلد ذوى مقدرة على صده ، فان الجهاد ليس فرضا عينيا على جيرانهم ، بل هو فرض كفاية ، مادام اخوانهم غير محتاجين اليهم •

ولكن اذا عجزوا عن المقاومة ، أو لم يعجزوا عنها ولكنهم تراخوا عن الجهاد صار فرض عين على جيرانهم لا يسعهم تركه •

فان عجز هؤلاء الجيران أو تكاسلوا صار فرض عين على من يلونهم ، وهكذا الى أن يصير فرضا عينيا على المسلمين جميعا (١) •

وقد اقتضت حكمة الله تعـــالى ألا يجعله فرض عين دائما ، لئلا يشغل به المسلمون جميعا فتتعطل مصالحهم (٢) •

(ب) اذا كان المسلم ممن لا يستطيعون الجهاد لانه مريض بمرض يقعده ، أو لانه غير قادر على حمل السلاح ، أو لانه لا يمتلك الراحلة والزاد ، أو لانه من الذين أعفاهم الله تعالى (٣) •

حكمـــه اليـــوم

فما حكم الجهاد اليوم ؟

ما حكمه واسرائيل تبغى فسادا فى فلسطين ، وتعيث شرا فى بيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين ، وتنزل بالمسلمين هناك أبشـــع ما سمع به التاريخ من وحشية وتنكيل وانتهاك للحرمات ، وتطرد الاهلين الاصلاء الابرياء من ديارهم ، وتنتهب ثرواتهم ، وتحشد فى الســـجون

---

(١) ابن عابدين ٣/٢٣٩ والمبسوط للسرخسى ١٠/٤
(٢) المبسوط ١٠/٤
(٣) ابن عابدين ٣/٢٤٢

والمعتقلات عشرات الالوف من الابرياء ، وتقتل الرجال والصبيـــان والشيوخ والنساء ؟

ما حكمه واسرائيل تطغى على قطع عزيزة من الوطن العـــربى الاسلامى فى مصر وسورية والاردن ؟

ما حكمه واسرائيل تعلن فى وقاحة وتبجح أن وطنها المنشــود يمتد من الفرات الى النيل ؟

ما حكمه واسرائيل تتطلع فى جشع مسعور الى أن تستولى على شمالى الحجاز الى مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام ؟

ما حكمه واسرائيل تراوح المسلمين والعرب وتغــاديهم بعــدوان مسلح تؤازره دول معادية للعرب وللاســـلام ، وبينهم وبين العرب والمسلمين احن وثارات

ما حكمه وقد أحرقت اسرائيل المسجد الاقصى فكشفت عن خبث طويتها ودنس نيتها وشرها الذى تبيته للاسلام والمسلمين ؟

أهو فرض عين على أهل فلسطين ؟

نعم انه فرض عين عليهم جميعا .

ولكنهم عجزوا عن صد اسرائيل ، فصار فرض عين على جيرانهم فى الاردن وسورية ولبنان والعراق ومصر .

فاذا كان هؤلاء قد ضعفت قوتهم أن تهزم القوى الدوليـــة التى تمد اسرائيل وتساندها فقد صار الجهاد فرض عين على المسلمين جميعا من الباكستان شرقا الى المغرب غربا ، ومن البحر الابيض المتوســط شمالا الى السودان جنوبا .

يقول ابن عابدين :

« اياك أن تتوهم أن فرضيته تسقط عن أهل الهند بقيام أهل الروم به مثلا ، بل يفرض على الاقرب فالاقرب من العدو ، الى أن تقع الكفاية، فلو لم تقع الا بكل الناس فهو فرض عين كالصلاة والصوم .

ولهذا لا ينبغى للامام أن يخلى ثغرا من الثغور من جماعة من المسلمين فيهم غناء وكفاية لقتال العدو .

فان قاموا به سقط عن الباقين ، وان ضعف أهل ثغر عن مقاومة الاعداء ، وخيف عليهم منهم ، فعلى من وراءهم من المسلمين الاقرب فالاقرب أن ينفروا اليهم ، وأن يمدوهم بالسلاح والمال ، لان الجهاد فرض على المسلمين جميعا ولكنه يسقط عن بعضهم ، لان بعضهم الاخر قام به » [1] .

الجهاد اليوم فرض عين .

فرض عين على الدول الاسلامية .

وفرض عين على الجيوش الاسلامية .

وفرض عين على كل فرد يستطيع أن يساهم فيه بجهد يساعد على النصر ، ويمحو وصمة الهزيمة ، ويرد الحقوق الى ذويها ، ويعلى كلمة الله ، سواء أكان الذى ينهض به نائيا عن فلسطين أم دانيا من نواحيها .

---

(١) ابن عابدين ٣/٢٤٠

الفصل الثانى
المعْفَوْن من الجهاد

الاصل فى الاعفاء :

هل يستوى الناس جميعا فى المقدرة على الجهاد ؟

وكيف ؟ وفيهم القوى والضعيف ، والصحيح والسقيم ، والغنى والفقير والمبصر والكفيف ؟

لهذا اقتضت حكمة الله تعالى وهو لا يكلف نفسا الا وسعها أن يعفى من تبعات الجهاد من لا يقدرون عليه •

قال تعالى : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج اذا نصحوا لله ورسوله ، ما على المحسنين من سبيل ، والله غفور رحيم • ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم قلت : لا أجد ما أحملكم عليه ، تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون » [1] •

فهؤلاء لا حرج عليهم اذا عرفوا الله وأحبوا أولياءه ، وأبغضوا أعداءه ولا مدعاة لعتابهم أو عقابهم [2] •

---

(١) سورة التوبة ٩١ — ٩٢
(٢) الكشاف ٢/١٦٧

وكان السبب فى هذا التشريع الحكيم العادل الرحيم أن جماعة أتوا الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يتأهب لغزوة تبوك ، ليعطيهم ما يركبونه ، فلم يجد [1] ، فتولوا وهم يبكون ، لانهم لا يجدون ما ينفقون •

والاية الكريمة أصل فى سقوط التكليف عن العاجز ، فكل من عجز عن شىء سقط عنه ، تارة الى بدل هو فعل ، وتارة الى بدل هو عزم •

ولا فرق بين العجز من جهة القوة والعجز من جهة المال • ونظير هذه الآية قوله تعالى : « لا يكلف الله نفسا الا وسعها [2] » وقوله سبحانه : « ليس على الاعمى حرج ، ولا على الاعرج حرج ، ولا على المريض حرج [3] » •

من هم المعفون ؟

اذا لم يهجم العدو على بلاد المسلمين لا يفرض الجهاد على هؤلاء :

---

(1) قيل هم أبو موسى الاشعرى واصحابه .

وقيل أنه عرباض بن سارية ، وقيل أنه عائذ بن عمرو ، وجمهور المفسرين على أنهم بنو مقرن ، وكانوا سبعة اخوة صحبوا النبى ولم يشاركهم فى الهجرة والصحبة اخوة مثلهم . وقيل نزلت الاية فى سبعة من بطون شتى هم البكاءون الذين آتوا رسول الله فى غزوة تبوك ليحملهم فلم يجد ما يحملهم عليه ، فتولوا وهم يبكون ، فسموا البكائين . قال ابن عباس : سألوه أن يحملهم على الدواب ، وكان الرجل يحتاج الى بعير يركبه وبعير يحمل عليه ماءه ، وزاده ، لبعد الطريق (تفسير القرطبى ٢٢٦/٨ والكشاف ١٦٧/٢) وسيرة ابن هشام ٦٦١/٤

(2) سورة البقرة ٢٨٦

(3) سورة النور ٦١

١ ــ الاعمى والمقعد والاعرج والاقطع [1] ، لعجزهم •

٢ ــ الصبى ، أما المراهق فلأبيه أن يأذن له بالقتال وان خاف عليه القتل ، وقال السغدى : ان خاف عليه القتل لم يأذن له •

٣ ــ العبد ، لان سيده قائم مقامه ، فاذا أمره بالجهاد مولاه وجب عليه وجوب كفاية •

٤ ــ الزوجة ، لان زوجها قائم مقامها ، فان أمرها زوجها بالجهاد وجب عليها وجوب كفاية •

٥ ــ المدين بدين حال ولم يأذن له دائنه بالخروج ، فان كان دينه مؤجلا بحيث يعود من الجهاد قبل حلوله فله أن يخرج •

٦ ــ العالم الذى ليس فى بلده أفقه منه •

٧ ــ من له أبوان أو أحدهما ، لان طاعتهما فرض عليه ، والجهاد ليس فرض عين بل هو فرض كفاية •

قال عليه الصلاة والسلام للعباس بن مرداس لما أراد الجهاد : الزم أمك ، فان الجنة تحت رجل أمك •

وفى البخارى أن رجلا جاء يستأذن رسول الله فقال له : أحى والداك ؟ قال : نعم ، قال : ففيهما فجاهد • فان حدث النفير العام وجب الخروج على المرأة والعبد والعالم والغلام الذى يطيق القتال حتى وان كره أبوه وأمه ويأثم الزوج وغيره اذا منع من كان له حق اذنه •

---

(١) الأقطع : مقطوع اليد .

وذلك أنه يفترض على كل مسلم يستطيع أن يشارك المسلمين فى الاغاثة والدفاع سواء أذن له أم لم يؤذن [1] •

معفــون تطوعوا

عذر الله تعالى هؤلاء وأعفاهم ، فلم يكن عليهم من تثريب فى أن يتخلفوا عن الجهاد ، ولم يكن المسلمون لينظروا الى أيهم نظرات تهون من قدره ، أو تشعره بنوع من اللوم أو العتاب •

ولكن بعضهم لم يطيقوا القعود •

فخرج ابن أم مكتوم ــ وهو أعمى ــ الى غزوة أحد ، وطلب أن يعطى اللواء ، ليثبت به ثبات من لا يرى ولا يتهيب ، ولكنه لم يجب الى ما طلب ،

وحمل اللواء مصعب بن عمير ، فجاء رجل من الكفار فضرب يده التى تحمل اللواء فقطعها ، فأمسكه بيده الاخرى ، فضربها الكافــر

---

(١) ابن عابدين ٢٤٢/٣ والمحلى لابن حزم ٢٩٢/٧

وذكر ابن عابدين أن بعض الفقهاء استنبطوا ــ فى غير النفير العام ــ كراهة خروج الابن للجهاد بغير اذن والديه ، ورأى بعضهم أنه حرام • ولكن فى الحديث الشريف ما يؤثر برهما على الجهاد تارة ، وما يدع الاختيار للابن تارة ، ويظهر أن الحكم يختلف باختلاف الضرورات والأحوال ، فقد جاء الى رسول الله رجل فقال : يا رسول الله ، انى قد أردت الجهاد معك ، أبتغى بذلك وجه الله والدار الآخرة ، قال : هل من أبويك أحد حى ؟ قال : نعم رسول الله كلاهما ، قال الرسول : فارجع أبرر أبويك ، فولى الرجل راجعا من حيث جاء (المسند ٤٦/١٠) وسأل رجل رسول الله عن أفضل الاعمال ، فذكر له الصلاة ثم الجهاد فى سبيل الله ، فقال الرجل : فان لى والدين ، قال رسول الله : آمرك بالوالدين خيرا ، قال الرجل : والذى بعثك بالحق نبيــا لأجاهدن ولأتركنهما ، قال رسول الله : أنت أعلم (المسند ١٤٠/١٠) •

فأمسكه بصدره ، وقرأ قوله تعالى : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » (١) .

وكان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين ، حتى يقـــــام فى الصف (٢) .

وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج ، وكان له أربعة أبنـــاء مثل الاسود يشهدون المواقع مع رسول الله ، فلما كان يوم أحـــــد أرادوا منع أبيهم من الخروج الى الحرب ، وقالوا له ان الله عز وجـــل قد عذرك .

فمضى عمرو الى رسول الله فقال : ان أبنائى يريدون أن يحبسونى عن الخروج معك ، فقال له رسول الله : أما أنت فقد عذرك الله ، فلا جهاد عليك فقال عمرو : انى لارجو أن أطأ بعرجتى هذه فى الجنة .

فقال رسول الله لابناء عمرو : دعوه ، فلعـــــل اللـــه أن يرزقه الشهادة .

فخرج عمرو فقتل يوم أحد (٣) .

وفى غزوة تبوك تمهل أبو ذر وأبطأ به بعيره فتخلف عن رســـول الله ، فلما ضاق به أخذ متاعه فحمله على ظهره ، ومشى يتبع أثر رسول اللـــه .

---

(١) سورة آل عمران ١٤٤
(٢) يهادى : يمشى بينهما معتمدا عليهما من شدة ضعفه .
(٣) سيرة ابن هشام ٩٦/٣

ثم نزل رسول الله فى بعض منازله ، فنظر رجل من المسلمين ، فقال : يا رسول الله ان هذا الرجل يمشى على الطريق وحده ، فقال الرسول : كن أباذر •

فلما تأمله القوم قالوا : يا رسول الله ، هو أبو ذر •

فقال رسول الله : رحم الله أباذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده [1] •

وما من شك فى أن المخلصين لدينهم ولربهم ولنبيهم كانوا — وهم معذورون — يتشوقون الى الجهاد ويمضهم أنهم لا يقدرون على النفرة مع اخوانهم المجاهدين ، لانهم جميعا يبتغون اعزاز الدين ، ويؤثرونه على أموالهم وأنفسهم ويتوقون الى النصر أو الاستشهاد •

ولكن الله تعالى اذ عذرهم وعدهم المثوبة فقال تعالى : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما » [2] •

وروى أبو داود عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لقد تركتم بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ، ولا أنفقتم من نفقة ، ولا قطعتم واديا الا وهم معكم فيه •

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/١٦٧!
(٢) سورة النساء ٩٥

قالوا : يا رسول الله ، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة ؟

قال : حبسهم العذر .

وخرجه مسلم من حديث جابر قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزاة ، فقال : ان بالمدينة رجالا ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا الا كانوا معكم ، حبسهم المرض (1) .

---

(1) تفسير القرطبى ٩٦/٨ ، ٢٢٧ والكشاف ١٦٧/٢

الفصل الثالث

النساء والجهاد

صحبت بعض النسوة رسول الله فى غزواته وصحبن الجيوش الاسلامية فى كثير من حروبها ، يداوين الجرحى ، ويسقين الماء ، ويعددن الطعام ، ويحمسن على القتال ، ويشتركن أحيانا فى النضال .

قالت أم عطية :

غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات ، أخلف الرجال فى رحالهم ، أصنع لهم الطعام ، وأداوى الجرحى ، وأقوم على المرضى [١] .

وكان رسول الله يغزو ومعه أم سليم ونسوة من الانصار ، فيسقين الماء ويداوين الجرحى [٢] .

وكانت أم أيمن تخرج مع رسول الله فتداوى الجرحى وتعالج المرضى [٣] .

وفى غزوة أحد كان النسوة أربع عشرة امرأة يحملن الطعام والشراب على ظهورهن ، ويسقين الجرحى ، ويداوينهم ، كالسيدة عائشة ،

---

(١) تيسير الوصول ١/٢٣٦

(٢) صحيح مسلم شرح النووى ١٠/١٨٨

(٣) المبسوط ١٠/١٧

والسيدة فاطمة ، وأم سليم بنت ملحان ، وأم أيمن ، وخمينة بنت جحش [1] .

ولما انهزم فى هذا اليوم ناس من الصحابة كانت السيدة عائشة وأم سليم تنقلان القرب على ظهريهما ، ثم تفرغان الماء فى أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملآنها ، ثم تجيئان فتفرغان الماء فى أفواه القوم [2] .

وكانت أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية قد اشتركت يوم أحد، وقصت خبرها فى قولها :

خرجت أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس ، ومعى سقاء فيه ماء ، فانتهيت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فى أصحابه ، والنصر مقبل على المسلمين ، ثم انهزم المسلمون ، فانحزت الى رسول الله ، فقمت أباشر القتال ، وأذب عن رسول الله بالسيف ، وأرمى عن القوس ، حتى جرحت .

وهذا الجرح الاجوف الذى فى عاتقى من ضربة أصابنى بها عمرو بن قمئة فانه لما ولى الناس عن رسول الله أقبل ابن قمئة يقول : دلونى على محمد ، فلا نجوت ان نجا ، فاعترضت له أنا ومصعب ابن عمير وأناس ممن ثبتوا مع رسول الله ، فضربنى هذه الضربة ، ولكنى ضربته ضربات ، ولم ينجه منها الا أنه كان يلبس درعين .

ورأى النبى بلاءها ، فأعجب بها ، وقال : ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة ؟

---

(١) المغازى ٢٤٦
(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ١٨٩/١٠

وفى حديثها عن ذلك اليوم قولها : وأقبل الرجل الذى ضرب ابنى فقال رسول الله : هذا ضارب ابنك ، فاعترضت له ، فضربت ساقه فبرك ، فرأيت رسول الله تبسم حتى بدت نواجذه ، ثم قال : استقدت يا أم عمارة .

ثم أقبلنا على الرجل نعلوه بالسلاح حتى أتينا عليه ، فقال النبى صلى الله عله وسلم :

الحمد لله الذى ظفرك ، وأقر عينك من عدوك ، وأراك ثأرك بعينك .

وهذه المرأة الشجاعة قد أصيبت يمناها فيما بعد بموقعة اليمامة ، وجرحت جراحات [1] .

ولما انهزم المسلمون فى يوم أحد وولى بعضهم ، ولقيتهم أم أيمن ناكصين حثت التراب فى وجوههم ، وقالت لبعضهم : هناك المغزل اغزل به ، وهات سيفك . وأسرعت الى الموقعة مع بعض النساء [2] .

ولقد جرؤت صفية بنت عبد المطلب على مارهبه حسان بن ثابت، ذلك أن نساء المسلمين كن فى الحصون يوم الخندق ، وكانت صفية فى حصن لحسان بن ثابت ، وتحدثت عن ذلك اليوم فقالت :

كان معنا حسان بن ثابت ، فمر بنا رجل من يهود ، فجعل يطيف بالحصن ، وكان بنو قريظة قد غدروا برسول الله وحاربوا مع

---

(١) المغازى ٢٦٣ ، ٢٦٦ وزاد المعاد ٢/٦٣١ والاصابة ٨/١٩٩ وسيرة ابن هشام ٣/٨٧

(٢) المغازى ٢٧٢

المشركين ، فقلت : يا حسان ان هذا اليهودى كما ترى يطيف بالحصن، وانى والله ما آمنه أن يدل علينا من وراءنا من اليهود ، وقد شغل عنا رسول الله وأصحابه ، فانزل اليه فاقتله .

فقال حسان: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب، والله لقدعرفت ما أنا بصاحب هذا .

فلما قال لى ذلك ، ولم أر عنده شيئا أخذت عمودا ، ونزلت من الحصن الى اليهودى فضربته حتى قتلته .

فلما فرغت منه رجعت الى حسان فقلت له : انزل اليه فاسلبه ، فانه لم يمنعنى من سلبه الا أنه رجل [1] .

وفى يوم حنين والحرب يشتد لظاها التفت رسول الله ، فرأى أم سليم ابنة ملحان وكانت مع زوجها زيد بن أبى طلحة ـ سهل ، وهى حازمة وسطها ببرد لها ، وانها لحامل بابنها عبد الله ، ومعها جمل زوجها ، وقد خشيت أن يغلبها الجمل ، فأدنت رأسه منها ، وأدخلت يدها فى خزامته مع الخطام [2] ، فقال لها رسول الله : أم سليم ؟ قالت : نعم ، بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، أقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك ، كماتقتل الذين يقاتلونك ، فانهم لذلك أهل .

فقال لها رسول الله : ان الله قد كفى وأحسن .

وكان معها خنجر فقال لها زوجها : ما هذا الخنجر معك يا أم سليم ؟

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/٢٣٩ وتاريخ الطبرى ٣/٥٠.
(٢) الخزامة : حلقة من شعر توضع فى أنف البعير . الخطام : الحبل الذى يقاد به .

قالت : خنجر أخذته ، أن دنا منى أحد من المشركين [1] بعجته به ، فقال زوجها : ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم [2] ؟

وكانت نسوة مع النبى فى غزوة خيبر ، منهن عمته صفيـــة بنت عبد المطلب [3] ، وقد رضخ لهن رسول الله من الفىء ، ولم يضرب لهن بســـهم [4] .

وما زلن بعد رسول الله يخرجن مع الجيوش ، فان بعضهن خرجن مع خالد بن الوليد للطبخ والخبز وسقى الماء [5] .

على أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يشجع النساء على الحرب فى كل غزوة ، ولا على أن يشاركن الرجال فى كل وقفة .

ويظهر أنه أباح لهن أن يصحبن الجيوش فى بعض غزواته ، اذ كان الرجال فى حاجة الى مساعدتهن ، فلما قوى الاسلام ، وكثر عـــدد المسلمين آثر النبى أن تقر النساء فى بيوتهن لان الرجال فيهم الغناء، وليصون المرأة من أهوال المعارك ، ويبعدها عن الاسترجال ، ويحبب اليها أن تفرغ لشئون الاسرة .

يدل على هذا أن السيدة عائشة قالت للنبى : يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل ، أفلا نجاهد ؟ قال : لكن أفضل الجهـــاد حج مبرور [6] ، وله فى هذا أحاديث شتى [7] .

---

(١) بعجته : شققت بطنه .
(٢) سيرة ابن هشام ٨٨/٤ وصحيح مسلم بشرح النووى ١٨٨/١٢ وتاريخ الطبرى ١٢٩/٣
(٣) تاريخ الطبرى ٣٩/٣
(٤) تاريخ الطبرى ٩٦/٣ رضخ لهن : أعطاهن .
(٥) المبسوط ١٧/١٠
(٦) فتح البارى ٣/٦ والطبقات الكبرى ٧٩/٦
(٧) فتح البارى ٥٧/٦ والطبقات ١٦٥/٦ و ٥٠/٨

وفى غزوة خيبر خرجت أم زياد الاشجعية سادسة ست نسوة ، فقال لهن النبى : باذن من خرجتن ؟ وظهر الغضب فى وجهه فقلن : خرجنا ومعنا دواء نداوى به الجرحى ، ونتناول السهام ، ونسقى السويق [1] ٠

ولما استأذنته أم كبشة القضاعية أن ترافق جيشه ، قال : لا ، قالت : انى لست أريد أن أقاتل ، انى أريد أن أداوى الجرحى والمرضى وأسقى الماء قال : لولا أن تكون سنة ، ويقال فلانة خرجت لأذنت لك ، ولكن اجلسى لا يتحدث الناس ان محمدا يغزو بامرأة [2] ٠

ولم يأذن لام ورقة بنت عبد الله ، وقال لها : قرى فى بيتك ، فان الله يرزقك الشهادة [3] ٠

اشتراك الصبيان

كان بعض الصبيان يسارعون الى المشاركة فى الجهاد ، حماسة للاسلام ، وحمية للوطن ، واقتداء بآبائهم وذويهم ٠

وقد قاتل بعضهم فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

قال عبد الله بن عمر : عرضت على رسول الله يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة فردنى ، ثم عرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فاجازنى [4] ٠

---

(١) الاصابة ٢٣٥/٨
(٢) الاصابة ٢٣٥/٨
(٣) الاصابة ٢٧٠/٨
(٤) المسند ٢٩٩/٦ والمبسوط ١٧/١٠ وسيرة ابن هشام ٧٠/٣

ورد رسول الله يوم أحد زيد بن ثابت والبراء بن عازب وعمرو ابن حزم واسيد بن ظهير ، ثم أجازهم يوم الخندق وهم فى الخامسة عشرة (1) .

وكان قد رفض اشتراك سمرة بن جندب الفــزارى ، ورافع بن خديج وهما ابنا خمس عشرة سنة فقيل له ان رافعا يجيد الرمى ، فقبله ، فلما قبله قيل له ان سمرة يصرع رافعـــــا ، فقبـــله أيضـــا (2) .

(1) سيرة ابن هشام ٣/ ٧٠

(2) سيرة ابن هشام ٣/ ٧٠



الفصل الرابع

الحض على الجهاد

فى القرآن الكريم آيات كثيرة تأمر بالجهاد أمرا ، وتحض عليه حضا .

١ — فقد أمر الله تعالى بالجهاد كل قادر عليه ، فمن استطاعه بنفسه فليجاهد بنفسه ، ومن لم يستطعه الا بماله فليبذل ماله ، ومن استطاعه بهما معا فعليه أن يسترخص حياته وماله ، ثم بين سبحانه وتعالى أن هذا هو الخير الذى يعلمه ان كان المسلمون لا يعلمونه .

قال تعالى : « انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون [1] » .

فمن الخفاف ؟ ومن الثقال ؟

أهم المسارعون الى الخروج حماسة والمتثاقلون عنه مشقة ؟

أهم الاغنياء والفقراء ؟

أهم الشبان والشيوخ ؟

أهم الذين ليس لهم عيال والذين لهم عيال ؟

أهم الرجال والفرسان ؟

---

(١) سورة التوبة ٤١

أهم السابقون الى الحرب كالطلائع واللاحقون بهم من الجيش كله ؟

كل هذا صحيح ، والمعنى أنهم أمروا جميعا أى انفروا سواء خفت عليكم الحركة أم ثقلت [1] .

وكان أبو أيوب الانصارى يقول ان الله تعالى استنفر الخفاف والثقال ، ولا أحد من الناس الا خفيف أو ثقيل [2] .

ولقد ضرب المسلمون الاولون أروع المثل فى تلبية هذا الامر الكريم .

وحسبنا أن نذكر أن أبا ذر الغفارى أبطأ به بعيره فى غزوة تبوك ، فحمل متاعه على ظهره ، واقتفى أثر رسول لله ماشيا ، فقال الرسول لما رأى سواده من بعيد : كن أبا ذر ، فقال الناس : هو يا رسول الله أبو ذر ، فقال الرسول : رحم الله أباذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده .

وكان بعض السلف الصالح يجدون فى الجهاد سعادة نفوسهم وزلفى الى ربهم ، مع أنهم معفون من أعباء الجهاد ، فقد قرأ أبو طلحة سورة براءة ، فلما أتى على هذه الاية قال : أى بنى جهزونى ، جهزونى ، فقالوا له : يرحمك الله ، قد غزوت مع رسول الله حتى مات ، ومع أبى بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك .

قال : لا ، جهزونى . فغزا فى البحر حتى مات .

---

(١) تفسير القرطبى ٨/١٥٠.

(٢) المحلى لابن حزم ٧/٢٩١

وخرج سعيد بن المسيب الى الغزو وقد ذهبت احـدى عينيه فقيل له انك عليل ، فقال : استنفر الله الخفيف والثقيل ، فان لم يمكنى الحرب كثرت السواد ، وحفظت المتاع [1] •

فانظر الى أبى طلحة — وقد غزا مع رسول الله وخليفتيــه الاولين — يصر على أن يصل جهاده ما دام حيا ، ثم يموت مجاهدا •

وانظر الى سعيد بن المسيب وهو يخرج الى الجهاد معتزما أنه ان عجز عن القتال فلن يعجز عن ارهاب العدو بكثرة العدد ، ولن يعجز عن مساعدة المقاتلين على حفظ أمتعتهم •

وذكر صفوان بن عمرو أنه كان واليا على حمص فلقى شيخا كبيرا من أهل دمشق قد سقط حاجباه ، يريد الغزو على راحلته ، فقـال له : يا عم لقد أعذر الله اليك ، فرفع حاجبيـه وقال : يا ابن أخى استنفرنا الله خفافا وثقالا ، ألا ان من يحبه الله يبتله [2] •

وقال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وابتغوا اليه الوسـيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون » [3] •

فقرن الامر بالجهاد بالامر بتقوى الله وطاعته وسلوك الطريق الذى يصل العبد بخالقه ، وعقب على هذا الامر بأنه وسـيلة الى الفـلاح •

---

(١) تفسير القرطبى ١٥٢/٨ •
(٢) الكشاف ١٥٣/٢ •
(٣) سورة المـائدة ٣٥

٢ ـ وأمر الله بالجهاد أحباءه الذين يؤثرون الاخرة على الدنيا ويبذلون أنفسهم وأموالهم لله ابتغاء ثوابه ، ووعد الذين يقـاتلون فى سبيل الله فيقتلون أو ينتصرون ثوابا عظيما لا يعلم قدره وحقيقته غيره •

قال تعالى : « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالاخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجـرا عظيما [١] » •

وظاهر الاية يقتضى التسوية بين من قتل شهيدا ومن انقلب غانما، وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : تضمن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه الا جهاد فى سـبيلى وايمان بى وتصديق برسلى ، فهو على ضامن أن أدخله الجنة ، أو ارجعه الى مسكنه الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة •

فقوله نائلا ما نال من أجر أو غنيمة يقتضى ان لمن لم يستشـهد من المجـاهدين أحد الامرين اما الاجـر ان لم يغنم ، واما الغنيمـة ولا أجر •

وفى حديث عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : ما من غازية تغزو فى سبيل الله فيصيبون الغنيمة الا تعجلوا ثلثى أجرهم من الاخرة ويبقى لهم الثلث ، وان لم يصيبوا غنيمة تم لهـم أجرهم •

ولـمـا كان هذا قال قوم : حديث عبد الله بن عمرو ليس بشىء ، ورجحوا الحديث الاول عليه •

---

(١) سورة النساء ٧٤

وقال آخرون : ليس بينهما تعارض ولا اختلاف لان أو ، فى حديث أبى هريرة بمعنى الواو ، وقد دلت عليه رواية أبى داود ، فانه قال فيه : (من أجر وغنيمة) ورواه بعض رواة مسلم بالواو [1] .

وقال تعـــالى :

« يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبـــونه ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم [2] » .

٣ ــ ولقد أمر الله نبيه بالجهاد ، وأمره بأن يحـــرض المؤمنين عليه ، راجين بجهادهم أن ينصرهم الله على أعدائهم من الكفـــار الذين تطغيهم قوتهم لأن المؤمنين المجـــاهدين يستظهرون بقـــوتهم المـــادية وبقوتهم المعنوية ، اذ يدينون بأن الله مانح القوة والنصر ، وهو أعظم من أعدائهم قوة ، وأقدر منهم على النكال .

قال تعالى : « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف الا نفســـك ، وحرض المؤمنين ، عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا ، والله أشـــد بأســـا ، وأشد تنكيلا » [3] .

وقد يبدو من ظاهر اللفظ أن الله تعالى أمر رسوله بالجهـــاد وان قاتل وحده ، لانه قد ضمن له النصرة ، ولكن لم يجىء فى خبر قط أن القتال فرض على النبى دون الامة مدة ما ، فالمعنى أنه خطـــاب له فى اللفظ والمراد الأمة .

---

(١) تفسير القرطبى ٢٧٨/٥
(٢) سورة المـــائدة ٥٤
(٣) سورة النساء ٨٤ حرض : حض . عسى : للاطماع والاطمـــاع من الله تعالى واجب لليقين . تنكيلا : عقوبة .

ولهذا ينبغى لكل مؤمن أن يجاهد •

ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم : والله لاقاتلنهم حتى تنفرد سالفتى [1] وقول أبى بكر وقت الردة : ولو خالفتنى يمينى لجاهدتها بشمالى •

وقد علق القرطبى على تفسيره للآية بقوله :

قد يقول قائل : نحن نرى الكفار فى بأس وشـــــدة ، مع أن (عسى) هنا بمعنى اليقين ، فأين ذلك الوعد ؟

والجواب أن هذا الوعد قد وجد ، ولكن لا يلزم وجــوده على الاستمرار والدوام ، فمتى وجد ولو لحظة فقد صدق ، ففى بـــدر الصغرى كف الله بأس المشركين لـــا انصرف أبو سفيان من أحـــد وواعد رسول الله موسم بدر الصغرى ، فلما جاء الميعاد خرج اليهما رسول الله فى سبعين راكبا ، فلم يحضر أبو سفيان ، ولم يحـــدث قتال ، وأخلفوا ما كانوا عاهدوا النبى من الحرب والقتال ، وكفى الله المؤمنين القتال •

وكذلك فى الحديبية رام المشركون الغدر وانتهاز الفرصـــة ففطن بهم المسلمون ، فأخذوهم أسرى ، وكان ذلك والسفراء يمشون بينهم بالصلح •

ورمى الله فى قلوب الاحزاب ــ فى غزوة الاحزاب ــ الرعب ، فانصرفوا بغير قتال •

وخرج اليهود من ديارهم وأموالهم بغير قتال المؤمنين لهم •

---

(١) السالفة : صفحة العنق ، وكنى بانفرادها عن الموت .

ودخل كثير من اليهود والنصارى فى طاعة المسلمين ، ودفعوا الجزية ، وتركوا المحاربة ، فكف الله بأسهم عن المؤمنين [1] •

وقال تعالى :

« ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين » [2] •

٤ ــ وجاء الحض على الجهاد فى موضع آخر موصولا بانقاذ المسلمين الضعفاء من سطوة الكفار الذين يسومونهم سوء العذاب ، ويحاولون أن يفتنوهم عن دينهم ، لان الاخوة فى الاسلام توجب التعاطف والتعاون والاتحاد والمشاركة فى اعلاء كلمة الله تعالى ونصرة دينه •

قال تعالى :

« وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا » [3] •

واذا كان المستضعفون هنا هم من كانوا بمكة من المؤمنين الذين عذبتهم قريش ، وهم الذين أرادهم الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) تفسير القرطبى ٥/٢٩٤؟

(٢) سورة التوبة ١٢٣ عرفهم الله تعالى أن يبدأوا بالأقرب فالأقرب من العدو ، وأن يقاتلوا بشدة وقوة .

(٣) سورة النساء ٧٤ ــ ٧٦ القرية : المراد مكة .

بقوله : « اللهم انج الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش ابن أبى ربيعة ، والمستضعفين من المؤمنين » [1] ، فان هذا أمر عام يتناول المستضعفين فى كل عصر وفى كل مصر .

فالمسلمون الذين يستذلهم اليهود فى بيت المقدس أو فى غيره من فلسطين ، والمسلمون الذين يعذبهم غيرهم فى أى اقليم من الاقاليم ، لهم على اخوانهم مثل ما كان لضعفاء مكة من حقوق على النبى وعلى صحابته .

وتقاعدنا عن نصرتهم جبن ومعصية لله ومخالفة لأمره الصريح ، وهو الى هذا كله نكوص عما توجبه الوحدة الاسلامية والاخاء ، واطماع للاعداء يزين لهم أن يستهينوا بالاسلام والمسلمين ، وأن يمدوا أبصارهم الى بلد بعد بلد .

ومعاذ الله أن يغفل المسلمون عن هذه الاطماع ومعاذ الاسلام أن يتوانى المسلمون فى حمايته وافتدائه بالارواح والاموال .

٥ — ولقد أعلى القرآن الكريم من شأن الجهاد ، حتى انه قرنه بحب الله وحب رسوله ، وزاد عزازته على عزازة الاباء والابناء والاقارب جميعا ، ورفع قدره على الاموال والمتاجر والمساكن والمتاع كله ، وتوعد بعقاب شديد الذين ينكلون عن الجهاد ، لانهم يؤثرون هذا كله أو بعضه على ذيادهم عن دينهم ووطنهم ، ووصفهم بأنهم عصاة مارقون من الدين .

قال تعالى : « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن

---

(١) تفسير القرطبى ٥/٢٧٩

ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » [1] .

وقد علق الزمخشرى على تفسير الاية بقوله : وهذه آية شديدة لا ترى أشد منها ، كأنها تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين واضطراب حبل اليقين ، فلينصف أورع الناس وأتقاهم من نفسه هل يجد عنده من التصلب فى ذات الله والثبات على دين الله ما يستحب له دينه على الاباء والابناء والاخوان والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا ، ويتجرد منها لاجله ؟ أم يزوى الله عنه أحقر شىء منها لمصلحته ، فلا يدرى أى طرفيه أطول ، ويغويه الشيطان عن أجل حظ من حظوظ الدين ، فلا يبالى كأنما وقع على أنفه ذباب فطيره [2] .

من حض النبى على الجهاد :

تحفل الاحاديث النبوية بالحض على الجهاد ، والترغيب فيه ، اذ كان النبى عليه الصلاة والسلام المثل الاعلى للمسلمين فى الذود عن الدين والوطن ، يقودهم الى النصر ، ويتصدر صفوف المجاهدين ، ويخطب فيهم قبيل الملحمة لينفث فى روعهم من روعه ، ولينقل اليهم قبسا من حماسته وبسالته من هذا قوله صلى الله عليه وسلم :

١ — لولا أن أشق على أمتى المؤمنين ما تخلفت عن سرية ، ليس عندى ما أحملهم عليه ، ولا يتخلفوا عنى [3] .

فقد مارس الجهاد فى أعلى صوره فى عدة غزوات ، ولولا خوفه من أنه لو شخص بنفسه الى كل موقعة لاقتدى به المسلمون جميعا ،

---

(١) سورة التوبة ٢٤ اقترفتموها : كسبتموها . تربصوا : انتظروا .
(٢) الكشاف ٢/١٤٤ .
(٣) مسند الامام أحمد ٦٦/١٣

فنفروا الى كل المواقع فى حياته وبعد مماته ، لتشارك فى كل المعارك بنفسه، ولقد يشتاق بعضهم الى أن يجاهدوا وهم لا يجدون راحلة و لامالا ، فيطلبون من النبى الراحلة والمـــال حتى لا يتخلفوا عن رسول الله ، وليس الرسول بقادر على امدادهم بما يريدون .

٢ ـــ ان لكل أمة سياحة ، وسياحة أمتى الجهاد فى ســـبيل الله . وان لكل أمة رهبانيـــة ورهبانيـــة أمتى الرباط فى نحور العدو [١] .

ورسول الله الذى قال لا رهبانية فى الاسلام هو الذى قـــال رهبانية أمتى الرباط فى نحور العدو .

ومن هذا يتبين أن الجهاد عبـــــادة ، وأنه زلفى الى الله وأن الاسلام لا يقر السلبية والتواكل واعتزال المجتمع والتخلى عن نصرة الدين والحق والعدل والخير .

٣ ـــ لان أقتل فى سبيل الله تعالى أحب الى من أن يكون لى أهل المدر والوبر [٢] .

٤ ـــ اذا ضن الناس بالدينار والدرهم ، وتبايعوا بالعين ، واتبعوا أذناب البقر ، وتركوا الجهاد فى سبيل الله ، أنزل الله بهم بلاء ، فلم يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم [٣] .

---

(١) كنز العمال ٢٥٣/٢ و ٢٢٣/١ . السياحة : سكنى البرارى وترك الامصار وهى من رهبانية الأولين .

(٢) تيسير العصور ٢٢٥/١ أهل المدر : سكان الأمصار والقرى ، أهل الوبر : سكان البادية .

(٣) المسند ٣٣/٧ العين : العينة : أن يبيع رجل سلعة بثمن معلوم الى أجل مسمى ، ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذى باعها به .
اتبعوا أذناب البقر : تفرغوا للزراعة واذلوا انفسهم للارض ، وتركوا الجهـــاد .

٥ـ لئن تركتم الجهاد ، وأخذتم بأذناب البقر ، وتبايعتم بالعينة، ليلزمنكم الله مذلة فى رقابكم لا تنفك عنكم حتى تتـوبوا الى اللـه وترجعوا على ما كنتم عليه [١] .

٦ ـ شر ما فى المرء شح هالع ، وجبن خالع .

٧ ـ لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، واذا استنفـرتم فانفـروا [٢] .

٨ ـ فاذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظـلال السـيوف [٣] .

٩ ـ سأل أحد الصحابة رسول الله : ما يضحك الله من عبده ؟ فقال : غمسه يده فى العدو حاسرا .

فنزع الرجل درعه ، ودخل فى العدو حتى قتل [٤] .

---

(١) المسند ١٠٥/٧
(٢) المحلى ٢٩١/٧ .
(٣) صحيح البخارى والمحلى ٢٩٤/٧
(٤) المحـلى ٢٩٤/٧



الفصل الخامس

وسائل الجهاد

الجهاد فى سبيل الله لاعزاز دينه ، وللدفاع عن الحقوق التى أمر بصيانتها ، ولحماية الوطن والعرض والمال ، ولنجدة المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، هذا الجهاد ضروب وأنواع يؤازر بعضها بعضا ليتحقق النصر المنشود .

١ — المحاربة بالنفس :

أول ما يتبادر الى الذهن من ضروب الجهاد هو المحاربة فى ميدان الحرب اذ يلتقى الجمعان ، فيقدم المسلم أقدام البطل الذى لا يعبأ بالحياة ، لانه يشترى آخرته بدنياه ، مطمئنا الى رعاية الخالق والى نصر الله .

٢ — الحراسة والمرابطة :

ومن أنواعه حراسة الجنود ، والمرابطة فى الثغور والحدود ، واستطلاع خُطط الاعداء .

قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » (١) .

---

(١) سورة آل عمران ٢٠٠

فأمر سبحانه وتعالى بالصبر عامة ، وأعقبه بالامر بالمصابرة وهى مغالبة الاعداء بالصبر على مشقات الحرب ، حتى لا يبدو من المسلمين خور ولا خوف ، ثم أمر بالمرابطة وهى تشمل معنيين : أحدهما ارتباط الخيل لاستخدامها فى الحرب كما يفعل الاعداء •

والاخر هو التوجه الى ثغر من ثغور المسلمين لحراسته فترة ما ، وأما سكان الثغور بأهليهم فهم ان كانوا حماة فليسوا مرابطين •

وللرباط حالتان : حالة يكون فيها الثغر مأمونا منيعا فيجوز سكناه بالاهل والولد ، وان كان غير مأمون جاز أن يرابط فيه بنفسه اذا كان من أهل القتال ، ولاينقل اليه الاهل والولد ، لئلا يغلب العدو فيسبى ويسترق •

وفى الموطأ أن أبا عبيدة بن الجراح كتب الى عمر بن الخطاب يذكر له جموعا من الروم وما يتخوف منهم ، فكتب اليه عمر : أما بعد ، فانه مهما ينزل بعبد خوف من منزل شدة يجعل الله له بعدها مخرجا ، وانه لن يغلب عسر يسرين ، وان الله تعالى يقول فى كتابه :

« يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » [1] •

وقد ورد الحض على الحراسة والمرابطة والتنويه بالثواب العظيم الذى يناله الحارس والمرابط فى كثير من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، مثل قوله :

١ ـ رباط يوم فى سبيل الله أفضل من ألف يوم فيما سواه ، فليرابط امرؤ كيف يشاء ، هل بلغت ؟

---

(١) تفسير القرطبى ٣٢٢/٤

قالوا : نعم ، قال :اللهم اشهد [1] .

٢ — حرس ليلة فى سبيل الله تعالى أفضل من ألف ليلة يقـــام ليلها ، ويصام نهارها [2] .

٣ — من رابط ليلة حارسا من وراء المسلمين كان له مثــل أجر من خلفه ممن صام وصلى [3] .

٤ — من رابط ليلة فى سبيل الله كان أفضل من صيام رجل وقيامه شهرا فى أهله [4] .

٥ — رباط يوم فى سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه ، ومن مات مرابطا فى سبيل الله كا نله أجر مجاهد اليوم القيامه [5] .

٦ — روى مسلم فى صحيحه أن النبى صلى الله عليه وســلم قال : رباط يوم وليلة فى سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه . ومن مات مرابطا مات مجاهدا ، وأجرى عليه رزقه من الجنـــة ، وأمن الفتان [6] — فتان القبر .

٧ — وفى السنن عن عثمان عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : رباط يوم فى سبيل الله خير من ألف يوم فيما ســـــواه من المنازل .

وقد قال عثمان هذا الحديث وهو على منبر رسول الله ، وذكر أنه قال لهم ذلك تبليغا للسنة [7] .

٨ — وقال أبو هريرة : لأن أرابط ليلة فى سبيل الله أحب الى من أن أقوم ليلة القدر عند الحجر الاسود [8] .

---

(١) المسند ٣٥١/١
(٢) المسند ٣٤٦/١
(٣) ، (٤) ، (٥) كنز العمال ٢٦٢/٢
(٦) ، (٧) ، (٨) مجموع فتاوى ابن تيمية ٦/٢٨ .

٣ ـ المـــال :

تقتضى الحرب أموالا ، لاعداد الاســـلحة والرواحل والزاد ووسائل النصر وهذه الاموال تختلف باختلاف الحـــروب والعصور والحاجات •

فقد كانت الحروب القديمة تحتاج الى خيل وابل وسيوف ورماح وقسى ودروع ، ثم جعلت الاسلحة تتطور حتى صارت فى الحـــرب الحديثة تعتمد على الدبابات والسيارات والطيارات والمدافع والصواريخ والغواصات وما شاكلها •

وهذه الاسلحة على اختلافها محتاجة الى مال •

ومن البديه أن خزانة الدولة لا تستطيع أن تنهض بمـــا يعـــوز الحرب من نفقات ، ولهذا تلجأ الحكومات الحديثة الى فرض ضرائب للامن وضرائب للدفاع ، وترحب بما يسخو به المواطنون للمساهمة فى نفقات الحرب •

ولا شك أن أحوال الناس متفاوتة ، فمنهم من يقدر على الجهاد بالمـــال والنفس ، ومنهم من يقدر على الجهاد بالنفس وحدها لصحـــة بدنه ، ويعجز ع نالخروج لفقره ، ومنهم من يعجز عن الخروج بنفسه، ويقدر على الجهاد بماله •

فيصح لهذا الاخير أن يجهز بماله من يخرج بنفســـه ، فيكون الخارج مجاهدا بالنفس والقاعد مجاهدا بالمـــال ، والمؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضا •

ولهذا كره ابن عباس لقابض المال أن يجعل شيئا منه فى متاع بيته لان الذى أعطاه المال أمره بالجهاد به [1] .

ومن قدر على الجهاد بنفسه وماله معا لزمه الجهاد ، ولا يصح له أن يأخذ جعلا من أحد .

ومن عجز عن الخروج وله مال فعليه أن يبعث غيره عنه بماله .

ومن أعطاه الحاكم كفايته من بيت المال لا ينبغى له أن يأخذ جعلا من غيره .

فان لم يكن فى بيت المال ما يكفى للانفاق على الحرب ، ودعت الضرورة الى تجهيز الجيش للدفاع عن المسلمين فللامام أن يجمع من المسلمين المال الذى يكفى ، لانه مأمور بالنظر فى مصالحهم ، وان لم يجهز الجيش عنهم ظهر أعداؤهم عليهم ، فأخذوا الاموال والذرارى والنفوس [2] .

وقد أمر الله تعالى بالجهاد المالى والبدنى فى آيات كثيرة ، قال تعالى :

« انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون [3] » .

وحض على البذل فى سبيل الله ، ورغب فى الثواب العظيم الذى أعده للباذلين ، قال تعالى :

---

(١) المبسوط للرضى ٢٠/١٠
(٢) المبسوط ٢٠/١٠
(٣) سورة التوبة ٤١

« مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مئة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم • الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى ، لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » [1] •

فجعل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله مثل زارع بذر فى الارض حبة ، فأنبتت الحبة سبع سنابل ، فى كل سنبلة مئة حبة •

ومعنى هذا أنه شبه المتصدق بالزارع ، وشبه الصدقة بالبذر ، ووعد أن يعطيه بكل صدقة سبع مئة حسنة ، ثم قال انه هو القدير على هذه المضاعفة ، أو انه يزيد على السبع مئة لمن يشاء •

روى أن هذه الاية نزلت فى عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف ، لان رسول الله لما حث على الصدقة حينما أراد الخروج لغزوة تبوك جاء عبد الرحمن بأربعة آلاف فقال : يا رسول الله كانت لى ثمانية آلاف ، فأمسكت لنفسى ولعيالى أربعة آلاف ، وأقرضت ربى أربعة آلاف ، فقال رسول الله : بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت •

وقال عثمان : يا رسول الله ، على جهاز من لا جهاز له ، فتبرع للمجاهدين بالاطعمة والمطايا وبثلاث مئة بعير ، ونثر فى حجر رسول الله ألف دينار فدعا له الرسول بقوله : اللهم ارض عن عثمان ، فانى عنه راض [2] •

---

(١) سورة البقرة ٢٦١ ــ ٢٦٢ . المن : ذكر النعمة على معنى التعديد لها والتقريع بها أو التحدث بها للمباهاة . الأذى : السب أو التشكى وهو أعم من المن .

(٢) سيرة ابن هشام ١٦١/٤ والكامل لابن الأثير ١٠٦/٢

وقد ورد فى القرآن الكريم أن الحسنة فى جميع أعمال البر بعشرة أمثالها ، ولكن هذه الاية بينت أن نفقة الجهاد حسنتها بسبع مئة ، وانها قد تزيد .

على أن الاية الثانية توضح أن الثواب العظيم انما هو لمن لايتبع انفاقه منا ولا أذى لانهما مبطلان لثواب الصدقة ، فعلى المعطى أن يبتغى وجه الله تعالى وثوابه (١) .

وجاء الحض على الانفاق فى سبيل الله فى صورة التوبيخ للبخلاء، لانهم سيموتون ويخلفون أموالهم لغيرهم من الورثة أو سواهم ، والله هو المالك وهو الذى يرث الارض والسماوات .

واذ كان المسلمون قبل فتح مكة أضعف قوة منهم بعد فتحها ، وكانوا أشد حاجة الى الجهاد والاموال ، فضل الله تعالى ثواب الذين جاهدوا بأنفسهم وأموالهم قبل الفتح على الذين جاهدوا بعد الفتح .

ثم حض على السخاء بالمال حضا يجتذب القلوب ، فسماه قرضا حسنا لله ، ووعد المقرضين بمضاعفة هذا القرض ، وبثواب كريم يوم القيامة ، قال تعالى:

« وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ، ولله ميراث السماوات والارض ، لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى ، والله بما تعملون خبير .

---

(١) تفسير القرطبى ٣/٣٠٢ والكشاف ١/١٦٠

من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له ، وله أجر كريم • يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبايمانهم ، بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الانهار ، خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم » [(١)] •

وبين سبحانه وتعالى أنه من علامات الايمان الصحيح الصادق أن يبادر المؤمنون الى تنفيذ ما يأمرهم به رسول الله من جهاد بالنفس والمال ، فى غير تباطؤ أو مواربة أو تردد تبدو مقنعة فى صورة استئذان ليأذن لهم •

قال تعالى : « لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الاخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، والله عليم بالمتقين » [(٢)] •

وبحسب الذين يبذلون مالهم فى سبيل الله أنهم مجاهدون ، أعد الله لهم درجة عالية ، ووعدهم بالفوز ، وبشرهم برحمته ورضاه وأجره العظيم •

قال تعالى :

« الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ، وأولئك هم الفائزون ، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، خالدين فيها أبدا ، ان الله عنده أجر عظيم » [(٣)] •

---

(١) سورة الحديد ١٠ ، ١١ ، ١٢ الفتح : أكثر المفسرين على أن المراد فتح مكة (القرطبى ١٧/٢٤٣) •
(٢) سورة التوبة ٤٤
(٣) سورة التوبة ٢٠ — ٢٢

على أن البخلاء بأموالهم الذين يمسكونها عن الانفاق فى سبيل الله لا يضرون الا أنفسهم ، لان الله غنى عنهم وعن أموالهم وعن جهادهم ، وهم الفقراء اليه .

ولكنه تعالى أوعدهم بأنهم ان أعرضوا عنه وعن الانفاق فى سبيله استبدل بهم غيرهم من الناس ، لا يكونون أمثالهم فى البخل بالانفاق فى سبيل الله .

قال تعالى :

« ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله ، فمنكم من يبخل، ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء ، وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم » (١) .

والاحاديث الشريفة التى تحض على الجهاد بالمال ، وتبشر بثوابه كثيرة ، منها قوله صلىالله عليه وسلم :

١ — من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازيا فى سبيل الله فى أهله بخير ، فقد غزا (٢) .

٢ — من جهز غازيا فى سبيل الله كان له مثل أجره من غير أنينتقص من أجر الغازى شيئا (٣) .

٣ — من جهز غازيا حتى يستقل كان له مثل أجره حتى يموت أو يرجع (٤) .

٤ — من أنفق نفقة فى سبيل الله كتبت له بسبع مئة ضعف (٥) .

---

(١) سورة محمد ٣٨

(٢) ، (٣) كنز العمال ٢/٢٥٤ .

(٤) ، (٥) كنز العمال ٢/٢٥٧ .

٥ جاء رجل بناقة مخطومة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هذه فى سبيل الله تعالى •

فقال صلى الله عليه وسلم : لك بها يوم القيامة سبع مئة ناقة ، كلها مخطومة[1] •

(٤) اللســـــان

كانت الحرب وما زالت محتاجة الى المقال ســـواء أكان خطـــابة أم كتابة أم شعرا ، لاشعال حماسة المحـــاربين ، وتثبيت أقدامهم ، وأعزاز حقهم ، وتبشـــيرهم بالنصر ، وتقدير جهودهم وجهادهم ، وتبصيرهم بما يثمره فوزهم من حفاظ على دينهم ، وحماية لوطنهـم وأموالهم وأعراضهم • ولا ينفك هذا ونظائره عن الحملات على الأعداء ، بالكشف عن باطلهم ، وتبيان طغيانهم وعداوتهم ، واضعاف قوتهم ، واجتذاب الآخرين الى التخلى عن نصرتهم ، فان شاءوا ناصروا الحق، وان شاءوا لزموا موقف الحيدة •

ومن هنا لم يكن بد للحرب من سلاح قولى يغذى أسلحتها الاخـــرى ويقويها وينميها •

واذا كان هذا السلاح قد تمثل فيما مضى فى الخطبة والقصيدة والرسالة ، فانه قد زاد عليها فى العصر الحديث وفى الوقت الحاضر وسائل أخرى ، كالصحافة والاذاعة والقصة والمسرحية وغيرها •

فالذين ينهضون بهذا العمل مخلصين لكسب النصر مجاهدون فى سبيل الله •

---

(١) تيسير الوصول ١/٢٢٤ مخطومة : وضع فى رأسهما الخطام وهو غير الزمام الذى يوضع فى أنف البعير •

وقد أشاد النبى صلى الله عليه وسلم بفضل الجهاد باللسان ، فقـــال :

١ ــ جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم (١) .

٢ــ ياحسان أهج المشركين وجبريل معك ، اذا حارب أصحابى بالسلاح فحارب أنت باللسان (٢) .

٣ ــ ان المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه .

٤ ــ ان المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذى نفسى بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل (٣) .

٥ ــ قال عمر بن الخطاب لعبد الله بن رواحة : بين يدى رسول الله وفى حرم الله تقول الشعر ؟

فقال رسول الله : خل عنه يا عمر ، فلهى ــ القصيدة ــ أسرع فيهم من نضح النبل .

و فى رواية : خل عنه يا عمر ، فوالذى نفسى بيده لكلامه أشـــد عليهم من وقع النبل (٤) .

---

(١) تيسير الوصول ٢٢٨/١
(٢) كنز العمال ١١٨/٢
(٣) كنز العمال ١١٧/٢ نضح النبل : الرمى بالسهام .
(٤) كنز العمال ١١٨/٢

(٥) الجهاد النائب

تتعدد أنواع الجهاد من مشاركة عملية ، الى سخاء بالمـال ، الى مساهمة باللسان والقلم ، الى حراسة ورباط ، الى القيام بأى عمل ينفع فى الحرب ويعين على النصر •

ومن أنواعه أن ينوب فيه شخص عن آخر ، لعذر يقعده ، أو مصلحة يراها الامام •

فقد جاء فتى الى رسول الله فقال : انى أريد الغزو ، وليس لى مال أتجهز به •

قال الرسول ، أئت فلانا ، فانه كان قد تجهز فمرض •

فأتاه الفتى فقال ان رسول الله يقرأ عليك السلام ، ويقول :

أعطنى الذى تجهزت به •

فقال الرجل لأهله : يا فلانة ، أعطيه الذى تجهزت به ، ولا تحبسى عنه شيئا منه ، فوالله لا تحبسين منه شيئا فيبارك الله فيه [١] •

وكان عمر بن الخطاب يغزى الاعزب عن الزوج •

وكان يعطى الغازى فرس القاعد •

وهو فى هـذا حسن التدبير ، لان الزوج قد يشـغل بزوجته ، فلا يستطيع المقام فى الثغر ، على حين أن الاعزب لا يشـغله شىء ، فيطيل المقـام [٢] •

---

(١) تيسير الوصول ٢٣٨/١
(٢) المبسوط ٢٠/١٠

(٦) وسائل أخرى

هل الجهاد مقصور على تلك الوسائل من مشاركة بالنفس ، أو بذل للمال ، أو مرابطة فى الثغر ، أو مقاومة باللسان ، أو نيابة عن آخر ؟

أليست هذه من وسائل النصر ، لاعلاء كلمة الله ، واعزاز دينه ، وحماية الوطن وأهليه ؟ بلى ، والقياس يقتضى أن يلحق بها ما يعززها ويقويها •

فمن الجهاد أن يخترع العلماء الاسلحة ، وأن يشترك الصناع فى صناعتها ، لانها عدة المحاربين التى يستعينون بها على المقاومة والدفاع والانتصار •

ومن الجهاد أن يقوم المهندسون والعمال بتمهيد الطرق للجيش ، واقامة الجسور ، وانشاء الخنادق والحصون • ومن الجهاد أن يرافق الأطباء المقاتلين ، ليطببوهم وليضمدوا جراحهم •

ومن الجهـــاد أن يصطبر المسلمون على ما يصيبهم من جهـــد فى المعيشة ، لان بعض ثمراتهم تنقل الى ميادين الحرب أو ثغور الحراسة والمرابطة •

ومن الجهاد أن يرعى المسلمون أسر الشـــهداء والمحاربين ، رعاية خالصة لله ، فيها الحنان والاخاء والمواساة •

ومن الجهاد أن يؤدى المسلمون المشردين الذين أخرجهم الاعداء من ديارهم ، أو الذين قضت ضرورات الحرب بهجرتهم الى غير ديارهم •

وهكذا تتعدد أنواع الجهاد ، وبخاصة فى هذا العصر الذى تنهض فيه الدولة والجيش بأعباء الحرب ، ولكنها لا تستغنى عن جهود الشعب أفرادا وجماعات •



الفصل السادس

الحض على التسلح

أمر الله تعالى بالجهاد ، وأمر بكل ما يكفل النصر من ثبات واقدام وعمل واستعانة بالله •

وأمر باعداد الاسلحة والوسائل التى يتقوى بها المؤمنون فى الحرب ويرهبون أعداءهم ، ويظهرون عليهم •

وهذه الاسلحة تتنوع فى العصور والبيئات ، فقد كانت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم سيوفا ورماحا وقسيا ودروعا وخيلا وابلا ، ثم جعلت تتطور الى أن صارت اليوم مدافع وقنابل وصواريخ وسيارات ودبابات وغواصات وما شاكلها •

ولكل نوع من الاسلحة الحديثة مكانه الذى يقتضيه ، كما كان لكل نوع من الاسلحة القديمة موضعه الذى يليق به ، فيكون أفضل من سواه•

فمثلا كان الضرب بالسيف عند الالتحام والمجابهة ، والطعن بالرمح حين المقاربة ، والرمى بالنبل عند البعد أو عند وجــود حائل كالنهر والحصــن •

ومعنى هذا أن السلاح الافضل هو الاشد نكاية فى العدو ، والاعظم للمسلمين منفعة ، وهذا يختلف باختلاف أحوال العدو ، وباختلاف حال المجاهدين ، وذلك كله يعلمه المقاتلون وأصحاب الخبرة [1] •

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٢/٢٨

قا لتعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم ، وما تنفقــوا من شيء فى ســبيل الله يوف اليــكم وأنتــم لا تظلمون » [١] •

فأمر باعداد كل وسائل القوة وأنواع السلاح ، وخص الخيــل بالذكر ، لأن فضلها كان عظيما فى الحــرب ، اذ كانت أقوى العدة وحصون الفرسان التى يجولون بها فى الميدان ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « الخيل معقود بنواصيها الخير » • وجاء ختام الآية مرغبا فى الانفاق على الخيل وفى شراء السلاح ، لان الله تعالى وعد برد النفقة عشرة أمثالها الى سبع مئة [٢] •

لهذا كان المسلمون الأولون يتنافسون فى اقتناء الخيل ، ويسرعون بها الى الجهاد ، حتى ان عروة البارقى كان له سبعون فرسا معدة للجهاد •

وقد نص الفقهاء على أن تعلم الفروسية واستعمال الاسلحة فرض كفاية ، وقد يكون فرض عين ، بحسب ما تقضى به أحوال الحــرب والسلام ، وحالات المسلمين وأعدائهم •

وللمعلمين أن يطلبوا جعلا ممن يعلمونه الرمى والطعن والضرب ، فان أخذ الجعل والعوض على تعليم هذه الصناعة جائز ، والاكتساب بذلك أحسن المكاسب •

فاذا أخرج ولى الامر مالا من بيت المال للمسابقين بالنشاب والخيل والابل كان ذلك جائزا باتفاق الأئمة •

---

(١) سورة الأنفال ٦٠. الرباط : اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله . العدو المراد من الآية هم اليهود وكفار العرب ، وأما الآخرون الذين لا يعلمهم الا الله فهم الفرس والروم أو كل من لا يعرف المسلمون عداوته .

(٢) تفسير القرطبى ٣٧/٨

ولو تبرع رجل مسلم ببذل الجعل فى ذلك كان مأجورا .

وذلك لان منفعة هذه الاعمال عامة للمسلمين ، لانها عون على الجهاد فى سبيل الله ، والجهاد مقصوده أن يكون الدين كله لله ، وأن تكون كلمة الله هى العليا (١) .

لهذا حض رسول الله صلى الله عليه وسلم على الفروسية والرمى والتسلح ، فقال :

١ ــ أحب اللهو الى الله تعالى اجراء الخيل والرمى (٢) .

٢ ــ ألا ان القوة الرمى ، ألا ان القوة الرمى ، ألا ان القوة الرمى (٣) .

٣ ــ ان الله تعالى يدخل بالسهم ثلاثة نفر الجنة : صانعه يحتسب فى صنعته الخير ، والرامى به ، ومنبله (٤) .

٤ ــ ان المنفق على الخيل فى سبيل الله كالباسط يديه بالصدقة ولا يقبضها (٥) .

٥ ــ الخيل معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة (٦) .

٦ ــ الخيل ثلاثة : فرس للرحمن ، وفرس للانسان ، وفرس للشيطان .

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٢/٢٨

(٢) ، (٣) ، (٤) كنز العمال ٢٦٦/٢ ومجموع فتاوى ابن تيمية ٦/٢٨ منبله : الذى يعين به .

(٥) الكنز ٢٥٤/٢

(٦) المسند ٢٨٢/٦

فأما فرس الرحمن فالذى يربط فى سبيل الله ، وأما فرس الشيطان فالذى يقامر أو يراهن عليه ، وأما فرس الانسان فالفرس يرتبطها الانسان يلتمس بطنها ، فهى تستر من فقر (١) .

ثبت عن النبى فى الصحيح أنه قال : أرموا وآركبوا ، وأن ترموا أحب الى من أن تركبوا ، ومن تعلم الرمى ثم نسيه فليس منا .

وفى رواية : ومن تعلم الرمى ثم نسيه فهى نعمة جحدها .

وفى السنن عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل ، الا رميه بقوسه ، وتأديبه فرسه ، وملاعبته امرأته ، فانهن من الحق .

وقال : ستفتح عليكم أرضون ، ويكفيكم الله ، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه (٢) .

٨ — من رمى بسهم فى سبيل الله — بلغ العدو أو لم يبلغه — كانت له عدل رقبة (٣) .

فى صحيح البخارى أن رسول الله مر على نفر من أسلم ينتضلون، فقال : أرموا بنى اسماعيل ، فان أباكم كان راميا ، أرموا وأنا مع بنى فلان . فأمسك أحد الفريقين بأيديهم ، فقال : مالكم لا ترمون ؟ قالوا : كيف نرمى وأنت معهم ؟ فقال : أرموا وأنا معكم كلكم .

---

(١) المسند ٥/٢٨٤

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨/٩ والمحلى ٧/٣٥٣

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨/١١

الفصل السابع

الحض على الشجاعة

قيمة الشجاعة :

هل يغنى السلاح البتار عن الشجاعة ؟

وهل تجدى كثرة العدد والقلوب خاوية من الشجاعة ؟

لا ، فالشجاعة أقوى سلاح للمجاهد ، كثيرا ما تعوض قلة العدد ونقص العدد ، لان الشجاع يقتحم المخاطر ، ويتعالى على النكول والفرار ، فهو — كما قال ابن حزم :

« يبذل نفسه للذود عن الدين أو الحريم أو الجار المضطهد أو المستجير المظلوم ، وعن الهضيمة ظلما فى المال والعرض وسائر سبل الحق .

والصبر على ذلك جبن وخور ، وذل النفس فى عروض الدنيا تهور وحمق ، وأحمق من ذلك من يبذل نفسه فى منع الحقوق والواجبات ، وأحمق من هؤلاء قوم لا يدرون فيم يبذلون أنفسهم ، فيتعرضون للمهالك ، اما الى العار ، واما الى النار » .

وقد ذهبت فى كتاب آخر [١] الى أن الشجاعة ليست غريزة [٢] كامنة تظهرها الحوادث من غير انتظار ، حتى ان الشجاع يخرج من المعركة معتقدا أن ما أبداه من بسالة واقدام فى قدرة كل شخص أن يبذله اذا وقف موقفـــه .

ليس هذا من الحق ، لان هذا الوصف ينطبق على غريزة الهرب لا على الشجاعة .

ولو عددنا الشجاعة غريزة كالهرب والخوف والغضب والسيطرة والمحاكاة ما كان للشجاع فضل ، وما كانت الشجاعة من ضروب العظمة والتمجيد ، لان الغرائز قسط مشاع بين الناس [٣] ، وليس لاحد فضل فى الاستجابة لها ، بل لقد يكون فضله فى أن يتسامى بهـــا ، ويوجهها وجهة أخرى .

وانما نعد الشجاعة فضيلة ، لانها مجازفة بالحياة ، والحياة أغلى ما يملك الانسان ، و لاشىء ينجيها من الاذى ، ويكفل لها السلامة الا البعد عن المعاطب .

---

(١) البطولة والابطال ٢٤ — ٣٢

(٢) الغريزة كما عرفها العلامة مكدوجل — اكبر حجة فى دراسة الغرائز — هى حالة فطرية نفسية جسمية تحمل صاحبها على :

أ — ادراك شىء أو أشياء من نوع خاص .

ب — ادراك انفعال وجدانى معين ينشأ مع هذا الادراك .

جـ — القيام بعمل خاص نحو الشىء المدرك او الشعور بميل نحو هـــذا العمل ، فغريزة الهرب مثلا استعداد موروث جسمى عقلى يحمل الانسان على أن يراقب عدوه ، فاذا اقترب منه عدوه وحمل عليه وكان أقوى منـــه شعر بحالة وجدانية خاصة هى الخوف ، ثم أسرع فى الجرى لينجو من شر هذا العدو المهاجم .

(٣) يذكر علماء النفس أن الغرائز ميول فطرية تصدر عنها أفعال قهرية لغاية معينة وهى عامة فى الناس بل يشمل بعضها الانسان والحيوان (فى علم النفس لحامد عبد القادر وزميليه والغرائز للغمراوى وكيف يعمل العقـــل ترجمة محمد خلف الله وعسكر) .

ولا شك أن الجبن هو الوسيلة الى الحياة الامنـة التى يؤثرها الجبناء .

ضروب من الحض عليها :

أمر الله تعالى بالجهاد ذوى المقدرة عليه ، وحضهم على الشجاعة فى لقاء الاعداء ، وحبب اليهم البسالة فى حومة الوغى ، وحضهم على الاقدام الذى يسترخص الحياة الفانية ، ويستغلى الحياة الباقية .

فعلى المسلم اذا ما لقى فى الحرب عدوه أن يجعل النصر غايته التى لها يعمل واليها يقصد ، ليظفر المسلمون بفوز سريع حاسم ، يحقق لهم الغلبة ، ويقيهم ويقى أعداءهم شرور الحرب الطويلة المنهكة لهؤلاء وهؤلاء .

١ ــ لهذا أمر القرآن الكريم بالثبات الباسـل الذى لا يرهب ولا يميد .

قال تعالى : « ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص [1] .

وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيرا ، لعلكم تفلحون .

واطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشـلوا ، وتذهب ريحكم ، وأصبروا ، ان الله مع الصابرين .

---

(١) سورة الصف ٤ مرصوص : قال الفراء : مرصوص بالرصـاص ، وقال المبرد : هو من رصصت البناء اذا صيرته كقطعة واحدة ، وقيل هو من الرصيص اى انضمام الاسنان بعضها الى بعض ، فالبنيان المرصوص هو المتلاصق (تفسير القرطبى ٨١/١٨) .

ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ، ورئاء الناس ، ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط » [١] .

فأمرهم أن يذكروه منتصرين به . اذا مالقوا أعداءهم فى حرب ، لان ذكره والاستعانة به تثبت قلوبهم ، وتزيدهم حماسة [٢] .

ونهاهم عن الغرور بالكثرة والقوة حتى لا يكونوا مثل أبى جهل وأصحابه الذين خرجوا يوم بدر لنصرة عير أبى سفيان ومعهم القيان والمعازف ، واعتزم أبو جهل بعد أن علم بنجاة العير أن يرد بدرا ليشرب فيها الخمر ، ويسمع عزف القيان وغناءهن ، فيسمع العرب بما فعلت قريش ، فيرهبونها أبد الدهر ، فلما ورد بدرا كان النصر للمسلمين على قريش ، ولم تغنها كثرتها ولا قوتها .

٢ ـ وأمر المسلمين بالمهارة فى تسديد الطعنات وتصويب الضربات، فعليهم أن يثبتوا فى الميدان ، وأن يقصدوا مقاتل أعدائهم قصدا .

قال تعالى : « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها .

ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض [٣] » وقد جاء التعبير عن القتل بضرب الرقاب ، لأنه يصور القتل فى صورة

---

(١) سورة الانفال ٤٥ ـ ٤٧

(٢) قال القرطبى : ان هذا الذكر يكون خفيا ، لان رفع الصوت فى مواطن القتال ردىء مكروه اذا كان الذاكر واحدا ، فان كان من الجميع عند الحملة فهو حسن ، لانه يفت فى أعضاء العدو . روى أن أصحاب رسول الله كانوا يكرهون الصوت عند القتال (تفسير القرطبى ٨/٢٥) .

(٣) سورة محمد ٤ ـ ٥ والمسلمون مخيرون فى الاسرى بين الاطلاق بغير فداء والفك بفداء ، ولم تذكر الآية قتلهم لان القتل تقدم فى صدر الآية .

سريعة مرعبة بحز العنق واطاحة العضو الذى هو رأس البدن وأعلاه وأشرف أعضائه .

وقال سبحانه :

« فاضربوا فوق الاعناق ، وأضربوا منهم كل بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشـــاقق الله ورسوله فان الله شـــديد العقاب » [1] .

أما الكفار الذين ذكرتهم الآية « فاذا لقيتم الذين كفروا » فهم فى رأى ابن عباس المشركون عبدة الأوثان ، أوهم كل من خالف الاسلام من مشرك أو كتابى اذا لم يكن صاحب عهد ولاذمة ، كما ذكر الماوردى واختاره ابن العربى ، وقال : هو الصحيح ، لعموم الآية فيه [2] .

والحق أن الآية عامة تشمل كل من يحاربهم المسلمون من أعـــداء دينهم ، ولا مسوغ لتخصيصها بنوع من هؤلاء .

وانها لتنطبق أيما انطباق على الصهيونية التى آضطرت المسلمين الى محاربتها ، اذ طغت على أهل فلسطين من مسلمين ومسيحيين ، وبغت هنالك بغيا لا يرتضيه دين ولا قانون ولا خلق كريم ، وسلبت الاموال ، وقتلت الرجال والنساء والأطفال ، وشردت مئات الألوف من الأسر التى كانت آمنة فى ديارها ، وهددت العرب والمسلمين جميعا ، ثم حاربتهم مرات ، واعتدت على بيت المقدس عدوانا أفزع المسلمين والنصارى .

فعلى كل مجاهد أن يستبسل فى حربهم ، ويستقتل فى طردهم ، ليكشف عن دينه الغمة ، وليطهر وطنه من الوصمة ، وليسترد حقـــوقه المسلوبة ، ويثأر لكرامته المزدراة .

---

(١) سورة الانفال ١٢ البنيان : الاصابع أو الاطراف مفردها بنانة .
(٢) تفسير القرطبى ٢٢٨/٦ .

قال ابن حزم : لا يحل لمسلم أن يفر عن مشرك ولا عن مشركين ، ولو كثر عددهم أصلا ، لكن ينوى فى رجوعه التحيز الى جماعة المسلمين ان توقع ان يبلغهم ، أو ينوى الكر الى القتال .

فان لم ينو الا أن يولى الاعداء دبره هاربا فهو فاسق ، ما لم يتب [١] .

٣ — ونهى الله تعالى عن الفرار حين يلتحم الجيشان ، وأوعد من يفر بغضب شديد وعذاب أليم ، ولكنه استثنى الذين يتخذون الفرار وسيلة للكر اذ يتخيرون موقعا أجدى فى الحرب من موقعهم ، أو ينحازون الى جماعة أخرى من المسلمين ليظاهروها أو ليستظهروا بها .

قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الادبار . ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم ، وبئس المصير » [٢] .

وقد جاء النهى عن الفرار مصحوبا بتقبيحه ، اذ عبر عنه باعطاء الادبار للاعداء .

والذى يتبين من القرآن الكريم ومن اجماع أكثر الأئمة أن الفرار من أكبر الكبائر .

جاء فى صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اجتنبوا السبع الموبقات ... وذكر منها التولى يوم الزحف .

---

(١) المحلى ٢٩٢/٧ .

(٢) سورة الانفال ١٥ — ١٦ زحفا : جيشا كثيرا كثيفا ، وهذه الكلمة حال من المؤمنين أو من الكافرين أو منهم جميعا .

وقال ابن القاسم : لا تجوز شهادة من فر من الزحف ، ولا يجوز للجند أن يفروا وان فر امامهم ، ولكن يجوز للجند أن يفروا اذا كان عدوهم أكثر من ضعفهم ، وهذا ان لم يبلغ عدد المسلمين اثنى عشر ألفا، فان بلغوا اثنى عشر ألفا لم يحل لهم الفرار • وان زاد عدد المشركين على الضعف ، لقوله صلى الله عليه وسلم : لن يغلب اثنا عشر ألفا من قله • وروى عن الامام مالك ما يدل على أن هذا من مذهبه •

واذا كان بعض المسلمين قد فروا يوم أحد ، وهم أقل من نصف عددهم فانهم قد عنفوا •

لهذا كان السلف الصالح يثبتون فى المعارك كالاطواد ، وكان الذى يضطر منهم الى الفرار يستحيى من نفسه ويخجل •

روى عن عبد الله بن عمر [1] أنه كان فى سرية من سرايا رسول الله، فقال : ان الناس جالوا جولة يطلبون الفرار ، وكنت فيمن فر ، فلما نجونا قلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف ، وبؤنا بالغضب ؟

ثم فكرنا أن ندخل المدينة خفية ولا يرانا أحد ، فلما دخلنا قلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ، فان كانت لنا توبة أقمنا ، وان كان غير ذلك ذهبنا •

فجلسنا لرسول الله قبل صلاة الفجر ، فلما خرج قمنا اليه ، فقلنا: نحن الفرارون ، فأقبل الينا فقال : لا ، بل أنتم العكارون [2] ، فدنونا فقبلنا يده ، فقال : أنا فئة المسلمين [3] •

---

(١) المسند ٢٣٤/٧

(٢) الكرارون على الاعداء .

(٣) أى أنهم ينطبق عليهم قوله تعالى « أو متحيزا الى فئة » وهذا لهم .

وكان هذا من النبى رفقا بالمسلمين فى وقت كانوا يثبتون فيه لاضعافهم مرارا [1] •

وانهزم رجل من المسلمين بالقادسية ، فأتى المدينة الى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين هلكت ، فررت من الزحف ، فقال عمر : أنا فئتك [2] •

فلا عجب فى أن كان المسلمون يستبسلون فى ميادين الحروب حتى استطاعوا بعددهم القليل وأسلحتهم اليسيرة أن ينتصروا على المشركين وعلى اليهود وهم أكثر عددا وأوفر عدة ، ثم انتصروا على أعظم دولتين فى ذلك الوقت وهما فارس والروم •

وفى تاريخ الفتح الاسلامى بينات على بطولات لم يعرف العالم لها مثيلا ، فها هم أولاء ثلاثة آلاف مسلم يتصدون فى غزوة مؤتة لمئتى ألف نصفهم من الروم ونصفهم من عرب لخم وجذام •

وها هو ذا طارق بن زياد يزحف الى الاندلس ومعه ألف وسبع مئة ، فيلقاه ملكها لذريق ومعه سبعون ألف فارس ، فيصبر طارق وجيشه حتى ينتصر ويفتح الاندلس •

٤ ــ وذكر للمسلمين أمثلة من جهاد سابقيهم ، اذ مستهم البأساء، ونزلت بهم الاهوال ، حتى انهم خافوا على أنفسهم وعلى دينهم ، فتشوفوا الى نصر الله الذى وعدهم به ، فقيل لهم ان نصر الله قريب •

وفى هذا تشجيع للنبى وللمسلمين على الصبر والثبات حتى ينصرهم الله •

---

(١) تفسير القرطبى ٣٨٠/٧ .
(٢) الكشاف ١١٩/٢ .

قال تعالى :

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء ، وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ ألا ان نصر الله قريب » [1] .

وقال سبحانه :

« وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم من سبيل الله ، وما ضعفوا ، وما استكانوا ، والله يحب الصابرين » [2] .

٥ ــ وعلى المسلم المحارب أن يتحصن بشجاعته فى ثبات لايتخلخل ، حتى وان قيل له وهو فى ميدان الحرب ان رسول الله قتل أو مات ، لانه انما يحارب كما يحارب الرسول ، لا علاء كلمة الله ، واعزاز الاسلام ، وتقويض الشرك والوثنية ، والرسول انسان لابد أن يموت ، ولكن الله هو الحى الباقى الذى لا يموت .

قال تعالى :

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم، ويعلم الصابرين .

ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه ، فقد رأيتموه وأنتم تنظرون . وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين » [3] .

---

(١) سورة البقرة ٢١٤ .
(٢) سورة آل عمران ١٤٦ ربيون : جمع ربى .
(٣) سورة آل عمران ١٤٢ ــ ١٤٣ .

الخطاب هنا للذين ألحوا على النبى أن يخرج الى أحد ، وكانوا لم يشهدوا غزوة بدر ، وودوا لو جاءت غزوة بعدها ليشتركوا فيها ، فينالوا من كرامة الجهاد والشهادة ما نال اخوانهم الذين حضروا بدرا .

يقول تعالى لهم لقد تمنيتم الموت قبل أن تشاهدوه وتقاسوا شدته ، ثم عاينتموه وشاهدتموه فى أحد ، اذ قتل اخوانكم على مرأى منكم ، وكاد الموت ينزل بكم ، « وهذا توبيخ لهم على تمنيهم الموت ، وعلى ما تسببوا له من خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحاحهم عليه ثم انهزامهم عنه وقلة ثباتهم عنده » (١) .

وبعد الموقعة رمى عبد الله بن قمئة الحارثى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر فكسر رباعيته ، وشج وجهه ، وأقبل يريد قتله فذب عنه مصعب بن عمير صاحب الراية يوم بدر ويوم أحد حتى قتله ابن قمئة وهو يظنه رسول الله ، فقال : قد قتلت محمدا ، وصرخ صارخ ألا ان محمدا قد قتل ، ففشا فى الناس خبر قتله ، فانكفأوا .

وهنا جعل رسول الله يدعو المؤمنين بقوله : الى عباد الله ، حتى انحازت اليه طائفة من أصحابه ، فلامهم على هربهم ، فقالوا : يارسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا ، أتانا خبر قتلك ، فرعبت قلوبنا ، فولينا مدبرين .

وروى أن بعض المنافقين قالوا : لو كان نبيا لما قتل ، ارجعوا الى اخوانكم والى دينكم ، فقال أنس بن النضر — عم أنس بن مالك — يا قوم ان كان قد قتل محمد فان رب محمد حى لا يموت ، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ، فقاتلوا على ما قتل عليه ، وموتوا على مامات

---

(١) الكشاف ١/٢٢٠ .

عليه ثم قال اللهم انى أعتذر اليك مما يقول هؤلاء ، وأبرأ اليك مما جاء به هؤلاء ، ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل •

وتقرر الاية الكريمة ان محمدا بشر رسول ، شأنه شأن الرسل الذين سبقوه ، فقد ماتوا وبقى اتباعهم متمسكين بدينهم ، فعلى أتباع محمد أن يستمسكوا بدينه سواء أكان حيا أم ميتا ، لأن الغرض من بعثة الرسل تبليغ الرسالة والزام الحجة ، وتنكر على الفارين فرارهم ، وعلى المنافقين قولهم ، وتنوط ضرر هذا بهم ، لان الله تعالى لا يضره ارتدادهم شيئا ، وسيجزل الثواب للثابتين على العهد الذين لم يرتدوا على أعقابهم، لانهم شكروا نعمة الاسلام بجهادهم وثباتهم •

٦ — واذا كانت الهزيمة نكبة عاجلة يخشى أن يتفاقم ضررها ، ويتضاعف شرها ، فتفل القوى ، وتزلزل الثقة ، وتضعف الحماسة ، وتزين اللين والرخاوة والاستسلام ، وسواء طال الزمان بهذا الشر أم قصر ، اقتضت حكمة الخالق سبحانه وتعالى أن يتدارك المسلمين بعد هزيمتهم الموقوتة فى أحد ، بتسلية عما أصابهم ، وبتقوية لقلوبهم ، وبطرد لليأس عنهم ، وحض على الجهاد فى غير جبن ولا وهن ، وذلك انه تعالى ينهاهم عن الضعف والخوف والحزن على قتلاهم وجرحاهم ، ويعلمهم أنهم أعلى من خصومهم مكانا ، وأعلى شأنا ، لانهم يجاهدون لاعلاء كلمة الله ، على حين أن قريشا تحارب لاقرار الكفر والضلال ، فقتلى المؤمنين فى الجنة ، وقتلى قريش فى النار •

وقد علق بالنهى عن الجبن والحزن صحة الايمان ، لان صحة الايمان توجب قوة القلب ، والثقة بصنع الله ، وقلة المبالاة بأعدائه •

ثم عقب على النهى بحقيقة تزيدهم ثباتا وصبرا واصرارا على النصر ، وهى أنهم قد أصابوا من قريش يوم بدر أكثر مما أصابت

منهم قريش يوم أحد ، فلم تضعف عزيمة قريش ، ولم تتقاعس عن معاودة الحرب ، والمسلمون أجدر من قريش بقوة العزيمة ، واشتعال الحمية ، وصلابة العود .

على أن المسلمين أصابوا من قريش يوم أحد قبل أن يخالف الرماة أمر رسول الله ، فقتلوا منهم خلقا كثيرا ، بدليل قوله تعالى : « ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه ، حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الامر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون » (١) .

ثم ذكرهم بحقيقة أخرى ، هى أن الحرب سجال ، يظفر فيها اليوم من هزم أمس ، وينتصر فى غد من غلب اليوم ، فليثق المسلمون بأنفسهم ، وبنصر الله لهم .

وهذه سنة الله فى خلقه ، ليتميز المؤمنون الراسخون من المترددين، وليستحق المثوبة من يجاهدون فى الله جهاد اليقين ، وليكرم الله الشهداء بثواب عظيم ورضوان ، وليطهر الذين آمنوا ويستخلصهم لدينه ، ويهلك الكفار ، ويفل قواهم .

قال تعالى :

« ولا تهنوا ، ولا تحزنوا ، وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين . ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الايام نداولها بين الناس، وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ، ويمحق الكافرين » (٢) .

---

(١) سورة آل عمران ١٥٢ .
(١) سورة آل عمران ١٣٩ — ١٤١
القرح : الجراح . تداولها : تصرفها للبلاء والتمحيص . يمحص : يختبر ويخلص ويصفى .

٧ ــ ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم القدوة العملية المثلى للمجاهدين فى سبيل الله ، شاركهم فى أكثر حروبهم وأشدها خطورة ، وقادهم بنفسه وتقدم صفوفهم ، وشهدوا بطولته يوم أحد وبين المسلمين والنصر جفوة ، ورأوا بسالته يوم حنين وقد كادت تقع الكبوة ، وعرفوا أنه المجاهد الذى لا يميد ولا يتزلزل [١] .

فكانت أعماله مصداقا لأقواله ، وكانت أقواله تغذية للحماسة ، وتقوية للشجاعة ، وتزكية للفداء .

أما أحاديثه فى الحض على الشجاعة فهى كثيرة ، منها :

أ ــ قال سعد بن أبى وقاص : نثل لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ نقض كنانته ــ يوم أحد ، وقال : ارم فداك أبى وأمى .

قال على بن أبى طالب : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع أبويه لاحد الا لسعد فى قوله : ارم سعد فداك أبى وأمى [٢] .

ب ــ من سل سيفه فى سبيل الله فقد بايع عليه [٣] .

جـ ــ قال رجل لرسول الله : أرأيت أن قتلت فى سبيل الله ، أتكفر عنى خطاياى ؟

فقال رسول الله : نعم ، ان قتلت وأنت صابر محتسب ، مقبل غير مدبر [٤] .

---

(١) راجع (من أخلاق النبى) للمؤلف .
(٢) مجموع فتاوى ابن تمية ١٠/٢٨ وسيرة ابن هشام ٨٧/٣ .
(٣) كنز العمال ٢٦٥/٢ .
(٤) تيسير الوصول ٢٢٦/١ .

د ــ عجب ربنا عز وجل من رجلين : رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين أهله وحيه الى صلاته ، فيقول ربنا : أيا ملائكتى انظروا الى عبدى ، ثار من فراشه ووطائه ، ومن بين حيه وأهله الى صلاته ، رغبة فيما عندى ، وشفقة مما عندى •

ورجل غزا فى سبيل الله عز وجل ، فانهزموا ، فعلم ما عليه من الفرار ، وماله فى الرجوع ، فرجع حتى أهريق دمه ، رغبة فيما عندى ، وشفقة مما عندى ، يقول الله عز وجل لملائكته : انظروا الى عبدى ، رجع رغبة فيما عندى ، ورهبة مما عندى ، حتى أهريق دمه [١] •

هـ ــ قال عبد الله بن مسعود : لقد شهدت من المقداد بن الاسود مشهدا لأن أكون أنا صاحبه أحب الى مما على الارض من شىء •

أتى المقداد النبى صلى الله عليه وسلم وكان رجلا فارسا ، فقال : أبشر يانبى الله ، والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا ، انا ها هنا قاعدون » [٢] ولكن والذى بعثك بالحق ــ لنكونن بين يديك ، وعن يمينك ، وعن شمالك ، ومن خلفك ، حتى يفتح الله عليك •

قال عبد الله : فرأيت رسول الله أشرق وجهه ، وسره ذاك [٣] •

و ــ من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد [٤] •

---

(١) المسند ٢٣/٦ •
(٢) سورة المائدة ٢٤ •
(٣) فتح المبدى ٢٤٠/٢ والجامع الصغير ٣٨٧/٢ •
(٤) المسند ٦٥/٦ ، ١٧٤ •

ز ــ قيل : يارسول الله أى الناس أفضل ؟ فقال رسول الله : مؤمن يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله [١] .

ح ــ ان فى الجنة مئة درجة أعدها الله تعالى للمجاهدين فى سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والارض [٢] .

ط ــ لا تمنوا لقاء العدو ، وأسألوا الله العافية ، فاذا لقيتموهم فأصبروا ، وأعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف [٣] .

ى ــ ان من الخيلاء ما يحبه الله ، ومن الخيلاء ما يبغضه الله ، فأما الخيلاء التى يحبها الله فاختيال الرجل عند الحرب ، وعند الصدقة، وأما الخيلاء التى يبغضها الله فالخيلاء فى البغى والفخر .

ولما كان يوم أحد اختال أبو دجانه الانصارى بين الصفين ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : انها لمشية يبغضها الله الا فى هذا الموطن [٤] .

أمثلة من الشجاعة :

لا نجد مجاهدا عظيما ، أو قائدا قديرا ، أو بطلا من الابطال الا والشجاعة من أبرز سماته ، لانها فى السلم القوة الدافعة الىالاعتصام بالعقيدة ، والصدع بكلمة الحق ، والتنديد بمفاسد المجتمع ، ولانها فى الحرب قوة وعدة وسلاح .

---

(١) فتح المبدى ٢/٢٩٢ .
(٢) فتح المبدى ٢/٢٩٤ .
(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ١٢/٤٥ فنهى عن تمنى لقائهم لان فيه صورة من الزهو والغرور لأنه نوع من البغى والاستهانة بالعدو واحتقاره وهذا يخالف الحزم والاحتياط .
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨/٢٧ .

١ ـ فالنبى عليه الصلاة والسلام كان يقود المعارك ويديرها ، ويتقدم الصفوف ، ويتصدى لكل صنديد شجاع ، وحسبنا قول على بن أبى طالب وهو من أبطال المسلمين : « كنا اذا حمى البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أقرب منه الى العدو » •

وقد ثبت فى المواقع كلها ، ثبت والنصر مقبـل ، وثبت والنصر مدبر [1] •

٢ ـ وهذا عمر بن الخطاب امتلأ قلبه ايمانا منذ شرح الله صدره للاسلام ، فأعلن اسلامه ، وتحدى قريشا ، وهو يعلم انها تنكل بمن يسلم ، فلما تجمعوا ليصدوه وثب على عتبة بن ربيعة ، فصرعه ، وجثم على صدره ، وكلما دنا منه أحد غلبه ، حتى كفوا عنه بعد أن اضعفهم وأضعفوه ، وهو يقول لهم : افعلوا ما بدالكم ، فوالله لو كنا ثلاث مئة رجل لتركتموها لنا أولتركناها لكم •

ثم وفد على النبى عليه الصلاة والسلام فقال : يارسول الله ، ألسنا على الحق ان متنا أو حيينا ؟ فقال الرسول : بلى ، والذى نفس محمد بيده انكم على الحق ان متم وان حييتم •

قال عمر : ففيم الاختفاء ؟ والذى بعثك بالحق لتخرجن •

فما لبث النبى أن خرج فى صفين ، يتقدم أحدهما عمر ، ويتقدم الاخر حمزة ، وساروا فى مظهر القوة الساندة للحق، حتى دخلوا المسجد وقريش تنظر وتعلوها كآبة ، ولكن لا يجرؤ أحد منها أن يدنو من صفين يتقدمهما بطلان ، واستحق عمر منذ ذلك اليوم أن يسميه النبى الفاروق•

وبعد قليل يهاجر عمر من مكة جهرة وعلانية ، فيتقلد سـيفه ، ويتنكب قوسه ، ويمضى الى الكعبة ، وقريش بفنائها ، فيطوف بالبيت

---

(١) من اخلاق النبى للمؤلف •

طواف الجرىء المتمكن ، ثم يصلى ، ثم يقف على حلقات قريش حلقة حلقة قائلا : شاهدت الوجوه ، من أراد أن تثكله أمه ، أو يوتم ولده ، أو ترمل زوجته ، فليلقنى وراء هذا الوادى .

فمن الذى قاوم التحدى ؟

ومن ذا الذى لم يخف أن تثكله أمه ، أو يوتم ولده ، أو يرمـــل زوجته ؟

ثم صار عمر خليفة ، فربى المسلمين على خلق الشجاعة ، وحضهم على أن يعلموا أولادهم السباحة والرماية ، وأن يدربوهم على امتطـــاء صهوات الخيل ، يريد اعدادهم للفروسية وتدريبهم على وسائل الحرب .

٣ ــ ولقد قضى خالد بن الوليد حياته كلها فى شجاعة وممارسة للقتال ، ولكنه لم يقتل فى حرب ، بل مات على فراشه كما يموت المسالم الذى لم يتحد الموت فى الميدان .

وقال وهو يحتضر : « لقد شهدت مئة زحف أو زهاءها ، وما فى بدنى موضع شبر الا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية ، وها أنذا أموت على فراشى كما يموت العير (١) ، فلا نامت أعين الجبناء » .

كان خالد شجاعا ، حتى ان أبا بكر قال حينما بلغته مواقع خالد مع الفرس وحلفائهم من عرب الحيرة : يا معشر قريش ، لقد عدا أسدكم على الاسد ــ كسرى ــ فغلبه ، عقمت النساء أن يلدن مثل خالد .

وان نجدة خالد لجيش المسلمين بالشام لعمل جليل ينطوى على ضروب من الشجاعة .

---

(١) العير : الحمار الوحشى .

وذلك ان القواد الذين أرسلهم أبو بكر الى الشام هالهم ما جمع الروم لقتالهم من جيوش وآلات ، فاستنجدوا بأبى بكر ليمدهم بالجند ، فعرف أبو بكر حرج الموقف ، ولم يجد فى قواده من يغنى غناء خالد ، فكتب اليه أن يسير من الحيرة الى اليرموك •

فسرعان ما لبى خالد الدعوة ، ولكنه نظر فوجد بينه وبين اليرموك أكثر من ألف كيلو ، ولابد له أن يسلك أقصر طريق وآمن طريق بجيشه الذى يبلغ عشرة آلاف ، وأنى له ذلك •

ان بعض الطرق به ماء وكلأ ، وليس به حراس للروم ، لكنه أطولها مسافة ، وهو يريد أن يدرك اليرموك قبل أن يهجم الروم على جيش المسلمين •

وبعضها كثير الماء والكلأ ، ولكنه مملوء بالحراس والسكان ، وهو يخشى أن يعوقوه عن وجهته بعض تعويق ، فمن السهل أن يقضى عليهم لكنه قضاء لا يفيد فى النصر الذى يأمله على جيش الروم •

وبعضها لا ماء فيه ولا كلأ ، وبه شعاب ومضايق وعقبات ، لكنه قصير وبعيد عن السكان والحراس •

وقد آثر ان يسلك هذا الطريق

ولكن كيف يجتاز بعشرة آلاف جنـــدى ودوابهم هـــذا الطريق الوعـــر ؟

طلب حذاقا من ادلاء الصحراء ، فعرفوه أن هذا الطريق لا يصلح لسير جيش ، وانما يسلكه الفرد الراكب ، وحذروه أن يخاطر بالمسلمين •

لكنه أبى الا أن ينفذ رأيه ، وطلب أعلم رجل بالصحراء ، فجاءه رافع الطائى ، فلم يخالف مشورة سابقيه ، وقال لخالد : انك لن تطيق اجتياز الطريق الذى تريده ومعك خيلك وأثقالك ، والله ان الراكب الفرد

ليخشى هذا الطريق على نفسه ، ولا يجتازه الا مخاطر ، وانك ستقضى خمس ليال طوال لا تصيب فيها ماء ، وان الطريق مضلل • فهل رجع خالد عن عزمه ؟

لا ، بل قال لرافع : ويحك ، والله لابد لى من ذلك ، اننى قد عزمت •

فلم يجد رافع مندوحة عن الالتجاء الى خبرته ، فقال للجند : استكثروا من الماء ، ومن استطاع منكم أن يصر [1] اذن ناقته على الماء فليفعل ، فانها المهالك الا ما دفع الله •

وطلب رافع من خالد عشرين جملا عظاما سمانا ، وسقاها حتى امتلأت ، وقطع مشافرها [2] ، وكممها لئلا تجتر • كانت هذه الجمال هى صهاريج الماء التى اجتاز بها خالد فى خمس ليال أوعر جزء من بادية الشام ، وكلما نزل منزلا استخرج ما فى أكداس بعض الجمال من الماء فمزجه باللبن، وسقاه الخيل •

وبعد ثمانية عشر يوما وصل خالد الى اليرموك ، وتولى القيادة العامة ، وانتصر على جيش يزيد على جيش المسلمين أضعافا مضاعفة من حيث العَدد والعُدد ، لان جيش المسلمين كان أضعاف جيش الروم من حيث العقيدة والشجاعة والفداء •

٤ — وان التاريخ ليقص شجاعة طارق بن زياد ، اذ اجتاز البحر من شمالى افريقية الى اسبانيا بجيشه ، وتراءت له جيوش حاكمها لذريق فى كثرة وتمام عدة وجودة سلاح واطمئنان نفس ، لانها تقاتل فى ديارها ، لكن طارقا استمد من المأزق المخيف شجاعة ، فدبر حيلة يضمن بها أن يستميت جنوده استماتة من ليس له أمل فى الحياة الا بالانتصار ، فأحرق سفنه ، وخطب فى جيشه قائلا :

---

(١) يصر : يربط .
(٢) المشافر : جمع مشفر وهو للبعير مثل الشفة للانسان .

« أعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم أهل البلاد بجيوشهم ، وأسلحتهم وأقواتهم موفورة،وأنتم لا وزر [١] لكم الا سيوفكم ، ولا أقوات لكم الا ما تستخلصون من‌أيدى أعدائكم ... وانى لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس لم أبدأ فيها بنفسى . واعلموا أنى أول مجيب الى ما دعوتكم اليه ، وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على لذريق فقاتله ان شاء الله ، فاحملوا معى ، فان هلكت بعده فقد كفيتم أمره ، ولا يعوزكم بطل عاقل تكون أموركم اليه ، وان هلكت قبل وصولى اليه فاخلفونى فى عزيمتى بقوة ، واحملوا بأنفسكم عليه ، فان قومه بعده يخذلون » .

ثم حمل على لذريق فقتله ، وكان فتح الاندلس .

٥ ــ كذلك كان صلاح الدين الايوبى اذا حمى وطيس الحرب [٢] يجول بين الصفوف ، ويأمر بالتقدم أو الوقوف ، ويشارف العدو ويجاوره غير هيـــاب .

قال القاضى بهاء الدين بن شداد : انه كان يرى صلاح الدين يطوف حول جيش العدو مرة أو مرتين فى كل يوم اذا كان قريبا منهم ، وان رأى فى ليلة واحـــدة سبعا وسبعين سفينة حربية قادمة الى عكا بالجنـــد والسلاح ، وكان صلاح الدين يراها فلا يزداد الا قـــوة .

وقد انهزم المسلمون مرة بمرج عكا ، واختل نظام الجيش ، وسقط العلم ، لكن صلاح الدين ثبت فى نفر قليل من الشجعان ، فاجتذب اليه الفارين المهزومين ، ولم يزل يتقدم بالصفوف حتى تم له النصر .

---

(١) الوزر : الملجأ والحصن .

(٢) الوطيس : التنور والفرن ، وحمى الوطيس كناية عن شدة الحرب.

الفصل الثامن

النصر من الله

أمر الله عباده المؤمنين أن يعدوا للدفاع عن دينهم وعن أنفسهم ما يستطيعون من قوة .

وأمرهم أن يجاهدوا فى سبيل الله من صد عن سبيل الله ، ولا يدخروا وسعا ولا طاقة فى هذا الجهاد .

ووعد المجاهدين أجرا من لدنه عظيما لا يعلم مقداره سواه . وأوعد المنافقين عذابا أليما يوم لا ينفع مال ولا بنون ولا جاه . وقرع الكسالى ، ووبخ الجبناء ، وأنذرهم ان استحبوا على الجهاد الحياة .

ولكن السلاح والحماسة والشجاعة وعدد الحرب كلها قديمها وحديثها مفلولة القوى ، مسلوبة القدرة ، طائشة الأهداف اذا لم يؤازرها نصر من الله .

فليقبل المسلمون على الجهاد وبأيديهم سلاح لا يفل ، وفى دمائهم حماسة لا تفتر ، وفى عقولهم فكر سديد وتدبير محكم ، وفى قلوبهم يقين لا يتزعزع بأن النصر ليس مرده الى سلاحهم وشجاعتهم وتدبيرهم فحسب ، بل مرده الى هذا والى عون الله وتوفيقه وتأييده .

وهم اذ يقدمون على المعارك بهذه العقيدة السامية يزدادون قوة الى قوتهم ، لانهم يلتمسون التأييد من ربهم الذى يجاهدون فى سبيله لاعزاز دينه ونصرة حقه .

ولا شك أن هذه العقيدة تقى المسلمين داء طالما حاق بسـابقيهم وبلاحقيهم ، فدمرهم تدميرا ، هو الغرور الباغى ، والزهو الطاغى ، والاعتداد المبيـد •

على أن المجاهد الذى يتخذ للحرب أهبتتها ، ويرجو من الله أن ينصره ، لابد أن يراقب ربه الذى يمنحه النصر فلا يتجاوز فى الحرب ولا فى السلم ما أمره الله به ونهاه عنه ، ولا يجبن ، ولا يرهب الموت ، ولا يعيث فسادا فى الأرض اذا انتصر ، فله من دينـه رادع ، وله من نفسه وازع •

وشتان ما بين مسلم يسارع الى الحرب مستعدا لها ، موقنا بأن معه قوة الله تسانده وتوفقه وتؤيده ، وبين آخر يندفع الى الحرب معتـدا بقوته وحدها ، مزهوا بما حمل من عتاد وسلاح ، وبما دبر من وسائل الكفـاح •

لهذا ترددت فى كتاب الله تعالى الآيات القاطعة بأن النصر من الله ، وبالله •

فتارة يقسم سبحانه وتعالى — وان قسمه لعظيم — ويؤكد القسم بأنه نصير عباده الذين يطيعونه فيعملون بما أمر ، ويجتنبون ما نهى ، ويغارون على دينه أن يمتهن ، وعلى حرماته أن تنتهك ، ويتخذون للحرب أهبتهم من شجاعة وسلاح وخبرة واعتماد على الله •

قال تعالى :

« ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز » [1] •

---

(١) سورة الحج ٤٠ .

وقال سبحانه :

« كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ، ان الله قوى عزيز » [1] •

وتارة يؤكد نصره للمؤمنين ، ووعده الكريم ليس محتاجا الى توكيد•

قال تعالى :

« ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون ، وان جندنا لهم الغالبون » [2] •

وقال تعالى :

« انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقـــوم الاشـــــهاد » [3] •

٢ ــ وحينا ينفى هزيمة المجاهدين نفيا قاطعا ان كان الله ناصرا لهم ، لانه هو الغالب ، ولا غالب سواه •

قال سبحانه :

« ان ينصركم الله فلا غالب لكم » [4] •

٣ ــ وحينا ينوط نصره للمجاهدين بطاعتهم له وأخذهم بما أمر به من أســباب •

---

(١) سورة المجادلة ٢١ .

(٢) سورة الصافات ١٧٣ .

(٣) سورة غافر ٥١ .

(٤) سورة آل عمران ١٦٠ .

قال تعالى :

« يا أيهـــا الذين آمنـــوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » [1] •

٤ ــ ولقد يجىء الأمر بالاعتماد على الله ، والتوجيه الى الانتصار بقواه ، مقرونا بالتذكير بما أنعم الله به على المسلمين من نصر مبين فى عدة مآزق •

فقد ذكرهم بحقائق لم ينسوها ، وبتجارب مارسوها وقاسوها •

(أ) فكانوا فى غزوة بدر قلة ضعيفة ضئيلة المال والسلاح ، لم يزد عددهم على ثلاث مئة وبضعة عشر ، خرجوا ومعهم فرس واحد ، وعدد من الابل لا يكفيهم ، فكان العدد منهم يتعاقب على البعير الواحد •

وكانت قريش ــ عيرها ونفيرها [2] ــ تربى على الألف ، ومعهم سلاح كثير ، ومئة فرس ، وكثير من الابل •

فلما التقى الجمعان نصر الله القلة المؤمنة على الكثرة المشركة •

قال تعـــالى :

« ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون •

اذ تقول للمؤمنين : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ؟

---

(١) سورة محمد ٧ .
(٢) العير : قافلة قريش التى كانت قادمة من الشام يراسها أبو سفيان •
النفير : الحشود التى أسرعت من مكة الى بدر لتحارب .

بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هــذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين • وما جعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم •

ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين » [1] •

وقال تعالى فى الغزوة نفسها :

« فلم تقتلوهم ، ولكن الله قتلهم ، وما رميت اذ رميت ، ولكن الله رمى ، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا ، ان الله سميع عليم ، ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين » [2] •

وذلك أنه فى غزوة بدر لما طلعت قريش قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه قريش قد جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك ، اللهم انى أسألك ما وعدتنى ، فأتاه جبريل فقال : خذ قبضة من تراب فارمهم به ، فأخذ قبضة من حصباء الوادى ، فرمى بها فى وجوههم • وقال : شاهت الوجوه ، فلم يبق مشرك الا شغل بعينيه ، فانهزموا وتبعهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم •

ولكن بعض المؤمنين تفاخروا ببلائهم فى هــذه الموقعة ، فرد الله عليهم بأنهم ان افتخروا بقتل قريش فانهم لم يقتلوها ، والله هو الذى أنزل الملائكة وألقى الرعب فى قلوب الكفار ، وشــاء للنبى أن ينتصر ، وقوى قلوبكم واذهب عنها الفزع والجزع [3] •

---

(١) سورة آل عمران ١٢٣ ــ ١٢٧ من فورهم هذا : فى وقتهم هــذا مسرعين . مسومين : معلمين أنفسهم وخيلهم بعلامات . جعله : الضمير عائد على الامداد بالملائكة . العزيز : القوى . الحكيم : الذى يمنح النصر ويمنعه لما يرى من المصلحة (الكشاف ١/ ٢١) .

(٢) سورة الانفال ١٧ ــ ١٨ ليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا : ليعطيهم عطاء جميلا .

(٣) الكشاف ٢/ ١١٩ وتفسير القرطبى ٧/ ٣٨٤ .

وفى هــذه الغزوة علم المسلمون — وهم قلة — ان قريشا جاءت بخيلهــا ورجلها تريد الحرب ، فجعلوا يســتغيثون بالله ويدعونه أن ينصرهم ، فاستجاب لهم ، قال تعالى : « اذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائــكة مردفين • وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر الا من عند الله ان الله عزيز حكيم •

اذ يغشيكم النعــاس أمنة منه ، وينزل عليكم من الســماء مــاء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ، ويثبت به الاقــدام •

اذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الاعناق ، واضربوا منهم كل بنــان •

ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقــاب » (1) •

(ب) وذكرهم كذلك بتوفيقه لهم وارهاب عدوهم بعد أن انهزموا فى غزوة أحــد •

وذلك أنه لما انصرف المشركون من أحد ، وأصاب النبى وصــحبه ما أصــابهم ، خشى أن يرجعوا ، فانتدب وراءهم من يتعقبونهم حتى لا يكروا على المدينــة ، وكان فى الذين تعقبــوهم مثقلون بالجــراح لا يستطيعون المشى، ولا يجدون ما يركبــون ، ولكنهم تعقبوا قريشا

---

(1) سورة الانفال ١٢ — ١٣ .
فاضربوا : الامر للملائكة أو للمؤمنين . ثبتوا .
الذين آمنوا : بشروهم بالنصر أو بالقتال معهم .
البنان : جمع بنانة وهى الاصبع أو الطرف .

امتثالا لأمر النبى ، ورغبة فى الجهـــاد ، فقذف الله الرعب فى قلوب المشركين ، وأسرع أبو سفيان ومن معه الى مكة ، وعاد النبى الى المدينة مطمئنـــا •

قال تعـــالى :

« الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم •

الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعـــوا لكم ، فاخشـــوهم ، فزادهم ايمانا ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل •

فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ، لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم •

انما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه ، فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين » (١)

(جـ) وبعد ذلك عانى المسلمون شدة لم ينسوها ، ورأوا بعيونهم دلائل الهزيمة الكالحة وهى تعصف بهم ، ولولا نجدة الله واغاثته لمحقهم أعداؤهم محقـــا •

---

(١) سورة آل عمران ١٧٢ ــ ١٧٥ وتفسير القرطبى ٢٧٨/٤ ، ٢٨٢ وقد نص على ان هذا تفسير الجمهور ، وضعف أن الآيات نزلت فى غزوة بـــدر الصغرى . والمراد بالناس الاولين ركب عبد القيس الذين مروا بابى سفيان بعد الغزوة فدسهم الى المسلمين ليثبطوهم ، فزادهم هذا القول حماســة وايمانا ، وقالوا ان الله يكفينا . والمراد بالناس الآخرين قريش . يخوف أولياءه : يخوفكم بأوليائه أو لا يخوف الا أتباعه المنافقين ليقعدوا عن الجهاد، أما أولياء الله فانهم لا يخافون الشيطان اذا خوفهم .

ذلك أنهم كانوا فى يوم حنين اثنى عشر ألفا هم الذين حضروا فتح مكة ، ومعهم ألفان من الطلقاء أهل مكة ، وكانت هوازن وثقيف أربعة آلاف ، فالمسلمون اذن أكثر من ثلاثة أمثال أعدائهم •

فلما كاد يلتقى الجمعان قال رجل من المسلمين : لن نغلب اليوم من قلة ، فساءت هذه الكلمة رسول الله •

ثم اقتتل الفريقان قتالا شديدا ، وانهزم المسلمون حتى بلغ فلهم مكة ، ولكن رسول الله بقى ثابتا فى مكانه لا يتململ ، وليس معه الا نزر من الصناديد كعمه العباس وابن عمه أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وجعل النبى يدعو ربه أن يغيثه بنصره الذى وعد ، ثم قال للعباس وكان جهير الصوت صح بالناس ، فجعل يناديهم ، وهم يقولون : لبيك لبيك •

وسرعان ما كروا الى ميدان المعركة مسرعين الى القتال ، ورأى النبى الملحمة تشتد فقال : الآن حمى الوطيس ، ثم أخذ كفا من تراب ، فرمى به الأعداء ، وقال : انهزموا ورب الكعبة ، فانهزموا [1] •

وفى هذه الغزوة يقول تعالى :

« لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم ، فلم تغن عنكم شـــيئا ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين •

ثم أنزل الله سكينته على رسوله ، وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين » [2] •

---

(١) الكشاف ٢/١٤٥ .

(٢) سورة التوبة ٢٥ ـــ ٢٦ .

مواطن كثيرة : بدر وبنى قريظة وبنى النضير وفى الحديبية وخيبر وفتح مكة ويوم حنين .

(د) كذلك كان الله هو الناصر للمسلمين على بنى النضير ، فقد كانوا صالحوا النبى على أن يلزموا الحيدة فى الصراع الناشىء بينه وبين قريش ، فلما انتصر يوم بدر قالت اليهود ان النبى الذى نعته الله فى التوراة ، لا ترد له راية ، ثم هزم المسلمون يوم أحد ، فنكثت اليهود عهدها ، وخرج كعب بن الاشرف فى أربعين راكبا الى مكة ، فحالفوا قريشا عند الكعبة على النبى والمسلمين •

عندئذ طلب النبى من بنى النضير أن يخرجوا من المدينة ، فرفضوا وقالوا الموت أحب الينا ، وتنادوا للحرب ، وكان عبد الله بن أبى وأصحابه من المنافقين يأمرون بنى النضير ألا يخرجوا من حصونهم ، ويعدونهم أنهم لابد أن يقاتلوا معهم ، وان أخرجوا يخرجوا معهم ، فحمى بنو النضير مساكنهم وأزقتهم ، وحاصرهم النبى احدى وعشرين ليلة •

فاما قذف الله الرعب فى قلوبهم ، ويئسوا من عون المنافقين لهم ، طلبوا الصلح ، فأبى النبى الا الجلاء من المدينة ، فجلوا الى أريحا وأذرعات بالشام ، ولحق بعضهم بخيبر ، ولحق آخرون بالحيرة •

وقد نزلت الآيات الكريمة مؤكدة أن الله تعالى هو الذى قذف فى قلوب اليهود الرعب ، وهو الذى أخرجهم من ديارهم ، وكان المسلمون يظنون أنهم لن يخرجوا ، وكان اليهود يعتقدون أن حصونهم القوية ستمنعهم وتحميهم •

قال تعالى : « هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار • ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ، ولهم

فى الآخرة عذاب النار • ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاق الله فان الله شديد العقاب » [1] •

٥ ــ واذ كانت عقيدة المسلمين فى نصر الله لهم سلاحا من أسلحتهم التى يحاربون بها أعداءهم وأعداء الله ، كانت بيعتهم لرسول الله على نصرته بيعة لله تعالى ، وكانت قدرة الله ظهيرا لقدرتهم ونصيرا •

فلنرجع الى بيعة الرضوان [2] لنرى النبى عليه الصلاة والسلام يخرج فى شهر ذى القعدة معتمرا ، ويستنفر الاعراب الذين حول المدينة، فيبطىء أكثرهم ، فيخرج فى نحو ألف وبضع مئة [3] من المهاجرين والأنصار ومن اتبعه من العرب ، ويسوق الهدى معه ، ليعلم الناس أنه خرج معتمرا لا محاربا •

فلم تلبث قريش أن علمت بمقدمه ، فخرجت لتصده عن البيت الحرام ، فقال اذ علم بعزمها على صده وتأهبها لحربه : لا تدعونى قريش اليوم الى خطة يسألوننى فيها صلة رحم الا أعطيتهم اياها •

ثم تردد السفراء بين رسول الله وقريش ، وطال ترددهم ، الى أن جاءه سهيل بن عمرو العامرى ، فصالحه على أن ينصرف فى ذلك العام ،

---

(١) سورة الحشر ٢ ــ ٤ ــ لاول الحشر : عند أول حشرهم الى الشام او عند أول احتشاد من النبى لقتالهم لانه لم يقاتلهم قبل ذلك . يخربون بيوتهم : كانوا ينزعون من بيوتهم الخشب والحجارة ليسدوا بها أفواه الازقة ، ولينقلوا معهم ما يستطيعون نقله من جيد الخشب وغيره .
فاعتبروا : اتعظوا بما دبر الله ويسر من اخراجهم وتسليط المسلمين عليهم من غير قتال .
لعذبهم فى الدنيا : بالقتل والسبى (الكشاف ٧٨/٤ والطبرى ١٩/٢٨) .
(٢) سيرة ابن هشام ٣٢١/٣ .
(٣) هم سبع مئة أو ألف وثلاث مئة أو الف واربع مئة أو الف وخمس مئة .

فاذا كان العام القادم أتى معتمرا ، ودخل مكة هو وأصحابه بغير سلاح الا السيوف فى أغمادها ، فيقيم بها ثلاث ليال ويخرج ، ويكون بينه وبين قريش صلح أجله عشرةأعوام،يأمن فيهابعضهم لبعض ، وفىهذهالمدةيرد المسلمون من جاءهم من الكفار مسلما ، ولا يرد الكفار الى المسلمين من جاءهم مرتدا عن الاسلام .

فعظم ذلك على كثير من المسلمين ، فقال لهم النبى : اصبروا ، فان الله يجعل هذا الصلح سببا الى ظهور دينه ، فان من ذهب منا اليهم فقد أبعده الله ، ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له مخرجا وفرجا .

وكان رسول الله قد بعث عثمان بن عفان الى أهل مكة قبل هـذا الصلح ، فجاءه خبر بأنهم قتلوه ، فدعا رسول الله الى المبايعة له على الحرب وقتال أهل مكة ، فكانت بيعة الرضـوان تحت شجرة ، وضرب رسول الله بيمينه على شماله لعثمان ، فكأنه حضر البيعة .

وفى هذه البيعة يقول تعالى :

« ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فانما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله ، فسيؤتيه أجرا عظيما » [1] .

---

(١) سورة الفتح ١٠ يد الله فوق أيديهم : قوته فوق قوتهم أو يده فى الثواب فوق أيديهم فى الوفاء ، أو يده فى منه عليهم بالهداية فوق أيديهم فى الطاعة، أو نعمته عليهم أعظم مما صنعوا فى البيعة (القرطبى ٢٦٧/١٦) . والزمخشرى ٤٦٥/٢ .

ويقول سبحانه :

« لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما فى قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحا قريبا ، ومغانم كثيرة يأخذونها ، وكان الله عزيزا حكيما •

وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ، فعجل لكم هذه ، وكف أيدى الناس عنكم ، ولتكون آية للمؤمنين ، ويهديكم صراطا مستقيما •

وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها ، وكان الله على كل شىء قديرا •

ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ، ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا

سنة الله التى قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا » [1] •

---

(١) سورة الفتح ١٨ ــ ٢٣ علم ما فى قلوبهم : من الصدق والوفاء ، أو من الرضا بالبيعة على ألا يفروا أو من الكآبة بصد المشركين أياهم . فتحا قريبا : فتح خيبر أو مكة . مغانم : أموال خيبر لانها ذات عقار وأموال، وكانت غزوتها بعد الحديبية وفتح مكة . عجل لكم هذه : خيبر أو صلح الحديبية . كف أيدى الناس عنكم : أهل مكة بالصلح أو كف اليهود عن المدنية بعد خروج النبى الى الحديبية وخيبر ، وهو اختيار الطبرى ، لان كف أيدى المشركين بالحديبية مذكور فى قوله تعالى « وهو الذى كف أيديكم عنهم وأيديهم عنكم ببطن مكة ــ سورة الفتح » . لتكون آية : لتكون هزيمتهم وسلامتكم آية للمؤمنين ، واخرى : معطوفة على هذه ، اى عجل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى وهى الفتوح التى فتحها المسلمون بفارس والروم ، أو هى خيبر أو مكة أو حنين . أحاط الله بها : أعدها لكم وحفظها ، ولو قاتلكم الذين كفروا : كفار قريش فى الحديبية ، أو غطفان واسد الذين ارادوا مناصرة أهل خيبر فقذف الله الرعب فى قلوبهم فنكصوا
(تفسير القرطبى ٢٧٤/١٦ والكشاف ٤٦٦/٣)

الفصل التاسع

عقوبات المنافقين

ليس فى العالم كله قديمه وحديثه مجتمع يخلو من شراذم يتخذون النفاق زيا لهم وقناعا ، لان فى قلوبهم مرضا ، وفى نفوسهم حقدا ، ولأنهم يبتغون بنفاقهم أن يلبسوا الحق بالباطل ، وأن يحققوا لانفسهم منافع عاجلة أو آجلة •

فلا غرابة أن كان بالمجتمع الاسلامى الاول شرذمة من هؤلاء ، لم تخلص للايمان قلوبهم ، فكانوا أوكارا تنطلق منها سهام المضرة ، ودعوات التثبيط للعزائم الملتهبة •

ولقد شدد القرآن الكريم النكير عليهم فى آيات كثيرة ، تكشف عن دخائلهم ، وتنذرهم بالعقاب الشديد المتنوع •

١ ـــ فهم حصب جهنم ، يفرحون اليوم قليلا بتخلفهم عن الجهاد ، وبالحرص على أموالهم ، وباعفاء أجسامهم من مشقات الجهاد ، وبخداعهم لرسول الله ، ولكنهم سيبكون يوم القيامة كثيرا ، جزاء وفاقا على سوء ما اقترفوه •

٢ ـــ وهم كاذبون فى تعللهم عن الخروج مع رسول الله الى الغزو ، معتذرين بشدة الحر ، وستكون النار التى يصلونها يوم القيامة أشد حرا وأشد نكاية لو أنهم يفقهون ، لان الذى يفقه لا يتهرب من مشقة ساعة ، ليقع فى مشقة الأبد •

وكاذبون فى زعمهم أنهم اضـطروا الى التخلف ، مدعين أنهم لم يعدوا للخروج عدتهم ، والحق أنهم تخلفوا لانهم ما زالوا فى ريب من صدق الرسالة ، وما زالوا غير مؤمنين بالله ولا بجزائه .

ولو أنهم مؤمنون حقا ما استأذنوا رسـول الله فى أن يتخلفوا ، ولأعدوا للخروج معه عدتهم التى أرادوا .

٣ ــ وهم شرذمة منبوذة ، وأعضاء من المجتمع مشلولة ، حسبهم من الخزى والمذلة أنهم غير معدودين من رجاله ، وأنهم ساقطون من ديوان الغزاة .

ومن الخطأ تشبيههم بالصبية والنسوة والعبيـد والزمنى ، لأن هؤلاء معفون من الجهاد لاعذارهم ، ولا تنقص أعذارهم من أقدارهم ، أما المنافقون فهمل ملغى ، وأناس لا قيمة لهم .

٤ ــ وليسوا ممن يستحقون تكريم النبى ، فهو لا يصلى على من مات منهـم ، ولا يدعو لأحدهم بالمغفرة ، لان الله تعـالى طردهم من رحمته الواسـعة .

٥ ــ وانهم لمارقون من الاسـلام الذى آدعوا أنهم اعتنقـوه ، وناكثون للعهد الذى زعموا أنهم أبرموه ، ولهذا فهم فساق وكفار .

٦ ــ وسيقضون أعمارهم فى عذاب لان أموالهم التى شحوا بها ، وحرصوا عليها ، وخشوا أن ينقص الايمان نماءها ، فكانت من أسباب نفاقهم ، ولان أولادهم الذين يباهون بهم ، ويتخوفون عليهم من بعدهم، وينافقون من أجلهم ، هذه الاموال وهؤلاء الاولاد من بواعث قلقهم وضيقهم وحيرتهم واضطرابهم وفقدان قيمتهم فى المجتمع الذى يعيشون فيه ، وسيكون عذابهم شديدا فى الآخرة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون .

٧ — وقد أعلم الله النبى والمسلمين أن هؤلاء المنافقين أعداء لهم وللاسلام ، لا يفتأون يحاولون السعى بينهم بالفساد والنميمة والشقاق وتثبيط العزائم وتفريق الشمل واضعاف القوة ، وربما يصدق أكاذيبهم بعض من يستمع لهم ، ولهذا كان قعودهم عن الخروج مع المسلمين خيرا أراده الله لعباده المخلصين .

٨ — وهم الى هذا كله جبناء تنخلع قلوبهم من الحــرب ، وتطير نفوسهم شعاعا ، حتى انهم لو يجدون حصنا أو مغارة أو سردابا أو أى مخبأ لفروا اليه فرارا .

ومن مظاهر هلعهم أنهم كلما سمعوا الدعوة الى الحرب نظروا الى رسول الله نظرات المغشى عليهم من خوف الموت .

وكلما سمعوا الامر بالقتال حزنوا ، وقالوا لماذا أمرنا الله بالقتال ؟ ولماذا لم يؤجل الامر ؟ كأنهم لا يعلمون أن حياتهم قصيرة وأن متعهم بها قليلة ، وأن الآخرة خير وأبقى .

وكأنهم لا يعرفون أن أعمارهم لابد أن تنفد ، وأن الموت لابد أن يتخطفهم وان اختبأوا فى شاهق من الحصون ومنيع من الابراج .

٩ — فاذا تجسس المنافق على المسلمين لأعدائهم ، فقــد اختلف الفقهاء فى قتله ، فرأى الامام مالك وبعض الحنابلة كابن عقيل أنه يقتل، وتوقف فى قتله الامام أحمد بن حنبل .

ومنعه الامام أبو حنيفة والامام الشافعى وبعض الحنابلة كالقاضى أبى يعلى [1] .

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٤٥/٢٨ .

قال تعالى : « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف [1] رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وقالوا : لا تنفروا فى الحر قل : نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون • فليضحكوا قليلا ، وليبكوا كثيرا ، جزاء بما كانوا يكسبون •

فان رجعك الله الى طائفة منهم ، فاستأذنوك للخروج فقل : لن تخرجوا معى أبدا ، ولن تقاتلوا معى عدوا ، انكم رضيتم بالقعود أول مرة ، فاقعدوا مع الخالفين [2] •

ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ، ولا تقم على قبره ، [3] ، انهم كفروا بالله ورسوله ، وماتوا وهم فاسقون • ولا تعجبك أموالهم وأولادهم ، انما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا ، وتزهق أنفسهم وهم كافرون •

واذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله ، وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم [4] ، وقالوا : ذرنا نكن مع القاعدين •

رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وطبع على قلوبهم ، فهم لا يفقهون » [5] •

---

(١) خلافه : خلفه ووراءه .
(٢) الخالفين : المتخلفين .
(٣) كان رسول الله يتألفهم فيقوم على قبورهم ويدعو لهم ، فلما اشتد نفاقهم ، ومرض رئيسهم عبد الله بن أبى بعث الى رسول الله ليزوره ، فلما دخل عليه رسول الله قال : أهلكت حب اليهود ، فقال عبد الله : يا رسول الله بعثت اليك تستغفر لى لا لتؤنبنى ، وسأله أن يصلى عليه بعد موته ، فنزلت الآية (الكشاف ٢/١٦٥) .
(٤) أوو الطول : أصحاب المقدرة .
(٥) سور التوبة ٨١ ــ ٨٦ .

فقد استأذن المنافقون رسول الله أن يتخلفوا عن غزوة تبــوك ، فأذن لهم ، وتركهم فى المدينة ، ففرحوا بقعودهم خلفه ، وكرهوا أن يحتملوا ما أحتمله المؤمنون من جهد ومشقة وبذل للمال والارواح فى سبيل الله تعالى ، مؤثرين المال والدعة والخفض والجبن على الجهاد ، متعللين بشدة الحر •

ولكن النبى سيعود الى المدينة ، فيحاول المنافقون أن يخدعوه بزعم آخر ، فيدعون أنهم سيصحبونه فى غزوة مقبلة ، فعليه أن يقول لهم ما أمره الله تعالى أن يقوله : « لن تخرجوا معى أبدا ، ولن تقــاتلوا معى عدوا ، انكم رضيتم بالقعود أول مرة ، فاقعدوا مع الخالفين » •

وقال تعــالى :

« لو كان عرضا [1] قريبا وسفرا قاصدا [2] لاتبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة ، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم ، والله يعلم انهم لكاذبون •

عفا الله عنك ، لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا ، وتعلم الكاذبين •

لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، والله عليم بالمتقين •

انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وارتابت [3] قلوبهم ، فهم فى ريبهم يترددون •

---

(١) العرض القريب : الكسب السهل السريع .
(٢) السفر القاصد : القريب .
(٣) ارتابت : شكت .

ولو أرادوا الخروج لاعدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم ، وقيل اقعدوا مع القاعدين لو خرجوا فيكم مازادوكم الا خبالا [1] ، ولأوضعوا خلالكم [2] يبغونكم الفتنة ، وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظـالمين » [3] •

وقال تعالى : « سيقول لك المخلفون من الاعراب : شغلتنا أموالنا وأهلونا ، فاستغفر لنا •

يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم • قل : فمن يملك لكم من الله شيئا ان أراد بكم ضرا ، أو أراد بكم نفعا ، بل كان الله بما تعملون خبـيرا •

بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبدا ، وزين ذلك فى قلوبكم ، وظننتم ظن السوء ، وكنتم قوما بورا •

ومن لم يؤمن بالله ورسوله فانا أعتدنا للكافرين سعيرا [4] •

حين أراد رسول الله المسير الى مكة عام الحديبية معتمرا ، استنفر الاعراب الذين حول المدينة ليخرجوا معه ، حذرا من قريش أن تعرض له بحرب ، أو تصده عن البيت الحرام ، وأحرم وساق معه الهـدى ، ليعلمهم أنه لا يريد حربا ، فتثاقل كثير من الاعراب ، وقالوا : انه يذهب الى قوم قد غزوه فى المدينة ، وقتلوا أصحابه فيقاتلهم ، وظنوا أنه يهلك فلا ينقلب الى المدينة ، واعتذروا بأهليهم وأموالهم وحاجة أعمالهم اليهم •

---

(١) الخبال : الفســاد .
(٢) أوضعوا خلالكم : مشوا بينكم مسرعين .
(٣) سورة التوبة ٤٢ ــ ٤٧ والكشاف ١٥٤/٢ وتفسـير القرطبى ١٥٥/٨ .
(٤) سورة الفتح ١١ ــ ١٣ البور : الهلاك أو جمع بائر بمعنى هالك (الكشاف ٤٦٣/٣) .

وكانوا كاذبين فى اعتذارهم ، لانهم شاكون منافقون ، كذلك كانوا كاذبين فى طلبهم الاستغفار .

وقد كشفت الآية عن سرائرهم ، ووبختهم ، وأنذرتهم بأنه لا أحد ينجيهم من عذاب الله ان أراد بهم ضررا من قتل أو هزيمة ، أو أراد بهم نفعا من نصر أو غنيمة .

وقال تعـــالى : [١]

« ويحلفـــــون بالله انهم لمنكم ، وما هم منكم ، ولـــكنهم قـــوم يفـــرقون [٢] .

لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا اليه وهم يجمحون » [٣] .

وقال سبحانه :

« ويقـــول الذين آمنوا لولا نزلت ســـورة ، فاذا أنزلت ســـورة محكمة [٤] ، وذكر فيها القتال ، رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت [٥] .

وقال تعالى :

« ألم تر الى الذين قيل لهم : كفوا أيديكم ، وأقيموا الصـــلاة ، وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس

---

(١) سورة التوبة ٥٦ ـــ ٥٧ .
(٢) يفرقون : يشتد خوفهم .
(٣) القرطبى ٢٤٣/١٦ يجمحون : يسرعون على غير هـــدى لا يردهم شىء .
المدخل : المسلك الذى يختفى فيه الداخل .
(٤) سورة محمد : ٢١
(٥) يقول المؤمنون المخلصون لولا انزل الله سورة يأمرنا فيها بالجهاد، فاذا أنزلها اغتاظ المنافقون وهلعوا .

كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا الى أجل قريب ؟ قل : متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، ولا تظلمون فتيلا • أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم فى بروج مشيدة » [١] •

وقال تعالى :

« يعتذرون اليكم اذا رجعتهم اليهم ، قل : لا تعتذروا ، لن نؤمن لكم [٢] ، قد نبأنا الله من أخباركم ، وسيرى الله عملكم ورسوله ، ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون •

سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم [٣] لتعرضوا عنهم [٤] ، فأعرضوا عنهم [٥] انهم رجس [٦] ، ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون •

يحلفون لكم لترضوا عنهم [٧] ، فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين •

---

(١) سورة النساء ٧٧ — ٧٨ •
فى هذه الآية وصف للمنافقين الذين يخشون فقال المشركين كما يخشون الموت ، وهذا أشبه بسياق الاية ، لقولهم « ربنا لم كتبت علينا القتال ، لولا أخرتنا الى أجل قريب » ومعاذ الله أن يصدر هـذا القول من صحابى كريم يعلم أن الاجل محدود وأن الرزق مقسوم •
فغير صحيح ما روى أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبى بمكة فقالوا : يانبى الله كنا فى عز ونحن مشركون ، فلما آمنا صرنا فى ذلة ، فقال : انى أمرت بالعفو ، فلا تقاتلوا القوم ، فلما هاجر الى المدينة أمره الله بالقتال فكفوا وجبنوا (تفسير القرطبى ٥/٢٨٠) •
(٢) لن نؤمن لكم : لن نصدقكم •
(٣) انقلبتم اليهم : عدتم من غزوة تبوك •
(٤) لتعرضوا عنهم : لتصفحوا عنهم •
(٥) أعرضوا عنهم : لا تكلموهم ولا تجالسوهم •
(٦) رجس : عملهم قذر وقبيح •
(٧) لترضوا عنهم : حلف عبد الله بن أبى ألا يتخلف عن رسول الله بعد ذلك وطلب أن يرضى عنه •

الاعراب [١] أشد كفرا ونفاقا ، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، والله عليم حكيم .

ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ، ويتربص بكم الدوائر ، عليهم دائرة السوء [٢] ، والله سميع عليم [٣] .

فرصة للتجربة والامتحان :

هل من الحتم أن يلبس المنافق والخائن نفاقه فلا يخلعه ؟

وهل قضى على كل عاص أو مارق أن يعيش عمره فى مروق وعصيان ؟

أليس من حق المنافق أن يتوب ، ومن حق العاصى أن يتوب ؟ ألم يكن بعض السادة والقادة فى الاسلام أعداء ألداء للاسلام قبل أن تنشرح له صدورهم ؟

بلى .

فلا عجب فى أن يخلص اليوم من كان منافقا أمس ، ليمحو ما لحق به من معرة .

ومن الظلم أن نبرم الحكم عليه بالطرد الذى لا عفو فيه . لهذا اقتضت الحكمة الالهية أن يفتح النبى للمنافقين باب التوبة ، فيجربهم

---

(١) بعد أن ذكر الله تعالى أحوال المنافقين بالمدينة ذكر من كانوا خارجين عنها من الاعراب ، فقال ان كفرهم أشد ، لانهم أبعد عن معرفة السنن ، ولانهم أقسى قلوبا وأغلظ طباعا ، وأبعد عن سماع التنزيل .

(٢) السوء : الهزيمة والبلاء والعذاب .

(٣) سورة التوبة ٩٤ — ٩٥ وتفسير القرطبى ٨/٢٣٠ والكشاف ٢/١٦٧ .

مرة أخرى ، فاذا ما حاولوا أن يشاركوه فى غزوات لاحقة فعليه ألا يرفضهم ، بل يقبلهم بعد أن يعلمهم أن الحرب المقبلة طاحنة ، ليخرجوا اليها وهم على يقين من شدتها ، أو ليقبعوا فى دورهم كما قبعوا من قبل .

قال تعالى : « سيقول المخلفون اذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها : ذرونا نتبعكم ، يريدون أن يبدلوا كلام الله .

قل : لن تتبعونا ، كذلكم قال الله من قبل .

فسيقولون : بل تحسدوننا ، بل كانوا لا يفقهون الا قليلا .

قل للمخلفين من الاعراب : ستدعون الى قوم أولى بأس شديد ، تقاتلونهم أو يسلمون ، فان تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا ، وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما » [1] .

هؤلاء هم الذين تخلفوا عن غزوة الحديبية ، ثم عرضوا على النبى والمسلمين أن يصحبوهم فى القابل ، وهم يحاولون أن يشككوا المسلمين فيما وعدهم الله به من غنائم ومن نصر عوضا عما فاتهم من دخول مكة ، أو يحاولون أن يبدلوا ما أكده الله تعالى على لسان نبيه أنهم لن يصحبوه فى غزوة بعد تخلفهم عنه فى تبوك .

فاذا ما رفض المسلمون طلب هؤلاء المنافقين سارعوا الى اتهام المسلمين بأنهم يحسدونهم ، وبأنهم لا يريدون أن يشركوهم معهم فى الغنائم .

---

(۱) سورة الفتح ١٥ ــ ١٦ يسلمون : يخضعون

ولكن المنافقين مبطلون فى زعمهم ، يحاولون التموية على المسلمين ، وهم لا يخدعون الا أنفسهم ٠

ثم قطع النبى مزاعمهم بقوله انكم ستدعون الى قتال قوم أشـــداء ، وفى هذه الحالة يتبين صدقكم من كذبكم واخلاصكم من نفاقكم ٠

ولكن من القوم الاشداء الذين سيدعون الى قتالهم ؟

وكيف تتفق هذه المشاركة مع قول النبى لهم من قبل : « لن تخرجوا معى أبدا ، ولن تقاتلوا معى عدوا » ؟

أما القوم الاشداء فمختلف فيهم ، فهم يهود خيبر ، أو هم ثقيف وهوازن ، وكانت حربهم فى عهد رسول الله ، واذا يكون المراد بقـــوله تعالى « لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا » انكم لن تخرجوا معى ما دمتم مرضى القلوب ٠

أو هم بنو حنيفة قوم مسيلمة وأهل الردة الذين حاربهم أبو بكر ، أو هم غيرهم من الفرس والروم ، لان المنافقين لم يشتركوا مع رسول الله فى حرب ، ولكن اشتركوا بعد وفاته ، وكيف يدعوهم الى الاشتراك معه مـــع قوله تعـــالى « لن تخـــرجوا معى أبدا ولن تقـــاتلوا معى عـــدوا » ؟[1] ٠

وهذا الرأى هو الراجح لعدة أسباب :

١ ــ لان الآية الكريمة (لن تخرجوا معى أبدا ، ولن تقاتلوا معى عدوا) نفت نفيا قاطعـــا خروجهم مع النبى فى المستقبل ، ولابد من أن يتحقق هذا النفى ٠

---

(١) الكشاف ٣/٤٦٤ ٠

٢ ــ ولان تعليق هذا النفى على مرض قلوبهم فيه تكلف وتهافت •

٣ ــ ثم ان الآية الكريمة (ستدعون الى قوم أولى بأس شديد) ترجح أن الدعوة ستكون من غير النبى ، لان الفعل مبنى للمجهول ، ولو أن النبى هو الداعى لكان النص سأدعوكم •

٤ ــ على أن هؤلاء المنافقين لم يشتركوا مع النبى فى حرب ، وانما شاركوا بعد وفاته فى حروب •

الفصل العاشر

تقريع الجبناء

اذا كان المجتمع لا يبرأ من منافقين تخفى صدورهم البغضاء للمسلمين ، ويتربصون بهم الدوائر ، ويتعللون عن قعودهم وتخلفهم بأباطيل شتى ، فانه لا يسلم أيضا من جبناء ، يخشون النزال ، ويتشبثون بالسلامة •

فهل ترك القرآن الكريم الجبناء وشأنهم ؟

لا ، لقد أنبهم وقرعهم ، لأن الاسلام عقيدة تتطلب من معتنقيها أن يكونوا ذوى بسالة وحماسة وفداء ، ينافحون عنها بأنفسهم وأموالهم ، ويشترون عزتها بحياتهم ، ليرفعوا لواء التوحيد الخالص ، ولينصروا الحق والخير والعدل والحرية والاخاء ، وليعيشوا فى ديارهم ذوى عزة ومنعة واباء •

١ — لهذا جاء الامر بالجهاد مقرونا بلوم المتخلفين وتقريع الجبناء ، وتهديدهم بعذاب من الله شديد • قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الارض ؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل • الا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ، ويستبدل قوما غيركم ، ولا تضروه شيئا ، والله على كل شىء قدير •

الا تنصروه فقد نصره الله ، اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، اذهما فى الغار ، اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » [1] •

فقد كانت الآيات التى قبل هذه فى تقريع المنافقين الذين تقاعسوا عن السير مع رسول الله الى غزوة تبوك ، زاعمين أنهم مضطرون الى التخلف ، لان العام عام عسرة وجدب ، ولان القيظ شديد ، والشقة بعيدة ، والعدو كثير قوى •

أما هذه الآيات فهى فى تأنيب الجبناء والكسالى • وان التوبيخ الساخر ليتجلى فى قوله تعالى « اثاقلتم الى الارض » لانهم بجنبهم وقعودهم صاروا مشدودين الى الارض والى القعود لا يقدرون على الحركة ، كأنما يحملون أثقالا تنوء بها أجسامهم ، فهم قطع من الارض لا تتنقل ولا تتحرك •

ويتبين الاستفهام اللائم فى قوله تعالى « أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ » لانهم بتقاعدهم أصحاب دنيا ، وذوو حفاظ على متاع زائل ، وليسو من أصحاب الآخرة ونعيمها العظيم الدائم •

ثم جاء التهديد المرعب والوعيد المخيف بعد ذلك ، لان الله سبحانه أوعدهم بعذاب أليم ان تخلفوا عن الجهاد ، وأنذرهم بافنائهم واختيار قوم آخرين من عباده ، أطوع له وخيرا منهم وأعلمهم أنهم عبيد له لا يضره تخليهم عن الجهاد شيئا ، وهم يعلمون أنه القدير الفعال لما يريد ، فليس بحاجة الى نصرتهم • وبعد هذا النذير ذكرهم بحقيقة واقعة يعلمونها ، وهى انه تعالى قد نصر رسوله وهو فرد ضعيف

---

(١) سورة التوبة ٣٨ — ٤٠ .

الحول والطول ، على المشركين وهم كثير أصحاب حول وطول ، اذا اضطروه الى أن يهاجر من مكة الى المدينة ومعه صاحبه أبو بكر ، وفى بداية الطريق اختبأ فى غار بجبل ثور ثلاث ليال ، وتعقبهما المشركون حراصا على اللحاق بهما لردهما أو لقتلهما ، ووقف المشركون اقساء الغار ، حتى بدت أقدامهم ، فخشى أبو بكر على رسول الله وعلى الدعوة أن تنال قريش منها ما تريد ، وبدت امارات الخشية على وجهه وفى كلماته ، فقال له رسول الله فى يقين بربه وثقة من وعده ما ظنك باثنين الله ثالثهما : لا تحزن ان الله معنا ، فكانت سكينة من الله عمر بها قلب رسوله ، وكان نصر من الله بجنود من توفيقه وقواه ، لا يراها سواه ، وكان اندحار للمشركين واعلاء للحق والتوحيد والخير كله ، والله هو القوى العليم الذى يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره الكافرون •

ومعنى هذا أن الله الذى نصر رسوله وهو فرد ، ونجاه من أعدائه وهم الكثرة القوية ، لابد أن ينصره فى كل المآزق ، ولابد أن ينجيه فى كل المعارك ، سواء نفر معه هؤلاء الجبناء أم لم ينفروا ، وسواء سارعوا الى الجهاد أم لم يسارعوا ، وحسب النبى أن الله نصيره ، وحسبه أن معه من المؤمنين صناديد باعوا أنفسا تموت غدا بأنفس لا تموت أبدا •

على أن فى بعض ما قرع به القرآن الكريم الجبناء تصويرا لدخائلهم، وسخرية منهم ، وعلاجا لجبنهم ، وتيئيسا لهم من أن يتوهموا أن الجبن يراخى آجالهم ، ويطيل أعمارهم ، فقد كان جماعة من المسلمين يتمنون أن يأذن الله لهم فى قتال الكفار قبل الهجرة ، فلما هاجروا وأذن الله لهم بالقتال ، جبن بعضهم فى غير ما شك فى الدين أو رغبة عنه أو موالاة للكفار ، ولكن كان جبنهم توقيا للمعاطب ، وضنا بالارواح ، وتهربا من الموت •

وقد أنبهم الله تعالى بأنهم صاروا يخافون الاعداء مثل خوف المؤمنين من الله أو أشد ، وفى هذا التصوير مهانة للجبناء واذلال •

وأنبهم بأنهم أصحاب أقاويل ودعاوى ، فهم كانوا من قبل يتشوقون الى الاذن لهم بالقتال ، فجعلوا بعد الاذن يقولون لله سبحانه لماذا فرضت علينا القتال ؟ ولماذا لم تمهلنا الى وقت آخر قريب ؟ وفى هذا ما فيه من السخرية بهلع نفوسهم •

ثم جاء الرد الحاسم عليهم جامعا للسخرية منهم وتبصيرهم بما أذهلهم عنه جبنهم ، وذلك أن الحياة الدنيا التى يحرصون عليها ويضنون بها قصيرة الاجل ، قليلة المتاع ، على حين أن الحياة الآخرة خالدة عظيمة الجزاء ، وهم لابد أن يموتوا ، ولابد أن يجزيهم الله على أعمالهم جزاء وفاقا لا ظلم فيه على أن جبنهم لن ينجيهم من الموت المحتوم • فلكل أجل كتاب ، وسيتخطفهم الموت حيثما كانوا ، فلا فرق بين مجاهد فى العراء وقابع فى حصن مشيد •

قال تعالى : « ألم تر الى الذين قيل لهم : كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا الى أجل قريب ؟ قل : متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، ولا تظلمون فتيلا •

اينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم فى بروج مشيدة » [1] •

---

(١) سورة النساء ٧٧ — ٧٨ .

نـــدم وتـــوبة

لنرجع بالخيال الى الماضى ، حيث يتأهب النبى عليه الصلاة والسلام لغزوة تبوك ، فتلبيه بالأنفس والأموال الكثرة المؤمنة المخلصة ، ويتخلف عنه المنافقون ، وهم بضعة وثمانون رجلا من الأنصار ، واثنان وثمانون من الأعراب ، وعدد كبير من أتباع عبد الله بن أبى •

اننا نرى عددا قليلا من غير المنافقين ، زين لهم التكاسل أو الجبن أن يتلبثوا عن المسير ، أو يتقاعدوا عنه • وهم ثلاثة أقسام :

١ ــ عدد تلبثوا ، ولكنهم لم يلبثوا أن كرهوا مكانهم ومقامهم ، فلحقوا برسول الله •

كان لأحدهم حائط [1] يزيد ثمنـــه على مئة ألف درهم ، فقـــال : يا حائطاه ما خلفنى الا ظلك وانتظار ثمرك ، أذهب فأنت فى سبيل الله •

ولم يكن لآخر الا أهله ، فقال : يا أهلاه ، ما بطأنى ولا خلفنى الا الضن بك ، والله لأكابدن المفاوز حتى ألحق برســـول الله ، فركب ولحق به •

ولم يكن لثالث الا نفســـه ، فلا أهل له ولا مال ، فقال : يا نفس ما خلفنى الا حب الحياة لك ، والله لأكابدن الشدائد حتى ألحق برسول الله ، فتأبط زاده ولحق به •

وعن أبى خيثمة أنه بلغ بستانة ، وكانت له امرأة حســـناء ، فرشت له فى الظل ، وبسطت له الحصير ، وقربت اليه الرطب والماء البارد ،

---

(١) حائط : بستان

فنظر فقال : ظل ظليل ، ورطب يانع ، وماء بارد ، وامرأة حسناء ، ورسول الله فى الضح والريح ، ما هذا بخير ، فقام فرحل ناقته ، وأخذ سيفه ورمحه ، ومر كالريح ، فمد رسول الله طرفه الى الطريق ، فاذا براكب يزهاه [1] السراب ، فقال : كن أبا خيثمة ، فكان ، ففرح به رسول الله واستغفر له [2] .

٢ ــ وكان من المتخلفين آخرون لم يعتذروا عن تخلفهم بالمعاذير الكاذبة كغيرهم ، ولكن اعترفوا بذنبهم نادمين ، وهم ثلاثة : أبو لبابة مروان بن عبد المنذر ، وأوس بن ثعلبة ، ووديعة بن حزام ، وقيل بل كانوا عشرة ، لما بلغهم ما أنزل الله فى المتخلفين فأيقنوا بالهلاك أوثقوا أنفسهم بسوارى المسجد ، فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل المسجد ، فصلى ركعتين ، فرآهم موثقين ، فسأل عنهم ، فذكر له أنهم أقسموا ألا يحلوا أنفسهم حتى يكون رسول الله هو الذى يحلهم ، فقال : وأنا أقسم ألا أحلهم حتى يأمرنى ربى فيهم ، فنزل قوله تعالى : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، عسى الله أن يتوب عليهم ، ان الله غفور رحيم » [3] .

فأطلقهم رسول الله ، وقبل أعذارهم ، فقالوا : يا رسول الله ، هذه أموالنا التى خلفتنا عنك ، فتصدق بها ، وطهرنا ، فقال : ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا ، فنزل قوله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم ، والله سميع عليم . ألم يعلموا ان الله هو يقبل التوبة عن عباده ، ويأخذ الصدقات ، وان الله هو التواب الرحيم » [4] .

---

(١) يزهاه : يظهره .
(٢) الكشاف ١٧٦/٢ .
(٣) سورة التوبة ١٠٢ .
(٤) سورة التوبة ١٠٣ ــ ١٠٤ . صل عليهم : ادع لهم وترحم . سكن لهم : طمأنينة الى أن الله تاب عليهم . يأخذ الصدقات : مجاز عن قبوله لها، والمعنى انه يتقبلها ويثيب عليها .

٣ ـ وهنالك ثلاثة قعدوا بالمدينة ، ولم يلحقوا برسول الله ، هم: كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، ولم يكن تخلفهم عن نفاق أوشك فى وجوب الجهاد عليهم ، فلما عاد رسول الله الى المدينة قال : لا تكلمن أحدا من هؤلاء الثلاثة •

فلنصغ الى الحديث الصادق الشائق الذى صور به كعب بن مالك سبب تخلفه ، وما أعقبه من حزن ممض وحسرة هالعة ، ثم ما أنعم الله به عليه وعلى رفيقيه منعفو كريم ملأ قلوبهم حبرة وقلوب أحبائهم مسرة•

وسيتبين من هذا الحديث أن الجبن عن الجهاد كبيرة من الكبائر ، يعاقب مرتكبها بالنبذ والاهمال والمقاطعة والحيلولة بينه وبين زوجته

كما يتضح أن المؤمن الخالص الايمان لا يلبث اذا ما زين له جبنه أن يتخلف عن الحرب أن يستيقظ ايمانه ، ويؤنبه ضـــميره ، وتضيق به الأرض الرحيبة ، وتتبرم به نفسه ، ولا يجد منجاة من هـــذا العذاب الا بالتوبة •

كذلك يتجلى حرص هذا المؤمن على صدقه فيما يحدث به رسول الله من أسباب تخلفه ، كراهيته للكذب على رسول الله ، وخوفا من أن ينزل الوحى بتكذيب الرجل فيما زعم •

ثم تجىء رحمة الله وعفوه ، فيفرح الجبان المتخلف ايما فرحة ، ويهب ماله ونفسه للجهاد القادم ، ويهش رسول الله لهذا العفو ، ويفرح المسلمون بالمغفرة لاخوانهم الثلاثة •

وفى هذا كله زجر لمن تسول لهم نفوسهم أن ينكصوا عن النهوض بما يجب عليهم لدينهم ولوطنهم ، مؤثرين الدعة والسلامة والمتاع الزائل ، فان عذاب النفس أقسى وأشد ايلاما من مخاطر الواجب ، وان متـــاع

الدنيـا كله يتضاءل أمام غضب الله ، وزراية المجتمـع ، وحياة المذلة والهـوان •

قال كعب بن مالك [1] :

لم أتخلف عن رســول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها الا فى غزوة تبوك ، غير أنى كنت تخلفت فى غزوة بدر ، ولم يعاتب النبى أحدا تخلف عنها ، لأنه كان قد خرج يريد عير قريش ، فالتقى بقريش على غير ميعاد ، ولم تكن قريش مقصودة بالقتال حتى يكون التخلف عن القتال مذموما •

ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الاســلام •

كان من خبرى أننى لم أكن قط أقوى منى ولا أيسر حين تخلفت عن رسول الله فى غزوة تبوك •

ولم يكن رسول الله يريد غزوة الا ورى عنها بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة التى غزاها فى حر شديد وسفر بعيد وعدو كثير [2] وصحراء لا ماء فيها ، فأوضح للمسلمين أمرهم ، ليتأهبوا ، وأخبرهم بالوجهة التى يريدها •

وكان المسلمون كثيرا فما أراد رجل أن يتغيب الا ظن أنه سيخفى ما لم ينزل فيه وحى من الله •

---

(١) فتح المبدى ١٥٦/٣ وسيرة ابن هشام ١٧٥/٤ .
(٢) جمع الروم جموعهم ومعهم قبائل عربية هى لخم وجذام وغسان، وبعثوا مقدماتهم الى البلقاء .

وتجهز رسول الله والناس معه ، فى وقت طابت فيه الثمار والظلال ، فطفقت أغدو لأتجهز معهم ، ولكنى أرجع ولم أقض من أمرى شيئا ، فأقول فى نفسى : أنا قادر على أن أتجهز وأخرج متى شئت ، ولم يزل يتمادى بى الحال حتى اشتد الجد بالناس ، وحتى تجهز رســول الله والمسلمون معه وغادروا المدينة ، وأنا لم أقض من جهازى شيئا . فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين ، ثم ألحقهم ، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز ، فرجعت ولم أقض شيئا . ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئا ، فلم يزل بى التردد حتى أسرعوا ، وفاتنى أن ألحــق بهم ، وهممت أن أرتحل فأدركهم فلم يقدر لى ذلك ، وليتنى فعلته .

فكنت اذا خرجت فى الناس بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وسلم أحزننى أننى لا أرى بالمدينة الا رجلا منافقا ، أو رجلا ممن عذرهم الله تعــالى .

ولم يذكرنى رسول الله حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس فى القوم : ما فعل كعب بن مالك ؟ فقال رجل من بنى سلمة : يا رسول الله حبسه برداه ونظره فى عطفيه [1] ، فقال معــاذ بن جبل : بئسما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه الا خيرا . فسكت رسول الله صلى الله عليه وســلم .

فلما بلغنى أن رسول الله توجه قافلا الى المدينة حضرنى همى ، فطفقت أتذكر الكذب ، وأقول : بماذا أخرج من سخطه غدا ؟ واستعنت على ذلك بكل ذى رأى من أهلى .

فلما قيل ان رسول الله قد أوشك أن يقدم زال عنى الباطل ، وعرفت أنى لن أخرج من سخطه أبدا بشىء فيه كذب .

---

(١) كناية عن ترفه واعجابه بنفسه وزهوه .

فعزمت على الصدق ، وأصبح رسول الله قادما ، وكان اذا قدم بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين •

ثم جلس للناس ، فجاءه المخلفون ــ الذين أقعدهم نفاقهم وكسلهم عن غزوة تبوك ــ فطفقوا يعتذرون اليه ، ويحلفون له ، فقبــل منهم علانيتهم ، وبايعهم ، واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم الى الله تعالى •

فجئته ، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ، ثم قال تعال ، فجئت أمشى حتى جلست بين يديه ، فأعرض عنى ، فقلت يا نبى الله لم تعرض عنى ، فوالله ما نافقت ولا ارتبت ولا بدلت ، فقال لى : ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك (١) ؟ فقلت : بلى والله يا رسول الله ، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلا ، ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به ليوشكن الله أن يسخطك على ، ولئن حدثتك حديث صدق تغضب على فيه انى لأرجو فيه عفو الله •

لا والله ما كان لى من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك •

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك •

فقمت ، ووثب رجال من بنى سلمة فأتبعونى ، فقالوا لى : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ، ولقد عجزت عن الاعتذار لرسول الله بما اعتذر به المتخلفون ، قد كان يكفيك استغفار رسول الله لك ، وما زالوا يؤنبوننى حتى أردت أن أرجع ، فأكذب نفسى • ثم قلت لهم : هل تخلف

---

(١) اشتريت راحلتك .

مثل تخلفى أحد ؟ قالوا : نعم رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك .

فقلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العمرى وهلال بن أمية الواقفى ، فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا ، فيهما أسوة حسنة لى [1] .

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا [2] نحن الثلاثة من بين من تخلفوا عنه ، فاجتنبنا الناس ، وتغيروا لنا ، حتى تغيرت فى نفسى الأرض ، وصارت غير ما عرفت من قبل ، ولبثنا على ذلك خمسين ليلة .

فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أقواهم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف فى الاسواق ، ولا يكلمنى أحد ، وأتى رسـول الله فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى : هل حرك شفتيه برد السلام على أم لا ، ثم أصلى قريبا منه ، فأسارقه النظر ، فاذا التفت نحوه أعرض عنى ، حتى اذا طال على ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار بستان أبى قتادة ، وهو ابن عمى ، وأحب الناس الى ، فسلمت عليه ، فوالله ما رد على السلام ، فقلت : يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمنى أحب الله ورسوله ؟ فسكت ، فعدت له فنشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم .

---

(١) تخلف مرارة لانه كان له بستان أثمر ، فقال فى نفسه : قد غزوت قبلها ، فلو أقمت عامى هذا ، فلما تذكر ذنبه قال : اللهم أنى أشهدك أنى قد تصدقت به فى سبيلك . وتخلف الثانى لان أهله الذين كانوا مفرقين اجتمعوا ، فقال : لو اقمت هذا العام معهم ، فلما تذكر ذنبه .
قال : اللهم لك على الا أرجع الى أهلى ولا مالى .

(٢) قال السهيلى : اشتد الغضب على من تخلفوا وان كان الجهاد فرض كفاية لانه فى حق الانصار خاصة فرض عين ، لانهم كانوا بايعوا على ذلك ، فتخلفهم عن الغزو كبيرة لانه كالنكث لبيعتهم . وعند الشافعية أن الجهاد كان فرض عين فى زمن رسول الله .

ففاضت عيناى ، وتوليت حتى تسورت الجدار ، فبينما أنا أمشى بسوق المدينة اذا نبطى من أنباط الشام ممن قدموا بالطعام يبيعونه بالمدينــة يقول : من يدلنى على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له ، حتى اذا جاءنى دفع الى كتابا من ملك غســان [1] ، فاذا فيه : أما بعد ، فانه قد بلغنى أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك . فقلت لمــا قرأت الكتاب : وهذا أيضا من البلاء ، فقصدت به التنور ، وأوقدته فيه .

حتى اذا مضت أربعون ليلة من الخمسين اذا رسول يأتينى من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول : أن رسول الله يأمرك أن تعتزل أمرأتك ، فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : لا ، بل أعتزلها ، ولا تقربها .

وأرسل الى صاحبى مثل ذلك .

فقلت لامرأتى : الحقى بأهلك حتى يقضى الله فى هذا الأمر .

فجاءت امرأة هلال بن أمية الى رسول الله فقالت : يا رسول الله ، ان هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ، ولكن لا يقربك ، قالت : انه والله مابه حركة الى شىء ، وما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان الى يومه هذا .

فقال لى بعض أهلى : لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى امرأتك ، كما أذن لامرأة هلال أن تخدمه ؟

فقلت : « والله لا أستأذن فيها رسول الله ، وما يدرينى ما يقول اذا استأذنته فيها ، وأنا رجل شاب ؟

---

(١) جبلة بن الايهم او الحارث بن ابى شمر .

فلبثت على ذلك عشر ليال ، حتى كملت لنا خمسون ليلة منذ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا •

فلما صليت صلاة الفجر صبح الليلة الخمسين وأنا على ظهر بيت من بيوتنا ، وجلست وقد ضاقت على نفسى ، وضاقت على الارض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع ينادى بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر ، فخررت ساجدا ، وعرفت أنه قد جاء فرج ، وأن رسول الله قد أعلن توبة الله علينا حينما صلى الفجر •

وركض الى رجل فرسا ، وسعى ساع من قبيلة أسلم ، فصعد الجبل ، وجاء آخرون يبشروننى ، وذهب مبشرون الى صاحبى •

فلما صعد الى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبى فكسوته اياهما ، ولبست ثوبين آخرين ، وانطلقت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلقانى الناس فوجا فوجا ، يهنئوننى بالتوبة ، حتى دخلت المسجد ، فاذا رسول الله جالس والناس حوله ، فقام الى طلحة بن عبيد الله يهرول ، حتى صافحنى ، وهنأنى ، ولم يقم رجل من المهاجرين غيره ، فلن أنسى لطلحة هذا الصنيع •

فلما سلمت على رسول الله قال ووجهه يبرق من السرور : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك •

قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله !

قال : بل من عند الله •

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه •

فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ان من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة الى الله والى رسول الله •

قال : أمسك عليك بعض مالك ، فهو خير لك .

قلت : فانى أمسك سهمى الذى بخيبر .

وقلت : يا رسول الله ان الله انما نجانى بالصدق ، وان من توبتى ألا أحدث الا صدقا ما بقيت .

ووالله ما أعلم أحدا من المسلمين أنعم الله عليه فى صدق الحديث منذ صدقت رسول الله أحسن مما أنعم على ، وما تعمدت كذبا منذ صدقت رسول الله الى يومى هذا ، وانى لارجو أن يحفظنى الله فيما بقيت .

وكنا نحن الثلاثة تخلفنا عن الذين حلفوا لرسول الله ، فقبل منهم وبايعهم ، واستغفر لهم ، وأرجأ [1] أمرنا حتى قضى الله فيه ، فقال سبحانه : « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم انه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا الا ملجأ من الله الا اليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، ان الله هو التواب الرحيم » [2] .

---

(١) قال تعالى فيهم : « وآخرون مرجون لامر الله اما يعذبهم وأما يتوب عليهم والله عليم حكيم » سورة التوبة ١٠٦ .

(٢) سورة التوبة ١١٧ ــ ١١٨ وعلل كعب قوله تعالى « خلفوا » بأنه ليس تخلفهم عن الغزو ، بل هو تخليف الحكم فيهم وتأخيره عن الذين حلفوا للنبى واعتذروا له فقبل منهم .

وهذا تفسير من كعب أداه اليه فهمه ، ورجح الزبيدى (فتح المبدى ١٥٦/٣) ان المراد تأخير التوبة عليهم ، وذكر الزمخشرى (الكشاف ١٧٥/١) أن المقصود تخلفهم عن الغزو أو تأخير التوبة عليهم عن التوبة على أبى لبابة وأصحابه ، وقرىء خلفوا بفتح الخاء واللام أى خلفوا الغازين بالمدينة ، وقرأ أبو جعفر الصادق (خالفوا) وقرأ الاعمش (المخلفين) .

فو الله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هدانى للاســلام أعظم فى نفسى من صدقى لرسول الله ، ولو كذبته لهلكت كما هلك الذين كذبوه ، فان الله تعالى قال للذين كذبوه شر ما قال لاحد : « سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضــوا عنهم ، فأعرضوا عنهم ، انهم رجس ، ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون • يحلفون لكم لترضوا عنهم ، فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين »[1] .

---

(١) سورة التوبة ٩٥ ـ ٩٦ .

الفصل الحادى عشر

جــــزاء الجهـــاد

اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون فى الأرض خير وشر ، وحق وباطل ، وعدل وظلم ، وتوحيد وشرك ، وأن يصطرع هذا وذاك ما دام الناس يحيون على هذه الارض •

فلم يكن بد من الجهاد لنصرة التوحيد والخير والحق والعدل ، ولم يكن بد لأصحاب العقيدة السماوية الصحيحة من أن يلاحوا دونها ، وأن يفتدوها بأرواحهم ودمائهم وأموالهم ، سواء أكان العدوان مصوبا الى العقيدة نفسها ، أم موجها الى وطنها ومقرها ، أم واقعا بأهليها وأنصارها •

لهذا فرض الله الجهاد ، وحض عليه •

ولهذا كان للجهاد جزاء عظيم متنوع •

أولا

الثــواب الالهى

المؤمن الحقيقى هو الذى يجعل من نفسه حصنا لدينه ، ويفتدى دينه بحياته وبماله ، قال تعالى : « انما المؤمنون الذين آمنــوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ،

أولئك هم الصادقون » [1] فهم الذين آمنوا وصدقوا ولم يشكوا ، ثم حققوا ذلك بجهادهم وبأعمالهم الصالحة [2] .

وقد سبق فى حكم الجهاد أنه قد يكون فرض عين ، وقد يكون فرض كفاية .

ولعل الحالة الثانية هى التى يعنيها ابن تيمية بقوله ان الجهاد أفضل ما يتطوع به المسلم ، وهو باتفاق العلماء أفضل من الحج والعمرة ، وأفضل من صلاة التطوع ، وأفضل من صوم التطوع ، وهذا معلوم من الكتاب ومن السنة [1] .

ومن البديه أنه سبحانه وتعالى غنى عن الجهاد وعن المجاهدين ، لان ثمرات الجهاد لهم وحدهم ، ومعاطب الاستكانة والضعف عليهم وحدهم «ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ، ان الله لغنى عن العالمين» [2] .

ولهذا أمر تعالى بالجهاد أمرا ، وحض عليه حضا ، ورغب فيه بثواب عظيم متنوع .

١ ـ الجنة

الجنة التى وعد الله بها عباده المتقين ، يذوقون فيها من ألوان النعيم ما لم تره عين ، ولم تسمع به أذن ، ولم يخطر على قلب بشر ، وينعمون فيها برحمة من الله ورضوان ، هذه الجنة هى النزل الذى وعد الله بها المجاهدين فى سبيله ، وانه لمنجز وعده ، ومحقق عهده .

---

(١) سورة الحجرات ١٥ .
(٢) تفسير القرطبى ٣٤٩/١٦ .
(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٥٢/٢٨ .
(٢) سورة العنكبوت ٦

قال تعالى : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » [1] .

وهذه الآية عامة فى كل مجاهد فى سبيل الله من أمة محمد صلى الله عليه وسلم الى يوم القيامة ، وان كانت قد نزلت فى بيعة العقبة الثانية ، وهى بيعة العقبة الكبرى التى أناف فيها رجال الانصار على السبعين ، اذ قال عبد الله بن رواحة للنبى : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال النبى : أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم ، قالوا : فاذا فعلنا ذلك فماذا لنا ؟ قال : الجنة ، قالوا : ربح البيع ، لا نقيل ولا نستقيل [2] ، فنزلت الآية . والشراء فى الآية مجاز لان المقصود أن يعطى العبد نفسه وماله وأن يأخذ الثواب والنوال من الله .

ولهذا قال الحسن : مر أعرابى على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية ، فقال : كلام من هذا ؟ قال النبى : كلام الله ، قال الاعرابى : بيع والله مربح لا نقيله ولا نستقيله ، فخرج الى الغزو واستشهد .

وتدل الآية على أن الجهاد فى سبيل الله شريعة قديمة [3] .

أما الاحاديث فى هذا المعنى فكثيرة ، منها :

---

(١) سورة التوبة ١١١ .
(٢) لا نفسخه ولا نطلب فسخه .
(٣) تفسير القرطبى ٨/٢٦٩ .

١ – انتدب الله عز وجل لمن خرج فى سبيله ، لا يخرج الا جهادا فى سبيلى وايمانا بى وتصديقا برسولى ، فهو على ضامن أن أدخله الجنة ، أو أرجعه الى مسكنه الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر وغنيمة .

والذى نفس محمد بيده ما من كلم يكلم فى سبيل الله الا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم ، لونه لون دم ، وريحه ريح مسك .

والذى نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبدا ، ولكنى لا أجد سعة فيتبعونى ، ولا تطيب أنفسهم ، فيتخلفون بعدى .

والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فى سبيل الله ، فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل [١] .

٢ – مثل المجاهد فى سبيل الله – والله أعلم بمن يجاهد فى سبيله – كمثل الصائم القائم ، وتوكل الله للمجاهد فى سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه سالما مع أجر أو غنيمة [٢] .

وأو هنا – بمعنى الواو ، وكذا رواه مسلم بالواو فى بعض رواياته ، وكذا جاء عند أبى داود والنسائى باسناد صحيح .

على أن المراد من الحديث برواية أو ليس ظاهر اللفظ وهو أنه اذا غنم فلا ينال أجرا ، فقد روى مسلم : ما من غازية تغزو فى سبيل الله فيصيبون الغنيمة الا تعجلوا ثلثى أجرهم ويبقى لهم الثلث ، فان لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم .

---

(١) مسند الامام أحمد ١٢/١٤١ .
(٢) فتح المبدى ٢/٢٩٣ توكل الله : تكفله على وجه الفضل .

فهذا صريح فى بقاء بعض الاجر مع الحصول على الغنيمة ، فتكون الغنيمة فى مقابلة جزء من ثواب الغزو •

وفى التعبير بثلثى الاجر حكمة لطيفة ، وذلك أن الله تعالى أعد للمجاهدين ثلاث كرامات دنيويتان وأخروية ، والدنيويتان السلامة والغنيمة ، والآخروية دخول الجنة ، فان ارجع سالما غانما فقد حصل له ثلثا ما أعد الله له وبقى له الثلث وان رجع بغير غنيمة عوضه الله عن ذلك ثوابا فى مقابل ما فاته [1] •

٣ ـ من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمه الله على النار [2] •

٤ ـ عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس الاسلام وأهله من أهل الكفر [3] •

٥ ـ من غزا فى البحر غزوة فى سبيل الله ـ والله أعلم بمن يغزو فى سبيله ـ فقد أدى الى الله طاعته كلها ، وطلب الجنة كل مطلب ، وهرب من النار كل مهرب [4] •

٦ ـ لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى منخرى رجل مسلم [5] •

٧ ـ وجاء فى الصحيحين قوله صلى الله عليه وسلم :

ان فى الجنة لمئة درجة ، بين الدرجة الى الدرجة كما بين السماء والأرض ، أعدها الله للمجاهدين فى سبيله •

---

(١) فتح المبدى ٢/٢٩٣ •
(٢) صحيح البخارى •
(٣) كنز العمال ٢/٢٥٥ •
(٤) كنز العمال ٢/٢٦٤ •
(٥) المسند ١٣/٢٢٠ •

٢ ــ المغفـــرة

ومن مثوبة الجهاد غفران ما تقدم من ذنب ، والحظوة بالنصر القريب العاجل ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون • يغفر لكم ذنوبكم ، ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم • وأخـــرى تحبونهـــــا ، نصر من الله وفتح قـــريب ، وبشر المؤمنين » [(١)] •

وقال تعالى :

« ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ، ثم جاهدوا وصبروا ، ان ربك من بعدها لغفور رحيم » [(٢)] •

أخبر الله تعالى على سبيل التوكيد بأنه ولى الذين هاجروا وناصرهم، لانهم ثبتوا على دينهم ، ولم تصرفهم الشدائد التى أنزلها بهم أعداؤهم عن عقيدتهم ، ثم جاهدوا وصبروا ، وأكد أنه غفور لهم رحيم بهم بعـــد هجرتهم وجهادهم وصبرهم •

وقال سبحانه :

« ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم » [(٣)] •

---

(١) سورة الصف ١٠ ــ ١٣ فتح قريب : هو فتح مكة أو فتـــح فارس والروم . تؤمنون : خبر فى معنى الامر ، ولهذا جاء الجواب مجزوما (يغفر) وفى قراءة ابن مسعود : آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا الكشاف ٤/٩٤ وتفسير القرطبى ١٨/٨٩ .

(٢) سورة النحل ١١٠ .

(٣) سورة البقرة ٢١٨ .

وقال تعالى :

« والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا ، أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم مغفرة ورزق كريم » [١] .

وفى الحديث الشريف أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم : أرأيت ان قتلت فى سبيل الله ، اتكفر عنى خطاياى ؟ فقال رسول الله : نعم ، ان قتلت وأنت صابر محتسب ، مقبل غير مدبر [٢] .

---

(١) سورة الانفال ٧٤ .
(٢) تيسير الوصول ١/٢٢٦ .

٣ ــ الرضـــــوان

وحسب المجاهدين أنهم فى ظلال من رحمة الله ورضوانه ، وأنهم فى الدرجة العليا التى أعدها لهم ، ووعدهم بها .

قال تعالى : « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون .

يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبدا ، ان الله عنده أجر عظيم » [1] .

---

(١) سورة التوبة ٢٠ ــ ٢٢ جاء قبل الآية قوله تعالى:«أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن أمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ؟ لا يستوون عند الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين » وفى الصحيح أن رجلا قال : لا أبالى ألا أعمل عملا بعد الاسلام الا أن أعمر المسجد الحرام، فقال على بن أبى طالب . الجهاد فى سبيل الله أفضل ، فقال عمر : لاترفعوا اصواتكم عند منبر رسول الله ، ولكن اذا قضيت الصلاة سألته عن ذلك ، نسأله ، فقرأ النبى هذه الآية التى تبين أن الايمان والجهاد أفضل من عمارة المسجد الحرام ومن الحج ومن العمرة والطواف ومن سقاية الحجاج .

ورجح القرطبى أن الاية كانت قد نزلت من قبل ، لان ختامها (والله لا يهدى القوم الظالمين) ينفى أنها نزلت فى اختلاف المسلمين فى المفـاضلة بين الجهاد وعمارة المسجد الحرام (تفسير القرطبى ٩٢/٨) وذكر الزمخشرى أن مشركى قريش سألوا اليهود : نحن سقاة الحجاج وعمار المسجد الحرام، أفنحن افضل أم محمد وأصحابه ؟ فقالت اليهود لهم : انهم أفضل ، فنزلت الآيـــة .

وقال الزمخشرى ان الله أنكر على المشركين أن يتساموا الى تشبيه سقايتهم للحجاج وعمارتهم للمسجد الحرام بالايمان بالله واليوم الاخـــر والجهاد فى سبيل الله ، ولهذا جاء ختام الاية نافيا للمساواة التى زعموها ، ومؤكدا للنفى بوصف المشركين بالظلم (الكشاف ١٤٤/٢) .

وهذا يقرر ماذكره القرطبى أن الاية كانت قد نزلت من قبل أن يختلف بعض المسلمين فى المفاضلة بين الجهاد وعمارة المسجد الحرام .

٤ ـ أجـر عـام

وجاء ثواب الجهاد فى بعض الآيات عاما والجزاء شاملا غير معين كقوله تعالى : « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما » [١] •

ففى هذه الآية ثواب كبير لمن يجاهد فى سبيل الله فيستشهد أو يسلم ويعود منتصرا •

وقال تعالى : « ما كان لاهل المدينـة ومن حولهم من الاعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ، ولا يرغبوا بأنفسـهم عن نفسـه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ، ولا يطأون موطئـا يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا ، الا كتب لهم به عمل صالح ، ان الله لا يضيع أجر المحسنين • ولا ينفقون نفقة صغيرة و لا كبيرة ولا يقطعون واديا الا كتب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » [٢] •

هنا معاتبة للمؤمنين من أهل المدينة والقبائل المجاورة لهـا كمزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم على تخلفهم عن رسول الله فى غزوة تبوك؛ لان النبى استنفرهم ، ولم يستنفر غيرهم ، أو استنفر المسلمين جميعـا ولكن هؤلاء خصوا بالاستنكار لقربهم وجوارهم فهم أحق بالجهـاد من غيرهم [٣] •

---

(١) سورة النساء ٧٤ .

(٢) سورة التوبة ١٢٠ ـ ١٢١ لا يرغبوا .... : لا يرضوا لانفسهم بالدعة والخفض ورسول الله فى جهد ومشقة . النصب : التعب . مخمصة: مجاعة . موطئا : ارضا . نيلا : قتلا وهزيمة .

(٣) تفسير القرطبى ٨/٢٩٢ .

وقال تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وان الله لمع المحســـنين » [1] .

فهنا هداية الى طرق الخير والطاعة والرضوان .

وقال سبحانه : « لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، وأولئك لهم الخيرات ، وأولئك هم المفلحون » [2] .

وهنا وعد من الله بأنهم أصحاب خيرات وأصحاب فلاح والاحاديث النبوية فى هذا الجزاء العام كثيرة ، منها :

١ ــ من راح روحة فى سبيل الله كان له بمثل ما أصابه من الغبـــار مسكا يوم القيامة [3] .

٢ ــ أقرب العمل الى الله عز وجل الجهاد فى سبيل الله ، ولا يقاربه شىء [4] .

٣ ــ مثل المجاهد فى سبيل الله ــ والله أعلم بمن يجاهد فى سبيله ــ كمثل الصائم القائم الخاشع الراكع الساجد [5] .

٤ ــ أفضل الاعمال عند الله ايمان لا شك فيه ، وغزو لا غلول فيه ، وحج مبرور [6] .

---

(١) سورة العنكبوت ٦٩ .
(٢) سورة التوبة ٨٨ .
(٣) كنز العمال ٢/٢٥٢ .
(٤) كنز العمال ٢/٢٥٣ .
(٥) كنز العمال ٢/٢٥٧ .
(٦) المسند ١٣/٢٥٢ . لا غلول فيه : لا خيانة .

٥ ــ خرج رسول الله على الناس وهم جلوس فقال : ألا أحدثكم بخير الناس منزلة ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : رجل ممسك برأس فرسه فى سبيل الله حتى يموت أو يقتل •

أفأخبركم بالذى يليه ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ؟ قال : امرؤ يعتزل فى شعب يقيم الصلاة ، ويؤتى الزكاة ، ويعتزل شرور الناس •

أفأخبركم بشر الناس منزلة ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : الذى يسأل بالله ولا يعطى (١) •

٦ ــ قيل يا رسول الله أى الناس أفضل ؟

فقال : مؤمن يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله ، قالوا : ثم من ؟ قال : مؤمن فى شعب من الشعاب يتقى الله ، ويدع الناس من شره (٢) •

وليس الشعب هنا مخصوصا بذاته ، بل انه على سبيل المثال ، والمراد العزلة والانفراد ، فكل مكان يبعد عن الناس فهو داخل فى هذا المعنى كالمساجد والبيوت •

وهذا الحديث مقيد بوقوع الفتنة ، بدليل الحديث الذى رواه مسلم وابن حبان : يأتى على الناس زمان يكون خير الناس فيه منزلة من أخذ بعنان فرسه فى سبيل الله يطلب الموت فى مظانه ، ورجل فى شعب من هذه الشعاب يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويدع الناس الا من خير •

أما عند عدم الفتنة فمذهب الجمهور أن الاختلاط أفضل ، لحديث الترمذى : المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجرا من الذى لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم (٣) •

---

(١) المسند ٣/٣٦٠ .
(٢) فتح المبدى ٢/٢٩٢ .
(٣) فتح المبدى ٢/٢٩٣ .

٧ ــ سئل رسول الله : أى العمل أحب الى الله ؟

فقال : الصلاة على وقتها •

قيل له : ثم أى ؟

قال : بر الوالدين •

قيل له : ثم أى ؟

قال : الجهاد فى سبيل الله [١] •

٨ ــ وفى الصحيحين أن رسول الله سئل : أى الاعمال أفضل ؟

قال : ايمان بالله ورسوله •

قيل : ثم ماذا ؟

قال : ثم جهاد فى سبيله •

قيل : ثم ماذا ؟

قال : ثم حج مبرور •

٩ ــ وفى الصحيحين أن رجلا قال للرسول : يا رسول الله ، دلنى على عمل يعدل الجهاد فى سبيل الله •

قال الرسول : لا تستطيعه أو قال : لا تطيقه •

قال الرجل : أخبرنى به •

قال رسول الله : هل تستطيع اذا خرج المجاهد أن تصوم ولا تفطر، وتقوم ولا تفتر •

قال الرجل : ومن يستطيع ذلك ؟

---

(١) المسند ٥/٣٤١ .

قال رسول الله : فذلك الذى يعدل الجهاد فى سبيل الله •

١٠ ــ لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها [١] •

وحينما نوازن بين مكانة الجهاد وثوابه فى هذه الاحاديث الشريفة نجد أنه فى الحديث الثانى لا يماثله ولا يقاربه شىء ، وأنه فى الحديث الثالث مثل الصيام والقيام ، وأنه فى الحديثين الرابع والثامن بعد الايمان مباشرة وأفضل من الحج ، وأنه فى الحديثين الخامس والسادس خير المنازل ، وأنه فى الحديث السابع بعد الصلاة وبر الوالدين ، وأنه فى الحديث التاسع يعدل الصوم الموصول والصلاة المستمرة منذ خروج المجاهد الى استشهاده أو عودته •

وليس فى شىء من هذا تناقض أو اختلاف فان الغرض هو بيان قيمة الجهاد وآثاره وثوابه ، ومن الطبيعى أن تتفاوت مراتبه ، بحسب السائلين أو المخاطبين ، وبحسب الاحوال والملابسات من حرب وسلام ، وبحسب الغزوات والحروب ، فقد يكون المسلمون قليلا وعدوهم كثيرا ، وقد يكون المسلمون فى حاجة الى مال وعدة وسلاح ، وقد تكون الشقة بعيدة والمصاعب جمة ، كما كان الحال فى غزوة تبوك ، ففى هذه الحالات ونظائرها يعلو قدر الجهاد ويعظم ثوابه •

وفى بعض الاحوال يكون المسلمون أكفاء لاعدائهم عددا وعدة ، أو يكون المسلمون أقوى من أعدائهم وأقدر ، فمن الطبيعى أن يكون الجهاد هنا أقل مرتبة من سابقة وهكذا •

---

(١) فتح المبدى ٢/٢٩٤ •

٥ ــ جزاء الشــــهداء

أولئك الذين يغضبون لدينهم أن يعتدى عليه أعداؤهم ، والذين يثورون لوطنهم أن يغتصبه خصومهم ، والذين يهيجون لعرضهم أن يثلمه غاصب ، والذين يحمــون مالهم من أن يسلبه سالب ، والذين يهبــون للذود عن أرواحهم والدفاع عن حياتهم ، أولئك هم الشهداء الذين عناهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « من قتل دون ما له فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد » (١) .

فما جزاؤهم ؟

لقد وعدهم الله تعالى ــ وقوله الحق ووعده الصدق ــ أن يغفــر لهم ما سلف ، وأن يدخلهم الجنـــة ، قال تعـــالى : « فالذين هاجروا ، وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا فى سبيلى ، وقاتلوا ، وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ، ولادخلنهم جنات تجرى من تحتها الانهار ، ثوابا من عنـــد الله ، والله عنده حسن الثواب » (٢) .

وقال تعالى :

« والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم ، سيهديهم ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم » (٣) .

وأخبر سبحانه وتعالى بأنهم بعد قتلهم أحياء فرحون بثواب الله ، يحيون فى الجنة .

---

(١) كنز العمال ٢/٢٨٢ والمسند ١١/٧٠ و ٤/٢٧٦ .

(٢) سورة آل عمران ١٩٥ .

(٣) سورة محمد ٤ ــ ٦ .

قال تعالى :

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون • فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الا خوف عليهم ولاهم يحزنون •

يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » [1] •

وقال سبحانه :

« ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات ، بل أحياء ولكن لا تشعرون » [2] •

وقد وردت أحاديث كثيرة فى فضل الشهادة وثواب الشهيد ، منها :

١ — روى الترمذى وابن ماجه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : للشهيد عند الله سبع خصال :

يغفر له أول دفعة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الاكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع فى سبعين من أقاربه [3] •

٢ — ما من نفس تموت لها عند الله خير ، يسرها أن ترجع الى الدنيا ، وأن لها الدنيا وما فيها ، الا الشهيد ، فانه يتمنى أن يرجع الى الدنيا ، فيقتل مرة أخرى لما يرى من فضل الشهادة [4] •

---

(١) سورة آل عمران ١٦٩ — ١٧١ لم يلحقوا بهم : لم يدركوا فضلهم.
(٢) سورة البقرة — ١٥٤ .
(٣) تفسير القرطبى ٤/٢٧٥ .
(٤) كنز العمال ٢/٢٥٤ .

٣ـ يغفر للشهيد كل ذنب الا الدين [١] .

٤ ـ الشهداء ثلاثة :

رجل مؤمن جيد الايمان لقى العدو فصدق الله حتى قتل ، فذلك الذى يرفع اليه الناس أعناقهم يوم القيامة .

ورجل مؤمن جيد الايمان لقى العدو فكأنما يضرب جلده بشوك الطلح ، أتاه سهم غرب فقتله ، هو فى الدرجة الثانية .

ورجل مؤمن جيد الايمان خلط عملا صالحا وآخر سيئا ، لقى العدو فصدق الله حتى قتل ، فذلك فى الدرجة الثالثة [٢] .

٥ ـ وفى حديث آخر قوله : والرابع رجل مؤمن أسرف على نفسه اسرافا كثيرا ، لقى العدو ، فصدق الله حتى قتل ، فذلك فى الدرجة الرابعة [٣] .

٦ ـ الشهداء على بارق : نهر بباب الجنة ، فى قبة خضراء ، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا [٤] .

٧ ـ رباط يوم وليلة فى سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه ، وان مات أجرى عليه عمله الذى كان يعمله ، وأجرى عليه رزقه ، وأمن الفتان [٥] .

٨ ـ أمر رسول الله يوم أحد بالشهداء أن ينزع عنهم الحديد والجلود ، وقال : أدفنوهم بدمائهم وثيابهم [٦] .

---

(١) المسند ١٣/١٢ .
(٢) المسند ٢٢١/١ .
(٣) المسند ٢١٩/١ .
(٤) المسند ١٢٤/٤ .
(٥) صحيح مسلم .
(٦) المسند ٤٧/٤ .

٦ ـ جـزاء المرابطين

أما المرابط فى سبيل الله ، ليحمى الثغور والحـدود من هجمات الاعداء فقد صح أن صلاته بخمس مئة ، ودرهمه بسبع مئة •

وان مات فى الثغر الذى يرابط به كان ثوابه عند الله دائما غـير منقطع ، وأمن الفتان [1] ، وبعث شهيدا آمنا من الفزع الأكبر •

قال تعالى : « ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ، ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » [2] •

وقال عليه الصلاة والسلام : من مات فى طريق الحج كتب له حجة مبرورة كل سنة •

وهذا يتحقق فى المرابط الذى مات فى رباطه ، لانه بمنزلة المرابط الى أن تفنى الدنيا فيما يستحق من ثواب دائم ، لان نيته استدامة الرباط لو بقى حيا ، والثواب بحسب النية ، قال عليه الصلاة والسلام : « من قتل مجاهدا أو مات مرابطا فحرم على الارض أن تأكل لحمه ودمه ، ولم يخرج من الدنيـا حتى يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وحتى يرى مقعده من الجنة ، وزوجته من الحور العين ، وحتى يشفع فى سبعين من أهل بيته ، ويجرى له أجر الرباط الى يوم القيامة » •

والظاهر من هـذا الحديث أن المرابط الذى مات فى رباطه حى فى قبره كالشهيد ، وهذا هو معنى اجراء رزقه عليه [3] •

---

(١) الفتان : فتان القبـر •
(٢) سورة النسـاء ١٠٠ •
(٣) ابن عابدين ٣/٢٣٨ •

لهذا كان الرباط فى الثغور أفضل من المجاورة بمكة والمدينة ، وكان العمل بالرمح والقوس فى الثغور أفضل من صلاة التطوع [١] .

قال أبو هريرة : لان أرابط ليلة فى سبيل الله أحب الى من أن أقوم ليلة القدر عند الحجر الأسود [٢] .

ثانيـــا

السعادة النفسية

أولئك الشـــجعان الغير على دينهم وعلى وطنهم وعلى أعراضـــهم وأموالهم وحرياتهم وكرامتهم ، الذين يجاهدون بأنفســـهم وبمالهم ، فينتصرون على أعدائهم ، يجدون فى أعماق نفوسهم سعادة لا تعدلهـــا سعادة ، اذ نهضوا بما افترضه عليهم الله تعالى ، فأدوا للدين حقـــه وعزته ، وصانوا للوطن حياته وكرامته ، وحموا كل ما تجب عليهم حمايته، فعاشوا فى ديارهم مرفوعة رءوسهم ، خفاقة أعلامهم ، أعزة نفوسهم ، مرهوبا ذمارهم ، مطمئنين على حرية بنيهم وكرامة ذراريهم . فان تخلف النصر عنهم مرة لم يستسلموا ، ولم ييأسوا ، بل استأنفوا الجهاد وهم أشد حماسة ، وأقوى عدة ، وأعظم خبرة ، حتى يؤيدهم الله بنصر حاسم مبين .

أما الضعاف الذين يؤثرون الخفض والدعة والسلامة على الجهاد فانهم يستبدلون خبيثا بطيب ، وذلا بعز ، وحـــرية بعبودية ، وفقرا بثراء ، وموتا بحياة ، ثم ينشأ بنوهم فى هذا الهوان ، ويتمـــادى بهم الزمن ، فيحسبون أن حياتهم هى الحياة ، حتى يقيض الله لهم من يوقظهم من الغفلة ، ويقيمهم من الرقاد ، ويصيح فيهم صيحة الجهاد .

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٢/٢٨ ويقول انه فى الامصار البعيدة نظير صلاة التطوع يقصد الامصار التى ليس بها حرب ولا تهديد بحرب .
(٢) المرجع السابق ١٢/٢٨ .

ثالثــا

التكريم الاجتمــاعى

على أن المجاهدين يتبوأون مكانة علية فى مجتمعهم ، لانهم ذادوا عن مقدســاته وعن حرماته ، وجادوا بحياتهم وبمالهم وجهــودهم ، لا يبتغون من أحد جزاء ولا شكورا •

يتبين هــذا منذ فجر الدعوة الى الاسلام ، اذ كان المسلمون قلة ضعيفة لا تقوى على صدام قريش ، فهاجر نفر من هذه القلة الى الحبشة ثم الى المدينة ، ثم هاجر النبى عليه الصلاة والسلام ، فكان التكريم الاول للمهاجرين الذين تركوا وطنهم وثرواتهم أن آخى رسول الله بينهم وبين الانصار ، مؤاخاة فى العقيدة والنفس والمال والوجهة والغــرض والولاء لم يشهد العالم لها مثيلا ، قال تعالى :

« ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا ، أولئك بعضهم أولياء بعض ، والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا ، وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ، والله بمــا تعملون بصير » [١] •

كان المهاجرون والأنصار يتولى بعضهم بعضا فى الميراث ، فهؤلاء وأولئك يتوارثون بالهجرة والنصرة دون ذوى القرابات ، حتى نسخ هذا الحكم بقوله تعالى : « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله »

---

(١) سورة الانفال ٧٢ •

أما المؤمنون الذين لم يهاجروا فلا شأن لهم بالتوارث ، ولكن ان استنصروكم على المشركين فيجب عليكم نصرهم ، الا اذا كان بينكم وبين هؤلاء المشركين عهد ، فانه لا يجوز لكم نقضه لتنصروا اخوانكم [1] .

ثم ان الرجل من المسلمين كان يشرف قدره بالغزوة يشارك فيها ، أو بالسرية يصاحبها ، وكلما كثرت غزواته ازدادت مكانته علاء ورفعة .

ولقد بلغ اعزاز النبى للمجاهدين أنه أوصى القاعدين برعاية نسائهم فى حدب وعفة ، لانهن محرمات عليهم كأمهاتم ، قال صلى الله عليه وسلم :

« حرمة نساء المجاهدين كحرمة أمهاتهم ، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلا من المجاهدين فى أهله فيخونه فيهم الا وقف له يوم القيامة فقيل له : هذا قد خلفك فى أهلك بسوء ، فخذ من حسناته ما شئت ، فيأخذ من عمله ما شاء ، فما ظنكم ؟ ما أرى يدع من حسناته شيئا » [2] .

ولم تزل الأمم كلها تكرم أبطالها ، وترفع أقدار رجالها المجاهدين ، فتحتفى بهم أحياء ، وتباهى بهم أمواتا ، وتخلد ذكراهم بوسائل شتى ، ليتخذ الخلف من السلف قدوته المثلى وعظته الكبرى ؟ .

---

(١) كنز العمال ٢/٢٥٥ .
(٢) كنز العمال ٢/٢٥٥ .



الفصل الثانى عشر

أهـــداف الجهـــاد

بدأت الدعوة الى الاسلام مستظلة بالحكمة والموعظة الحسـنة والسلام ، متذرعة بالرفق واللين والاستمالة والاقناع ، معتمـدة على الصبر واحتمال الأذى والاضطهاد والطرد من الوطن .

ثم تدرجت حتى بلغت مرحلة لم يكن منها بد ، هى مرحلة الجهاد .

مراحل الدعـوة :

١ ــ أمر الله تعـالى رسوله بتبليغ الدعـوة ، والاعراض عن المشركين .

قال تعالى : « فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين » (١) .

٢ ــ ثم أمره بأن يجادل المشركين بالرفق واللين .

قال تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسـنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن » (٢) .

٣ ــ ثم اذن له أن يقاتل من يقاتلونه .

---

(١) سورة الحجر ٩٤ أصدع : أجهر .
(٢) سورة النحل ١٢٥ .

قال تعـــالى : « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير » [1] .

٤ ـــ ثم أمر الله تعالى بالجهاد فى غير الأشهر الحرم .

قال سبحانه : « فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم ، واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد » [2] .

٥ ـــ ثم أمر به فى أى زمان وفى أى مكان ، حيثمــا ألجأت اليه الضرورة .

قال تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين .

واقتلوهم حيث ثقفتمــوهم ، وأخرجوهم من حيث أخــرجوكم ، والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فان قاتلوكم فاقتلوهم ، كذلك جزاء الكافرين ، فان انتهوا فان الله غفـــور رحيم .

وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين .

الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله ، واعلموا ان الله مع المتقين » [3] .

---

(١) سورة الحج ٣٩ .
(٢) سورة التوبة ٥
(٣) سورة البقرة ١٩٠ ـــ ١٩٤ .

قال ابن عابدين : وقد استقر الحكم على هـذا فى جميع الازمان والاماكن سوى الحرم اذا لم يدخلوا فيه للقتال ، فلو دخله المشركون للقتال حل قتالهم فيه [1] •

لماذا شرعه الله ؟

وقد شرع الله تعالى الجهاد لأغراض سامية ، وغايات نبيلة •

(١) حماية الدين

فهو يحمى الوحدانية الخالصة ، والدين الذى ختم الله به الرسالات، والعقيدة الصحيحة من عدوان المعتدين ، ويمكن له من أن يبلغ الاسماع والقلوب ، ويتيح له أن يقبل عليه من يشاء ، وأن يعرض عنه من يشاء •

واذا كانت الحياة تقتضى الأحياء أن يعملوا لها ويحرصوا عليها ، فان العقيدة حياة لابد من رعايتها وصيانتها والجهاد من أجلها ، والا كانت عرضا زائلا لا قيمة له ولا بقاء •

ولقد نرى بعض الناس يدين برأى ينافح عنه ويلاحى دونه ، وهو فكرة يعتريها الصواب والخطأ والصحة والبطلان ، فما بالنا بالدين المنزل من رب العالمين على خاتم النبيين ؟

ان المؤمنين يخطئون اذ يحسبون أن الايمان لا يتطلب منهم الجهاد فى الدفاع عنه وعن نفوسهم ، لأن لدينهم اعداء ، لا بد أن يغضبوا لعقائدهم الباطلة ، وأن يتخوفوا على منافعهم العاجلة والآجلة ، ولا بد أن يحاربوهم ليصرفوهم عن هذا الدين الجديد •

---

(١) ابن عابدين ٢٣٩/٣ .

قال تعالى :

« أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ، ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ، والله خبير بما تعملون[1] » .

أى أنكم لا تتركون على ما أنتم عليه ، بل لا بد من جهاد يتبين فيه المخلصون لله المجاهدون فى سبيله ابتغاء مرضاته ، الذين لم يتخذوا لهم بطانة من أعداء الله وأعداء رسوله وأعداء المسلمين .

وقال سبحانه :

« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا : آمنا ، وهم لا يفتنون .

ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا ، وليعلمن الكاذبين [2] » .

والمعنى هل ظن الذين نطقوا بكلمة الشهادة ، وأظهروا الايمان أنهم لا يمتحنون بضروب من المحن تكشف عن صبرهم وثباتهم وصحة عقائدهم وخلوص نياتهم ، ليتميز المخلص من غير المخلص ، والراسخ فى دينه من المضطرب ، والثابت على عقيدته من العابد على حرف ؟

انهم مخطئون فى هذا الحسبان ، لأنهم لابد أن يتعرضوا للفتنة وللامتحان بالشدائد من مجاهدة الأعداء ، ومفارقة الاوطان وغيرها كما قال تعالى :

---

(١) سورة التوبة ١٦ .

(٢) سورة العنكبوت ٢ ــ ٣ أقسم تعالى بأنه يعلم الصادقين فى ايمانهم والكاذبين فيه ، والمراد بالعلم ما يترتب عليه من جزاء ، لان علم الله كامل شامل يتعلق بالموجود زمان وجوده وقبله وبعده (حاشية ابن المنير الاسكندرى على الكشاف ١٨٣/٣) .

« لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، ومن الذين أَشْرَكُوا أَذى كثيراً ، وأَن تَصْبِرُوا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور[1] » •

ولقد امتحن أتباع الأنبياء قبلكم ، فأصابهم من المحن والفتن نحو ما أصابكم ، ولكنهم صبروا ، كما قال تعالى : « وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين [2] » •

وعن النبى صلى الله عليه وسلم : قد كان من قبلكم يؤخذ فيوضع المنشار على رأسه ، فيفرق فرقتين ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد مادون عظمه من لحم وعصب ، ما يصرفه ذلك عن دينـــــه [3] •

على أن حكمة المولى سبحانه وتعالى اقتضت أن ينهض أتباع الأديان السماوية بالدفاع عنها وبحمايتها من عدوان المشركين ، ولولا هذا لمحا المشركون أماكن العبادة ، ولقضـــوا على اليهودية والمسيحية والاسلام •

قال تعالى :

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا •

ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز •

---

(١) سورة آل عمران ١٨٦ •
(٢) سورة آل عمران ١٤٦ •
(٣) الكشاف ١٨٢/٣ •

الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور[1] »•

فقد كان مشركو مكة يؤذون المسلمين أذى شديدا ، فيأتون الى رسول الله بين مضروب ومشجوج يشكون اليه ، فيقول لهم : اصبروا فانى لم أومر بالقتال ، فلما هاجر نزلت الآية ، وهى أول آية أذن فيها بالقتال بعد أن نهى عنه فى نيف وسبعين آية •

ولولا الجهاد فى الاسلام وما سبقه لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة فى أزمنتهم ، وعلى أماكن عبادتهم فهدموها ، ولم يتركوا للنصارى بيعا ، ولا لرهبانهم صوامع ، ولا لليهود صلوات ، ولا للمسلمين مساجد[2] •

فالجهاد دفاع عن الدين مفروض منذ زمن قديم ، لتسلم الشرائع ولتبقى أماكن العبادة ، فيؤدى فيها المتعبدون شعائرهم [3] •

(٢) قــوة للمؤمنين

الناس منذ كان الناس يتنازعون على الجاه ، ويتهالكون على السلطان ، ويتكالبون على الثراء ، فيعتدى أقوياؤهم على الضعفاء ، ويطغى بعض الأقوياء على بعض •

ومن هنا تنشب الحروب التى يشنها فريق على فريق ، ويدافع فيها عن نفسه فريق •

---

(١) سورة الحج ٤٠ — ٤١ . الصوامع : أماكن عبادة الرهبان . البيع : أماكن عبادة النصارى . الصلوات : أماكن عبادة اليهود . المساجد : أماكن عبادة المسلمين .
(٢) الكشاف ٣/٣٤ .
(٣) تفسير القرطبى ١٢/٧٠ .

فلم يكن بد من جهاد ينتصر به الحق على الباطل ، والخير على الشر ، وتتحقق به حماية العقيدة ، واعزاز الدين ، وصيانة الوطن ، والمحافظة على الحياة والعرض والمال • وبهذا الجهاد يعز المسلمون ، وتقوى دولتهم ، وتسلم من العدوان ديارهم ، وتنمو فى نفوسهم فضائل شتى ، كالشجاعة والصبر والتعاون والغيرة والاتحاد • ولا شك أن الحياة عزيزة ، وأن القتال الذى يعرضها للزوال بغيض الى الناس ، ولكن الله سبحانه فرض الجهاد وقتال الاعداء من الكفار ، على ما فيه من مخاطر تعرض للجراح ولازهاق الأرواح ، وعلى ما فيه من مشقات وبذل للاموال ومفارقة للأهل والوطن ، لان الجهاد يعقب خيرات اذ ينتصر المسلمون ويظفرون ، ويغنمون ، ويعزون دينهم ، وينالون ثواب الله على جهادهم ، ويعيشون بجهادهم أحرارا فى ديارهم ، ويستمتعون بخيراتها ، ويسعد بأجر الشهادة من ماتوا منهم شهداء •

فاذا ما آثروا الدعة ، وتحاموا القتال ، كان هذا شرا لهم ، لان أعداءهم يسيطرون عليهم ، ويعيثون فى وطنهم فسادا ، ويسومونهم عذابا ، ويعتدون على عقائدهم ، ويتطاولون على دينهم ، ويستأثرون بخيرات بلادهم •

قال تعالى :

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (١) •

وجاء ختام الآية الكريمة مؤكدا للخير المتوقع من الجهاد ، وللشر المتوقع من التقاعد عن الجهاد ، اذ أن الله تعالى هو الذى يعلم ما يعقب الجهاد من خير ، وما يعقب التقاعد من شر •

---

(١) سورة البقرة ٢١٦ •

وقد علق القرطبى على تفسيره لهذه الآية بقوله : « وهذا صحيح لا غبار عليه كما اتفق فى بلاد الاندلس ، تركوا الجهاد ، وجبنوا عن القتال ، وأكثروا من الفرار ، فاستولى العدو على البلاد ، وأسر وقتل وسبى واسترق » [1] .

وليس من شك فى أن الله القوى قدير على محق الكفار ، ولكنه فرض الجهاد لينهض أصحاب الدين الصحيح بالدفاع عنه ، وليعزوا أنفسهم بعزته ، وليتميز الطيب من الخبيث ، والشجاع من الجبان ، والمخلص من المنافق ، والكريم من الشحيح ، وفى هذا التمييز تمحيص للمجتمع الاسلامى ، وبناء لصرحه على أقوى الدعائم وأرسخها وأبقاها .

قال تعالى :

« وتلك الايام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين » [2] .

وقال سبحانه :

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين [3] » .

وقال تعالى :

« ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ، ونبلو أخباركم » [4] .

---

(١) تفسير القرطبى ٣٩/٣ .
(٢) سورة آل عمران ١٤٠ .
(٣) سورة آل عمران ١٤٢ .
(٤) سورة محمد ٣١ .

وليس المراد أن علم الله تعالى موقوف على هذا الاختبار ، فان علمه أزلى أبدى محيط ، بل المراد أن الاختبار ينجلى عن جهاد يستحق الثواب ، أو عن جبن أو نفاق يقتضى العقاب ، وهذا كله موافق لعلم الله .

(٣) نجـدة للمستضعفين

لا يقتصر الجهاد على الدفاع عن العقيدة فى مركزها أو فى حصنها، بل انه يتجاوز هذا الحصن الى حماية المسلمين من اضطهاد المشركين لهم ، أو اكراههم على ترك دينهم . فهو اذا حماية لحرية العقيدة ، ووقاية للمسلمين ، وصيانة لشعائرهم ومساجدهم ، فى أى بلد يعيشون فيـه .

واذ كان الجهاد فى سبيل الله لتمكين التوحيد ولحماية العقيدة واعزاز الموحدين واقرار الحق والخير والعدل ، واذ كان المسلمون اخوة يتعاطفون فى السراء والضراء ، ويتعاونون على دفع ما ينزل بهم من بلاء ، وجب على المسلمين أن يسارعوا الى تخليص اخوانهم الضعفاء من أغلال الاضطهاد وأصفاد الاستعباد والحجر على حرية العقيدة والعبادة .

ولقد حضهم الله تعالى على الجهاد ، وحببه اليهم بأنه جهاد فى سبيله ، وبأنه وليهم وناصرهم ، على حين أن أعداءهم وأعداء اخوتهم المستضعفين يقاتلون طاعة للشيطان ، وليس لهم ولى غيره ، وان كيد الشيطان للمؤمنين اذا قيس الى كيد الله للكافرين هباء .

قال تعـالى :

وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلهـا ،

واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا • الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان ، ان كيد الشيطان كان ضعيفا » [1] •

فهل يعقل المسلمون اليوم ما يقتضيه هذا الامر الالهى العظيم ؟

أليست أحوال اخوتهم فى فلسطين أشبه شىء بحال المستضعفين الذين كانوا فى مكة ؟

ألم يجاهد النبى والمسلمون ليحرروا ضعفاء المسلمين من مظالم قريش ؟

---

(١) سورة النساء ٧٥ — ٧٦ .

المستضعفون هم الذين أسلموا بمكة وصدهم المشركون عن الهجرة، فبقوا بين أظهرهم مستذلين يلقون منهم الاذى الشديد ، وكانوا يدعون الله بالخلاص ويستنصرونه ، فيسر الله لبعضهم الخروج الى المدينة ، وبقى بعضهم الى الفتح ، حتى جعل الله لهم من لدنه خير ولى وناصر وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، فتولاهم أحسن التولى ،ونصرهم أقوى النصر ، ولما خرج استعمل على أهل مكة عتاب بن أسيد ، فرأوا منه الولاية والنصرة كما أرادوا ، قال ابن عباس : كان ينصر الضعيف من القوى ، حتى كانوا أعزبها من الظلمة .

وقد ذكر الولدان تسجيلا لافراط ظلم المشركين ، حيث بلغ أذاهم الولدان غير المكلفين ارغاما لابائهم وأمهاتهم ، وبغضا لهم ، ولأن المستضعفين كانوا يشركون صبيانهم فى دعائهم ، استنزالا لرحمة الله بدعاء صغارهم الذين لم يذنبوا ، كما فعل قوم يونس ، وكما وردت السنة باخراجهم فى الاستسقاء .

(الكشاف ١/٢٨١) .

قال ابن المنير الاسكندرى : وقفت على نكتة حسنة فى هذه الاية ، وهى أن كل قرية ذكرت فى الكتاب العزيز فالظلم اليها ينسب بطريق المجاز ، كقوله تعالى : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة » الى قوله « فكفرت بأنعم الله » وقوله : « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها » وأما هذه القرية فى سورة النساء فينسب الظلم الى أهلها على الحقيقة ، لان المراد بها مكة ، فوقرت عن نسبة الظلم اليها تشريفا لها (الكشاف ١/٢٨١) .

لقد لبى المسلمون نداء اخوتهم المستضعفين ، فكان الله ظهيرهم ونصيرهم ، وهو سبحانه وتعالى لن يتخلى عن نصرتنا اذا ما سارعنا الى نجدة هؤلاء الاخوة الذين نكل بهم اليهود تنكيلا ، ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز ٠

(٤) التمكين للتوحيد

أشرق الاسلام وفى الناس أديان شتى ، فمنهم اليهود ، ومنهم النصارى ، وهؤلاء وأولئك أهل كتاب ٠

ومنهم المشركون بالله الذين يعبدون النار أو الاصنام أو الكواكب والنجوم كالفرس وبعض العرب ٠

وكانت الدعوة تشق طريقها الى هؤلاء جميعا فى ايمان بها ويقين ٠

لكنها كفلت حرية العقيدة للذين يدينون بدين سماوى ، فلهم أن يبقوا على نصرانيتهم أو يهوديتهم اذا ما قامت حرب بينهم وبين المسلمين ، وانتصر المسلمون عليهم ، ولا يكلفهم الاسلام غير قدر يسير من المال هو الجزية ، يؤدونه للمسلمين لقاء حمايتهم لهم ، واعفائهم من الجندية والدفاع عن الوطن ٠

ولمن شاء منهم الاسلام أن يسلم ، وله ما للمسلمين من حقوق ، وعليه ما عليهم من واجبات ٠

أما المشركون الذين حاربوا المسلمين ، وانتصر عليهم المسلمون ، فان الاسلام لم يقرهم على شركهم كما أقر أهل الكتاب على دينهم ، لان الشرك ليس من الاديان السماوية ، وليس قائما على عبادة الخالق وتوحيده والعمل لما فيه خير الناس أفرادا وجماعات ، بل هو

انحدار بالانسان الى درك من المهانة والضعة ، وتعطيل للعقل الذى كرم الله به بنى آدم •

ومن أضل من انسان يعبد نجما خلقه الله ، أو حيوانا أعجم لا يعى ولا يعقل ، أو صنما صنعه هو بيديه ؟

لهذا كان الخير للمشركين أن يعتنقوا الاسـلام ، لينتشلهم من الوهدة التى ترددوا فيها ، وليطهر نفوسهم من الادران التى لصقت بها ، وليستحقوا أن يكونوا اخوة للمسلمين الذين يوحدون الله ويعبدونه ويؤمنون بملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر ، ويعملون بما يقتضيه هذا الايمان من خير نافع لهم وللناس •

(٥) اقامة المجتمع الفاضل

وانه ليسترعى الانتباه أن أول اذن للمسلمين بقتال أعدائهم جاء مقرونا بأنه دفاع من المظلومين عن أرواحهم ودينهم وحريتهم ، لان المشركين نقموا منهم أنهم مؤمنون بالله ، فآذوهم واضطهدوهم وعذبوهم وطردوهم من وطنهم ، ووعد الله المسلمين المدافعين بأن ينصرهم وانه لقدير على نصرهم •

ثم اقترن بهذا الاذن أن الغاية من القتال ليست الطغيان والاستعلاء والاستئثار بخيرات الارض ، بل هى فسح المجال لتوحيد الله وعبادته، واقامة الصلاة ، وايتاء الزكاة ، والامر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، واقرار الحق والعدل والخير ، وتكوين المجتمع السامى الفاضل •

قال تعالى :

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير • الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا

دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز .

الذين ان مكناهم فى الارض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الامور [١] » .

والاحاديث النبوية التى تكشف عن الغاية النبيلة من الجهـــاد كثيرة ، منها قوله صلى الله عليه وسلم :

١ — ما من غازية تغزو فى سبيل الله ، فيصيبون غنيمة الا تعجلوا ثلثى أجرهم من الاخرة ، ويبقى لهم الثلث ، فان لم يصيبوا غنيمـــة تم لهم أجرهم [٢] .

٢ — سئل رسول الله عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، أى ذلك فى سبيل الله ؟

فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ، فهو فى سبيل الله [٣].

فريتـــــان

كثيرة تلك التهم الباطلة التى يختلقها أعداء الحقيقة وخصـــوم الاسلام .

---

(١) سورة الحج ٣٩ — ٤١ اذن للذين يقاتلون : المراد النبى وأصحابه اذ أخرجوا من مكة الى المدينة . الذين الثانية بدل من الذين الاولى والذين الثالثة كذلك (تفسير الطبرى ١٢٢/١٧) .
(٢) المسند ١١٣/١٠ .
(٣) تيسير الوصول ٢٣١/١ .

وسهل على الدارس المنصف سواء أكان مسلما أم غير مسلم أن يدفع كل تهمة بما يمحقها ، وأن يصوب الى أية فرية ما يسحقها •

ومن هذه التهم تهمتان تتصلان بأهداف الجهاد •

(١) هل الجهاد حرب استعمارية ؟

زعم بعض خصوم الاسلام أن الجهاد حرب استعمارية كتلك الحروب التى اصطلى العالم بها فى القديم والحديث •

والحق أن الخلط بين الجهاد والحروب الاستعمارية خطل فى الرأى ، وجور فى الحكم ، ومجافاة للحق ، وتجن على الاسلام •

وذلك أن الجهاد دفاع عن الدعوة ، وحماية لاتباعها ، وتمكين لذيوعها ، وقضاء على الشرك ، ومؤازرة لحرية العقيدة الصحيحة والفكر السليم ، فى غير ما اجبار لاهل الكتاب على اعتناق الاسلام بالقهر والاقتدار [1] ، وفى غير ما ادلال بالقوة ، وزهو بالسلطان ، وطمع فى السيطرة ، وشره الى توسيع الرقعة ، واستئثار بخيرات الناس •

---

(١) أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى والمجوس ـ اذا أعطوا الجزية اقروا على دينهم ، ولكن الكفا رلا يقبل منهم الا الاسلام أو السيف ، الرجال والنساء فى ذلك سواء .

وفى رأى ابى حنيفة ومالك أن الكفار من العرب خاصة هم الذين لا يقبل منهم الا الاسلام أو السيف ، أما غير العرب فالكتابى وغيره سواء ، يقرون جميعا على الجزية .

وعلق ابن حزم على رأى أبى حنيفة ومالك بقوله :

هذا باطل ، لقوله تعالى : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ، فان تابوا وأقاموا الصلاة وأتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ولقوله سبحانه : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ، ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون » فلم يخص تعالى عربيا من عجمى فى كلا الحكمين .

وصح أنه عليه الصلاة والسلام أخذ الجزية من مجوس هجر ، فصح انهم من أهل الكتاب ، ولولا ذلك ما خالف رسول الله كتاب ربه تعالى (المحلى لابن حزم ٣٤٥/٧) .

أما الحروب الاستعمارية فانها انطلاق الى التوسع ، وتطلع الى الاحتكار والسلب والاستيلاء على خيرات البلاد المفتوحة ، والقبض على ينابيع ثروتها •

وهذه الحروب لا تنفك عن الاثرة والتعالى واهمال الاهلين وأصحاب البلاد الاصلاء ، وليست لها غاية نبيلة تسوغ ما تقترفه من جرائم وآثام •

(٢) هل انتشر الاسلام بالسيف ؟

كذلك دأب بعض خصوم الاسلام على ترديد الزعم بأنه شق طريقه بالقوة ، وانتشر بحد السيف ، واستقر فى البلاد المفتوحة بالقهر والاجبار •

وأغلب الظن أن هذا الزعم وليد العصر الحديث ، اذ كان من الاسلحة التى هاجم بها الاستعمار العالم العربى والاسلامى ، ليزلزل عقيدته ، ويقوض حصنه الذى عز على الخطوب ، وقهر القوى التى تألبت عليه فى شتى الاعصار •

وقد سبق أنه لا ضير على الاسلام فى أن يضطر المشركين الى اعتناقه ، لانهم ليسوا أصحاب كتاب ، ولانهم أتباع ضلالة وشرور وعناد توشك أن تعصف بهم ، فلا تثريب على الاسلام فى أن يحملهم على مافيه خيرهم ورقيهم ورشادهم ، لانه كالمربى الحازم المخلص لا مندوحة له عن التوسل بالقوة اذا وجد ممن يربيهم اصرارا على المعصية ، وتماديا فى الغواية •

أما أهل الكتاب من يهود ونصارى ومجوس فانهم هم الذين بدأوا الاسلام بالحرب والعدوان ، فاضطر الى محاربتهم ، ولكنه بعد أن انتصر عليهم صالحهم وحاسنهم وأقرهم على أديانهم •

وهذا هو الحق الذى يثبته تفهم القرآن الكريم والسنة النبوية ، وتتبع الفتوح الاسلامية ، والكشف عن بواعث الغزوات والحروب التى نشبت بين المسلمين وغيرهم (١) •

وجدير بالدارس المنصف ألا ينسى أن المسلمين لم يحاربوا الحبشة على قربها من ديارهم ، وعلى مالهم من خبرة بها وبأحوالها ، وهى اذا ما قيست بفارس والروم أضعف قوة وأيسر منالا •

فلماذا لم يحاربها المسلمون ؟

ليس لهذا الا جواب واحد ، هو أنها لم تحاربهم ، ولم تعد عدتها للقضاء عليهم كما فعلت قريش والفرس والروم ، بل انها كفلت حرية العقيدة للمهاجرين الاولين الذين فروا اليهم بدينهم ، ولم يعرف فى تاريخها أنها عوقت الدعوة الى الاسلام ، أو نكلت بالدعاة اليه ، أو اضطهدت المسلمين كما فعل الفرس والروم •

فلو أن الحرب الاسلامية كانت للسيطرة والاستعمار والنهم الى الفتح لكانت الحبشة أول بلد حاربه المسلمون •

وعلى خصوم الاسلام أن يوازنوا بين سمو مقاصده وسماحته فى معاملة المغلوبين ورفقه بهم ، وبين ما يعرفون ونعرف من قسوة اليهود والنصارى وغيرهم فى التنكيل بأعدائهم ، والتضييق عليهم فى كل مسلك من مسالك الحياة •

---

(١) تجد تفصيل هذا فى (سماحة الاسلام) ١٣٠ — ١٦٨ للمؤلف .

ولقد رد شوقى على هذه التهمة ردودا أبطلتها ، فان القائلين بها اما جهلة بحقيقة الغزوات النبوية وبواعثها ، واما عالمون لكنهم يخفون الحق ، ويجادلون بالباطل •

وذلك أن النبى عليه الصلاة والسلام اضطر الى أن يشهر سيفه بعد أن أعيته وسائل السلم والاستمالة والاقناع ، وبعد أن صبر صبرا طويلا جميلا على تكذيبه ومعارضته ، وبعد أن ناء بما يحمل من اضطهاد وعدوان عليه وعلى أتباعه ، ثم انتهى الحقد بقريش أن دبرت مكيدة لاغتياله ، فاضطر الى أن يهاجر من مكة الى المدينة ، وحينئذ لم تقنع قريش ، بل جعلت تطارده ، وتجمع أمرها للقضاء عليه فى وطنه الجديد، فاضطر الى أن يحمل سيفه ليحمى نفسه ويحمى أتباعه ، ويكفل الحياة لدينه ، فهو مدافع لا مهاجم ، وهو داعية الى السلام ما وسعته الدعوة الى السلام ، وهو فى أشد مأزق حرجا ، وفى أوسع ميادينه فرجا ، مؤثر للسلام على الحرب •

وهو فى حروبه انسان كامل لا يمثل ولا ينكل ولا يخرب ما لم تلجئه ضرورة حربية ، ثم هو بعد انتصاره الانسان الكامل السريع الى العفو الرحيم بالمغلوبين •

واذا فقد تكفل سيف النبى بالاعداء المصرين على محـــاربته ، ومن طبيعة الشر ألا ينجح فى لقائه خير ، وانما يحسمه الشر ، ويقى الناس جرائره •

وقد لجأ شوقى الى التاريخ يستمد منه البرهان على أن الشر من شأنه أن يتعاصى ويتمرد على الخير ، فقال ان المسيحية تعرف مقدار ما عانت من تشريد وتقتيل وتحريق ، يريد بهذا أنها حوربت ثلاثة مئة سنة الى أن تنصر قسطنطين (٣٠٦ ــ ٣٣٧ م) فحماها ، فاستقرت

وانتشرت ، لكنها لم تستقر ولم تنتشر الا بقوة ملوكها ، فكم من ملك أو أمير أذاع المسيحية أو نشر الكاثوليكية بسيفه مثل شارلمان وملوك فرنسا وقياصرة بيزنطة وروسيا وملوك المجر وغيرهم •

لهذا يعلم أتباع المسيحية أنفسهم أنهم طالما شربوا كئوس الظلم دهاقا من أيدى حكام طغاة •

فلما هب لحمايتها وحمايتهم ملوك أقوياء نكلوا بالوثنية ، وطاردوا أتباعها أمنت المسيحية ، ولولا هذه الحماية القوية ما نفع المسيحية اعتمادها على الرحمة والرفق والاستسلام •

ثم ختم شوقى دفاعه ببرهان آخر من حياة السيد المسيح نفسه، فقال ان أعداءه قبضوا عليه ، لانهم أقوياء وهو ضعيف ، وهموا بصلبه، ولولا فضل من الله عليه لسمروا جسده الشريف على لوحين من خشب فى غير ما خشية ولا تردد ، لكن الله نجاه من أيديهم ، قال تعالى : « وما قتلوه ، وما صلبوه ، ولكن شبه لهم ، وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، ما لهم به من علم الا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزا حكيما » (١) •

ثم عاد شوقى الى الحرب فقال ان النبى علم المسلمين كل شىء ، حتى قوانين الحرب وما تقتضيه من ذمم ، وعلمهم كيف يجاهدون لحماية دينهم ووطنهم •

والحرب مادامت لحماية الدين والوطن أساس فى النظام البشرى القائم على الصراع ، ولولاها ما قامت دول باذخة الحضارة ، واندثرت

---

(١) سورة النساء ١٥٧ — ١٥٨ •

دول أنهكها الترف والضعف ، ولولاها ما اندكت عروش وتألقت عروش.
قال شــوقى :

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا ... لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهــل وتضليــل أحلام وسفسطة ... فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لمــا أتى لك عفوا كل ذى حسب ... تكفل السيف بالجهـــال والقمم
والشر ان تلقه بالخير ضقت به ... ذرعا وان تلقه بالشر ينحســم
سل المسيحيــة الغراء كم شربت ... بالصاب من شهوات الظالم الغلم
طريدة الشرك يؤذيها ويوسعهــا ... فى كل حين قتالا ساطع الحــدم
لولا حماة لها هبوا لنصرتهـــا ... بالسيف ما انتفعت بالرفق والرحم
لولا مكان لعيسى عنــد مرســله ... وحرمة وجبت للروح فى القــدم
لسمر البدن الطهر الشريف على ... لوحين لم يخش مؤذيه ولم يجم

ثم يخاطب النبى صلى الله عليه وسلم بقوله :

علمتهــم كل شىء يجهـــلون به ... حتى القتــال وما فيــه من الذمم
دعوتهم لجهــاد فيــه سؤددهم ... والحرب أس نظام الكون والامم
لولاه لم نر للــدولات فى زمــن ... ما طال من عمد أو قر من دعم[1]

وقد عاد شوقى الى تفنيد هذا الاتهام مرات [2] .

---

(١) الشوقيات ٢٤٢/١ .
العمم : العامة . الصاب : جمع صابة وهى شجرة مرة . القلم : الهائج الثائر . الحدم : شدةاحتراق النار . الرحم : الرحمة والرقة . لم يجم : لم يفزع . دعم : جمع دعامة وهى عماد البيت .
(٢) الاسلام فى شعر شوقى ٨٩ـ٩٢ .



الفصل الثالث عشر

رفـــق وســـمـاحـــة

من طبيعة الحروب فى أى عصر وفى أى مصر أن يصحبها تقتيل وتدمير ومعاطب شتى •

ولقد تدارك الاسلام هذه الشرور ، فشرع للحرب أحكاما ، ليخفف من ويلاتها ما استطاع الى التخفيف سبيلا •

وهذه الاحكام خير ما عرف العالم فى قديمه وفى حديثه من قوانين الرفق والسماحة بالناس •

واذا كان القانون الدولى الحديث يتفق وكثيرا من هذه الاحكام ، فانها تمتاز بأنها أسبق وأقدم ، وتمتاز بأنها أحكم وأقوم ، لانها نابعة من الدين ولها من الجلال والطاعة والرهبة ما للدين ولأحكامه ، على حين أن القانون الدولى ليس له من السلطان الروحى مالها ، وليست وراءه قوة نفسية تحض على تنفيذه ، وتخوف من عصيانه •

ونستطيع أن نتبين بعض مظاهر الرفق والسماحة من أهـداف الجهاد وغاياته التى سبقت •

وهذه ألوان أخرى نجدها فى بواعث الحرب ، وفى سير الحرب ، وفى النتائج التى تعقب النصر •

(١)

فى بواعثها

يتبين من دراسة الغزوات النبوية والحروب الاسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين وبعض الحروب فى العهود التالية أن جهاد المسلمين كان استجابة لضرورة لا مناص من الاستجابة لها ، لحماية مجتمعهم الصغير فى المدينة ، ثم لحماية دولتهم الناشئة فى الجزيرة ، ولصيانة عقيدتهم من الذين يعقدون عليها وعليهم .

١ ــ فقد كانت قريش وحلفاؤها من العرب واليهود والنصارى يبذلون دماءهم وأموالهم لاطفاء نور الاسلام والقضاء على المسلمين.

وماذا كان النبى يستطيع أن يفعل حيال عدوان قريش وتدبيرها بعد أن صبر حتى أعياه الصبر ؟

أيستكين لها فتقضى عليه وعلى الاسلام ؟

ايغض عن اتباعه الذين يعذبون فى مكة جزاء لهم على أن اشتروا الهدى بالضلال والتوحيد بالشرك ؟

أيعيش بدعوته فى برج مشيد ، فلا يذيعها فى الناس ، وقد أمره ربه أن يصدع بها ، ليهدى الناس الى الحق والخير والحرية والعدل والاخاء والمساواة والفضائل كلها ؟

انه مضطر الى أن يلقى القوة بالقوة بعد أن صبر طويلا ، وبعد أن صفح كثيرا .

وعلى هدى الرسول عليه الصلاة والسلام سار خلفاؤه من بعده.

٢ ــ أما اليهود فانهم كانوا قد ارتحلوا الى الحجاز فرارا من العسف المتكرر الذى حاق بهم من أباطرة الروم ، وأقاموا بيثرب وخيبر وفدك وتيماء ووادى القرى •

فلما هاجر الرسول الى المدينة واتخذها مقرا له ولمن هاجــروا معه ، صارت عاصمة للاسلام ، وحصنا من حصونه ، فضاق اليهــود بالدين الجديد الذى يبطل دينهم ، ويهدد مكانتهم الاقتصادية بالحجاز، فسارعوا الى حربه والكيد له ما وسعهم الجهد ، وحرضوا قريشــــا وغيرها على الاسلام وعلى المسلمين ، وحاول النبى أن يسالمهم ، فخانوه مرات [١] •

فماذا يصنع النبى بهم ؟

أليس مضطرا الى محاربتهم ؟

ألم يتحقق مرات من أنهم أعداؤه الذين لا عهد لهم ؟

ألم يتكشف له شرهم بتأليبهم العرب عليه ؟

٣ ــ وأما النصارى فقد كانوا أكثر من اليهود فى جزيرة العرب، اذ دان بالنصرانية كثير من القبائل العربية فى أطراف الجزيرة وفى قلبها•

ولم يكن غريبا أن يبذلوا جهودهم فى تعويق الاسلام وفى القضاء عليه كما فعل اليهود ، لانه يبطل دينهم ، ويدعو الى اعتناق دين جديد مبرأ مما أصاب المسيحية الاصيلة من بلبلة واضطراب وفساد ، وينشىء مجتمعا جديدا يدين بنظم سامية تقضى على النظم الفاســدة التى اصطنعوهــا •

---

(١) راجع سماحة الاسلام ١٤٨ ــ ١٥٤ والكامل لابن الاثير ٢/ ٦١، ٦٥ وسيرة ابن هشام ٣ ، ٤ •

ولقد صدق الله تعالى فى قوله : « ولن ترضى عنك اليهـود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، قل ان هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير » [1]

وفى قوله : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا ، حسدا من عند أنفسهم ، من بعد ما تبين لهم الحق ، فأعفـوا وأصفحوا حتى يأتى الله بأمره ، ان الله على كل شىء قدير » [2] .

ولم يكن هناك أمل فى كفهم عن الفتن والعناد والمقاومة ، أو فى استجابتهم للحق ، قال تعالى :

« ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ، وما أنت بتابع قبلتهم ، وما بعضهم بتابع قبلة بعض ، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انك اذا لمن الظالمين [3] » .

وهم جميعا يتخذون الحرب وسيلة لاطفاء نور الاسلام ، قال تعالى :

« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعو [4] » وقال سبحانه :

« يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله الا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون » [5] .

---

(١) سورة البقرة ١٢٠
(٢) سورة البقرة ١٠٩
(٣) سورة البقرة ١٤٥
(٤) سورة البقرة ٢١٧ .
(٥) سورة التوبة ٣٢ .

وقد كان الغساسنة ــ وهم عرب ــ ملوك الشام يمثلون النصرانية فى الشرق ، منذ عين الامبراطور جستنيان الحارث بن جبلة (حوالى ٥٢٩ ــ ٥٦٩ م) أميرا على جميع القبائل العربية فى الشام ، ومنحه لقب فيلارك ــ أمير ــ ثم منحه لقب بطريق ، وهو لقب الاشراف ، وأرفع لقب فى الدولة بعد الامبراطور .

وكان الحارث نصرانيا يعقوبيا حاميا للكنيسة الشرقية .

فلما توفى (٥٦٩ م) خلفه ابنه المنذر ، وأعان الروم فى مواقع كثيرة ، وشخص سنة ٥٨٠ م الى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، فاحتفى به القيصر طيباروس ، وألبسه التاج .

فمن الطبيعى اذا أن يناوىء الغساسنة الاسلام والدعوة الى الاسلام ، لا لأنه يغاير عقيدتهم فحسب ، بل لأنه يقضى على سلطانهم السياسى ونفوذهم الدينى .

وطبيعى أيضا أن تحارب الدولة البيزنطية الاسلام ، لانه يقوض قوتها الاستبدادية ، ويقضى على ما كسبه رجال السياسة والدين من سلطان ونفوذ وأموال .

ولهذا تكرر عدوانهم على الاسلام والمسلمين ، فسار النبى بجيشه الى تبوك ، ثم بعث جيشا بقيادة زيد بن حارثة الى الشام ، ثم أمر بتجهيز جيش بقيادة أسامة بن زيد ، لكنه لحق بالرفيق الاعلى قبل أن يغادر الجيش المدينة ، فأنفذه أبو بكر [١] .

---

(١) سماحة الاسلام ١٥٥ ــ ١٦٠ والكامل لابن الأثير ١٠٦/٢ ، ١١٤ وتاريخ الطبرى ١٤٢/٣ ، ١٨٩ وسيرة ابن هشام ٢٦٠/٤

٤ ــ وأما الفرس فقد كانوا مجوسا يعبدون النار والشمس ، وكان الحكام قد أرغموا الشعب ارغاما على أن يعتنق دين زرادشت ، فصار لكهنتها نفوذ عظيم فى شئون السياسة والملك ، وجعلوا يضطهدون الفرق المخالفة من يهود ونصارى وصائبة وبوذيين وماتويين •

وكان للفرس نفوذ سياسى ببلاد العرب ، وبخاصة فى الحيرة ، فلا غرابة فى أن ينقم كسرى من النبى أنه أرسل اليه كتابا يدعوه فيه الى الاسلام ، وأنه هاج ومزق الكتاب ، وأرسل الى عامله على اليمن يأمره بأن يرسل رجلين قويين من عنده ليأتياه بمحمد ، فذهبا الى النبى وقابلاه ، ثم رجعا [1] • وذلك أن كسرى يتعالى على أن يرشده العرب ويعلموه فى الوقت الذى يبسط فيه سيادته على عرب الحيرة والبحرين واليمن ، ثم أنه يخشى من الدين الجديد على حياته وعلى سلطانه وعلى حكمه المطلق ، ويتخوف من أتباع الدين الجديد أن ينضموا الى الروم خصوم الفرس فيزيدوهم قوة ، وينصروهم فى الصراع السياسى والتجارى القائم بين الفرس والروم •

وقد حدث ما لم يكن منه بد ، اذ اعتدى عرب الحيرة التابعون للفرس على المسلمين المجاورين لهم ، فأرسل أبو بكر خالد بن الوليد ليكف أذاهم ، ويؤمن جيرانهم المسلمين ، وسرعان ما انتصر عليهم ، فحنق ملك الفرس ، وثار لاتباعه ، فكانت الحرب بينه وبين المسلمين فى عهد عمر •

٥ ــ كذلك كانت حرب أبى بكر للمرتدين ضرورة لا محيد عنها ، فانه لم يكد رسول الله يلحق بالرفيق الاعلى ويتولى أبو بكر ، ويبعث جيش أسامة بن زيد الى الشام ، حتى ارتد كثير من العرب الا قريشا وثقيفا ، وقويت دعوة المتنبئين مسيلمة وطليحة وسجاح •

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢/٨١

فلجأ أبو بكر الى الحسنى فى تهدئة المرتدين ، وبعث اليهم رسله وكتبه ، فكان رد بعضهم كعبس وذبيان وبنى كنانة وأسد أن عاجلوه بالهجوم ، وأعلنوا رفضهم للزكاة ، فأقسم أبو بكر ليحـاربنهم حتى يؤدوها كاملة كما أدوها لرسول الله .

حينئذ هجم بعض المرتدين على المدينة ليلا ، فردهم المسلمون ، وهزموهم . فماذا يصنع رئيس الدولة اذا ما خرج على الدولة بعض بنيها يريدون لأنفسهم شهرة وزعامة ومنافع عاجلة ، ويعودون بالناس الذين أنعم الله عليهم بالوحدة والقوة والتوحيد الى ما كانوا عليـه أيام الجاهلية من فرقة وتنافر وتقاتل وشرك .

ماذا يفعل خليفة رسول الله وقد نجم قرن الشيطـان والكفر والوثنية على رءوس الذين ادعوا النبوة ، وانضمت اليهم جموع شتى متأثرة بالضلالة والعصبية والسخط على الاسلام لانه حظر عليهـم المنكرات والمفاسد والاخلاق الذميمة والعادات القبيحة ، وجعل فى أموالهم حقا معلوما للسائل والمحروم ؟

لم يكن أمام أبى بكر الا السّلاح ، يستعيد به الوحدة ، ويَرْأب به الصدع ، ويسترجع الى الاسلام أولئك العصاة المـارقين ، ويحمى به المسلمين من أن يهلكهم المرتدون .

كان الواجب على أبى بكر أن يقـاتل من يصر على ارتداده عن الاسلام ، لا لأنه نكث بالعقيدة الصحيحة بعد أن دان بها فحسب ، بل ولأنه خارج على الدولة ، متمرد على نظامها ، هدام لصرح الوحدة الذى بناه الاسلام بعد فرقة وشتات .

وفى ذلك يقول نيكلسون : « ان أخوف ما كان يخافه أبو بكر من المرتدين أن ينقلبوا عيونا على الدولة الاسلامية ، ويصبحوا شرا مستطيرا

يهدد كيانها ، وليس فى ذلك غرابة ، لان السياسة والدين عند المسلمين متلازمان » [1] •

ولم يلجأ أبو بكر الى السلاح الا بعـد أن أعذر الى المرتدين بكتبه ورسائله ، والا بعد أن أغاروا على المدينة ، وتجمعوا فى أماكن شتى ليزحفوا زحفا عاما على المدينة •

وكان قواد جيوشه فى محاربة المرتدين رسل سلام ، ودعوة الى الاسلام ، قبل أن يبدأوا القتال ، فمن سالمهم سالموه ، ومن أصر على الردة والخروج على الاسلام وصدع الوحدة قاتلوه •

واذا أراد بعض الناس أن يتخذ من محاربة المرتدين دليلا على أن أبا بكر أجبرهم على الاسلام ، فأولى له أن يضيف الى ما سبق أن يعلم ما كتبه القديس أوغستان الى الكونت بونيفاس يشير عليه باستعمال القوة لردع أهل البدع من المسيحيين ، وردهم الى المسيحية، وقد مثلهم فى كتابه ببغال تعض وترفس من يعالجها من مرضها ، والذى يعالجها مضطر الى ايلامها ، ليضمد جراحها ، ومثلهم بالطفل الصغير الذى لا تتيسر تربيته بغير السوط والعقاب ، فالاضطهاد الذى تنزله الكنيسة بالاشرار لردهم الى طريق الحق والخير أعظم خير يصنع بهم [2] •

ولقد زعم بعض المستشرقين أن ردة العرب دليل عملى على أن المرتدين كانوا قد اعتنقوا الاسلام رهبة لا رغبة ، وأنهم انتهزوا وفاة

---

(١) Nicholson. Aliterary History of the Arabs. p. 107.

(٢) الاسلام خواطر وسوانح . الكونت هنرى كاسترى ١٣٧ وسماحة الاسلا مللمؤلف ١٦١ — ١٦٦

النبى فرصة للعودة الى وثنيتهم ، والتحرر من سلطان السيف الذى كان مصلتا على رءوسهم •

وهذا زعم باطل ، لان المرتدين فريقان :

١ ــ فريق امتنع عن الزكاة ، بدعوى أنها ضريبة كانوا يقدمونها لرسول الله ، فلما انتقل الرسول الى الدار الاخرة تحللوا من دفعها لخليفته •

ولا شك أن هذا الفريق كان قد أسلم ، ولكنه كان يجد غضاضة فى دفع الزكاة ، لانها فى نظره كالأتاوة التى يقدمها المحكوم الى الحاكم، فهى ضرب من التبعية والسيادة لم يألفوه ، ومن الصعب عليهم أن يطيقوه •

ولم يكن هؤلاء قد أجبروا على الاسلام ، أو ارتدوا عنه كراهية له ، بل هم حسبوا أن الزكاة أتاوة لرسول الله نفسه ، وتكريم له ، ولهذا لم يرضوا بتقديمها لابى بكر •

وفى شأن هذا الفريق اختلف أول الامر أبو بكر وعمر ، ولكن عمر لم يلبث أن تبين صواب أبى بكر فى العزم على محاربتهم [١] •

٢ ــ وفريق كانوا قد أسلموا نفاقا ورياء ، أو محاكاة بغير تفهم، أو أملا فى منافع شخصية ، وكان أكثر هؤلاء من الاعراب الجفاة الغلاظ ، ولم يكن قد مضى عليهم زمن كاف لان تستقر العقيدة الجديدة فى قلوبهم ، وتتشربها نفوسهم ، فمن السهل أن يتذبذبوا ، وأن يسرعوا الى الارتداد عن الدين الجديد حينما تسنح لهم الفرصة، ليتخلصوا من القيود التى قيدهم بها •

---

(١) صحيح البخارى ١٠٥/٢

وهم قد عرفوا بالجهل والنفاق ه نقبل ذلك ، ونص عليهم القرآن الكريم بقوله : « الاعراب أشد كفرا ونفاقا ، وأجدر الا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم •

ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ، ويتربص بكم الدوائر، عليهم دائرة السوء ، والله سميع عليم [١] » •

والعجب للذين يحاولون أن يتخذوا من ردة بعض العرب سلاحا يهجمون به على الاسلام أنهم يتناسون أن الذين اعتنقوا الاسلام عن ايمان وصحة ادراك قد طال تعذيبهم فى حياة الرسول ، فلم يزدادوا الا ثباتا ، وأنهم بعد وفاة الرسول ثبتوا على اسلامهم ، ولم يرتد منهم أحد ، وهم الذين قاوموا عواصف الردة ، وحموا دينهم ، وصانوا دولتهم الجديدة بالارواح والاموال •

وللاسلام فى معاملة المرتدين أحكام قائمة على العدالة والسماحة [٢]• على أن الاسلام ضيق نطاق الحروب ، فلم يقر الحرب الظالمة التى يشنها القوى على الضعيف ، رغبة فى التسلط والسيطرة ، وطمعا فى الغنائم والاسلوب ، كالحروب التى كانت تنشب بين القبائل العربية فى العصر الجاهلى ، والحروب التى كانت تشتعل بين الدول القديمة ، ومازالت تنشب فى العالم الحديث ، وليس لها من باعث الا التنافس فى التوسع وبسط السلطان ، والاستئثار بخيرات البلاد المغلوبة ، واذلال أهليها •

---

(١) سورة التوبة ٩٨ — ٩٩

(٢) المبسوط للسرخسى ١٠/١٠٠ والشرح الكبير للدردير ٤/٢٧٠ وكشاف القناع على متن الاقناع ٤/١٠٠ وحاشية رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين باب المرتد .

فلم يحارب النبى وخلفاؤه الراشدون وكثير ممن بعدهم الا دفاعا عن أنفسهم ووطنهم ودينهم وحقوقهم ، سواء أكان العدو قد هاجمهم حقيقة ، أم تبين لهم أنه يعد العدة للهجوم عليهم •

وذلك أن القرآن الكريم نهى عن العدوان حتى على الاعداء الذين ظلموا المسلمين من قبل •

قال تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولاتعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين » (١) •

فالحرب لاعلاء دين الله الذى ارتضاه ، وللدفاع ورد الاعتداء ، وليست للسيطرة ولا للاحتكار ، ولا للغنائم والأسلاب ، ولهذا حـذر ختام الاية من العدوان لانه بغيض الى الله •

وقال تعالى :

« ولا يَجْرِمَنكُمْ شَنَآنُ قوم أن صَدُّوكُم عن المسجد الحرام أن تعتدوا • وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان، واتقوا الله ، ان الله شديد العقاب » (٢) •

فنهى عن الاعتداء حتى على الاعداء الالداء الذين آذوا المسلمين من قبل ، وأمر المسلمين بالاتحاد والتعاون على الخير والسلام وطاعة الله ، لا على الشر والاعتداء وما يغضب الله ، وحذرهم عذاب الله الشديد ان عصوا أمره ونهيه ، فتجاوزوا الحد فى حربهم أو اعتدوا على غيرهم •

---

(١) سورة البقرة ١٩٠.
(٢) سورة المائدة ٢ .

وقال تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله [1] » .

وقال سبحانه : « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . انما السبيل على الذين يظلمون الناس ، ويبغون فى الارض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب أليم [2] » .

وقال تعالى : « ألا تقاتلون قوما نكثوا ايمانهم ، وهموا باخراج الرسول ، وهم بدأوكم أول مرة ، أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين » [3] .

٧ ـــ كذلك نهى عن قتال من أعلن مسالمته وان أثمرت حربه منافع ومكاسب ، فقال سبحانه :

« ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام : لست مؤمنا ، تبتغون عرض الحياة الدنيا » [4] .

٨ ـــ ونهى عن مباغتة المعاهدين الذين يتخوف المسلمون من خيانتهم للعهد ، فاذا ما تخوف النبى من نقض أعدائه للمعاهدة وعرف هذا بأمارات لاحت له فليس له أن يباغتهم بالحرب ، بل عليه أن يكاشفهم بأنه فسخ العقد وقطع ما بينهم وبينه من سلام ، حتى يحاربهم وهم على بينة من أمرهم ، وعلم بأنه قد نقض عهده معهم ، ليستعدوا للحرب كما استعد ، وهذه أعظم درجات الامانة والوفاء ، قال تعالى :

---

(١) سورة الحج ٣٩ ـــ ٤٠
(٢) سورة الشورى ٤١ ـــ ٤٢
(٣) سورة التوبة ١٣
(٤) سورة النساء ٩٤ .

« واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ، ان اللـه لا يحب الخائنين [1] » .

وقد جاء ختام الاية منفرا من الغدر ، وملزما بالوفاء بالعهد حتى المشركون أعداء الله وأعداء المسلمين يجب على المسلمين أن يفوا لهم بعهدهم الى أجله ، ما داموا لم يعتدوا على المسلمين ، ولم ينـاصروا المعتدين عليهم ، قال تعالى :

« وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله ، فان تبتم فهو خير لكم ، وان توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم .

الا الذين عاهدتم من المشركين ، ثم لم ينقصوكم شـيئا ، ولم يظاهروا عليكم أحدا ، فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ، ان الله يحب المتقين » [2] .

---

(1) سورة الانفال ٥٨

فى تفسير الآية : واذا خفت من عدو لك بينك وبينه عقد وعهد أن ينكث عهده ويغدر بك ، فناجزهم بالحرب ، واعلمهم قبل أن تحاربهم انك قد فسخت العقد الذى بينك وبينهم بسبب ظهور غدرهم وخيانتهم ، حتى تصير أنت وهم على سواء فى العلم بأنك لهم محارب ، فيأخذون للحرب آلتها ، وتبرأ من الغدر .
فان قال قائل : كيف يجوز نقض العهد بخوف الخيانة ، والخوف ظن لايقين ؟ قيل ان المراد أنه اذا ظهرت آثار الخيانة من عدول وخفت مباغتتهم لك فأعلمهم بالحرب ، كالذى كان من بنى قريظة اذ انضموا الى أبى سفيان ومن معـه من المشركين ، واعتزموا على حرب رسول الله بعد أن عاهدوه على المسالمة ، فكان انضمامهم الى أعداء النبى دلالة على غدرهم . وكذلك حكم كل قوم وادعوا المؤمنين ، ثم ظهرت لامام المسلمين بوادر غدرهم (تفسير الطبرى ١٩/١٠ والكشاف ١٣٢/٢) .

(2) سورة التوبة ٣ ــ ٤

وقد اتفق العلماء على جواز خداع الكفار فى الحرب ، الا اذا كان فى الخداع نقض عهد أو أمان ، فان الخداع لا يحل [١] .

على أن المشرك الذى لا عهد بينه وبين المسلمين اذا لجـأ الى المسلمين واستجارهم ، فعليهم أن يجيروه ، ويبصروه بدين الله ، ثم يردوه الى مأمنه ، قال تعالى :

« وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » [٢] .

٩ ـ وجرى المسلمون على الرحمة والسماحة فى حروبهم وفتوحهم، فكانوا يبعثون الى البلد الذى لا مناص لهم من حربه شروطا للصلح قبل أن يخوضوا المعركة مع أهله ، كما فعل عمرو بن العـاص مع أهل غزة حينما حاصرها فى السنة السابعة عشرة من الهجرة ، وكما فعل مع أهل مصر اذ عرض على سكانها حرية دينية كاملة ، وعدالة شاملة .

وهنا تتجلى عظمة الاسلام اذ نوازن بين ما أوجبه منذ أربعـة عشر قرنا ، وما ترتكبه الدول المعاصرة التى تتشدق بالعلم والحضارة، لان هذه الدول تلجأ الى الهجوم المفاجىء ، اذ تخفى نياتها بوسـائل خداعة لا يقرها خلق كريم .

وقد شرعت بعض الدول الحديثـة فى الالتزام بوجوب اعلان الحرب قبل أن تبدأ بالهجوم ، لمـا ينشأ عن الحرب من حقوق وكفالات سنها القانون الدولى العام ، وتضمنت قرارات مؤتمر لاهاى سنة ١٩٠٧ فى الاتفاقية الثالثة فى البند الاول أنه يجب ألا تبدأ الحرب الا بعـد

---

(١) صحيح مسلم شرح النووى ١٢/٤٥

(٢) سورة التوبة ٦

اخطار سابق لا لبس فيه ، يكون فى صورة اعلان حرب مسبب ، أو فى صورة انذار نهائى ، تطلب فيه الدولة المنذرة مطالب معينة ، فان لم تجبها الدولة الاخرى صارت الحرب قائمة بينهما •

ونص البند الثانى على أنه يجب ابلاغ حالة الحرب دون تأخير الى الدول المحايدة •

وكانت الحكومة الهولندية قد اقترحت فى أثناء المناقشة النص على مضى أربع وعشرين ساعة على الاقل بين اعلان الحرب وبدئها ، ولكن الدول الاخرى لم توافق على الاقتراح •

ومعنى هذا أنه صار من المباح قانونا أن تفاجىء الدولة المحـــاربة عدوها بعد اعلان الحرب ولو بدقيقة •

وهذا هو المسلك الذى سلكته ألمـــانيا فى الحرب العالمية الثانيـــة (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) [١] •

---

(١) من مقال للمستشار على على منصور بمجلة منبر الاسلام أغسطس سنة ١٩٦٢

(٢) فى سـير الحـرب

يحرص الاسلام علىأن يكون السلام هو الاصل ، وعلى أن تكون الحرب عملا طارئا مؤقتا ، ويحرص علىرعاية الكرامة الانسانية والحرب مشتعلة .

لهذا شرع من النظم ما يتفق مع سموه وسماحته ورحمتـه ، وسن من القوانين ما يكفل التخفيف من ويلات الحـرب ، ويحصرها فى أضيق نطـاق .

١ ـ فلا يجوز أن تتعدى الحرب الى المدنيين الذين لا يشتركون فيها ، من شيوخ ونساء وعجزة وعباد منقطعين للعبادة وعلماء منقطعين للعلم ، الا اذا قاتلوا ، أو كان لهم فى تدبير الحرب رأى ومكيدة ، لان القتال هو لمن يقاتلنا (١) .

فقد مر رسول الله ـ بعد أن انتصر المسلمون فى غزوة حنين ـ بامرأة قتلها خالد بن الوليد ، والناس مزدحمون عليها ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : امرأة قتلها خالد ، فقال رسول الله لبعض من معه : أدرك خالدا ، فقل له ان رسول الله ينهاك أن تقتل وليدا أو امرأة أو عسيفا (٢) .

وسبى رجل امرأة فنازعته سيفه ، فقتلها ، فمر عليها النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخبر بأمرها ، فنهى عن قتل النساء (٣) .

قال ابن عباس : لم يكن رسول الله يقتل أحـدا من صـبيان المشركين (٤) .

---

(١) السياسة الشرعية لابن تيمية ٣٢ والمحلى لابن حزم ٢٩٦/٧
(٢) سيرة ابن هشام ١٠٠/٤ العسيف : الاجير والعبـد المستعان به والمسند ٣٣٢/٦
(٣) المسند ٩٠/٤
(٤) المسند ٧٢/٥

وكان اذا بعث جيوشه قال : أخرجوا باسم الله ، تقاتلون فى سبيل الله من كفر بالله . لا تغدروا ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع (١) .

ومن أحاديثه فى هذا :

لا تقتل ذرية ولا عسيفا (٢) .

لا تقتلن شيخا كبيرا ولا صبيا صغيرا (٣) .

ثم سار خلفاؤه على سنته .

فقد أوصى أبو بكر أسامة بن زيد حينما بعثه الى الشام بقوله :

لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تعقروا نحلا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لمأكله ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له (٤) .

ولم يخالفه فى هذه النصيحة من الصحابة مخالف (٥) .

فلا يحل عقرشيىء ، من حيوانهم البتة لا ابل ولا بقر ولا غنم ولا خيل ولا دجاج ولا حمام ولا أوز ، ولا غير ذلك الا للأكل ما عدا الخنازير فتعقر ، والخيل فى حالة المقاتلة فقط .

---

(١) المسند ٢٥٧/٤
(٢) كنز العمال ٢٨٦/٢ العسيف : الأجير
(٣) كنز العمال ٢٨٦/٢
(٤) تاريخ الطبرى ٢١٣/٣
(٥) المحلى لابن حزم ٢٩٦/٧

ولا يعقر شىء من نَحلِهم (بالحاء) ولا يُغرقْ ، ولا نُحرَقْ خلاياه [1] .

٢ — أن تكون الحرب ردعا للمعتدى ، وكفا لعدوانه ، لا للتشفى والانتقام المبيد ، فلا يحل للمسلمين أن يتجاوزوا الحد فى عقابهم للمعتدى عليهم .

قال تعالى : « الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله، واعلموا أن الله مع المتقين [2] » .

واذا كانت الضرورات تبيح المحظورات ، والحرب ضرورة ، فان للمسلمين أن يقاتلوا أعداءهم حيث وجدوهم ، ولكن لا يحل لهم أن ينتهكوا حرمة المسجد الحرام فيقاتلوا فيه أعداءهم الا اذا بدأهم الاعداء بالقتال فيه ، فان كفوا عن القتال وجب على المسلمين أن يقابلوا الكف بمثله .

قال تعالى :

« ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فان قاتلوكم فاقتلوهم ، كذلك جزاء الكافرين . فان انتهوا فان الله غفور رحيم [3] » .

وقال سبحانه :

« يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل : قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله وكفر به ، والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر

---

(١) المحلى ٢٩٤/٧
(٢) سورة البقرة ١٩٤
(٣) سورة البقرة ١٩١ — ١٩٢

عند الله ، والفتنة أشد من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم أن استطاعوا [1] » .

وانه ليسوغ القتال فى الشهر الحرام وفى المسجد الحرام أن المسلمين يدافعون عن نفسهم وعن دينهم دفاعا لا مندوحة عنه فى حل أو فى حرم .

وفى الآية تهكم بالمشركين ، لانهم اذ يعيبون على المسلمين القتال فى الشهر الحرام يتناسون أنهم يصدون المسلمين عن الاسلام ، ويعذبونهم ، ويحبسونهم ، وأنهم يردونهم عن المسجد الحرام فى الحج أو العمرة أو الصلاة ، وأنهم يضطرون كثيرا من سكان مكة الى الهجرة فيحرمونهم حقهم الطبيعى فى الاقامة بوطنهم ، وأنهم يحاولون أن يصرفوا المسلمين عن دينهم ، وهم الى هذا كله كفار عباد أوثان وأصنام ، وهذه الجرائم أكبر وأفظع من اضطرار المسلمين الى انتهاك الشهر الحرام أو الحرم نفسه [2] .

٣ ــ لا يجوع المسلمون أعداءهم ، ولا يمنعونهم الماء ، فانه لما أسلم ثمامة بن أثال أقسم لأهل مكة أنه لن يرسل اليهم حبة حنطة من اليمامة ، حتى يأذن له رسول الله .

ثم عاد الى اليمامة ، فمنع قومه أن يحملوا الى مكة شيئا ، فكتبت قريش الى النبى تقول انك تأمر بصلة الرحم ، ولا ترضى أن نموت

---

(١) سورة البقرة ٢١٧
(٢) نزلت الآيات (يسألونك الى : هم فيها خالدون) فى جماعة من المسلمين قتلوا مشركا هو ابن الحضرمى فى آخر يوم من رجب وهم يظنون أنه انتهى ، أو فى أول يوم من رجب وهم يحسبون أنهم فى آخر يوم جمادى الثانية ، وأنكر رسول الله هذا القتل فى الشهر الحرام ، فسقط فى أيديهم ، فنزلت الآيات (تفسير القرطبى ٣/٤٠ والكشاف ١/١١٨) .

جوعا ، فكتب الى ثمامة أن يخلى بين قومه وبين أن يحملوا الحنـــطة الى مكة [1] •

يا للخلق العظيم الذى يجب أن يقتدى به البشر ؟

أهذا حلم على حماقة قريش ؟

أهذا عفو القادر على الانتقام ؟

أهذا صبر على أذى الاعداء ؟

أهذه رحمة بالمشركين الذين آذوا النبى ومن معه ، وأخرجوهم من وطنهم مكة ؟

ان عمل النبى هنا يجمع هذه الفضائل كلها ، فهو لم يأمر ثمامة بأن يمنع القمح عن مشركى مكة ، لكن اسلام ثمامة هو الذى دفعه الى أن يعاقب قريشا بما يستطيع أن يعاقبها به ، جزاء لها على بغيها ومحاربتها للمسلمين وتحرشها الدائم بهم •

وقد كان من حق ثمامة أن يفعل ذلك ، لأن قريشا مع المسلمين فى حربٍ متّصِلة ، ولأنها اسْتَباحَتْ لِنفْسِها منْ قَبل أنْ تُقَاطِعَ المسْلمينَ وأن تحصرهم فى شعب بنى هاشم بمكة ، وأن تتعاهد على تجويعهم ومقاطعتهم ، وهى ما تزال جادة فى انزال الاضرار بهم ما وجدت للاضرار سبيلا •

لكن رحمة النبى كانت أعلى من الخصومة ، وأرفع من العداوة ، وأعظم من مقابلة التجويع بمثله ، فانه لم يكد يقرأ كتاب قريش حتى

---

(١) فتح المبدى ١٥١/٣

أرسل الى ثمامة أن يخلى بينها وبين حنطة اليمامة ، وهو يعلم أن تجويع قريش يضعفها أشـــد الضعف ، ويقية شرورها ، ولعله أن يعجـل باعتناقها الاسلام •

فهل لبعض الدول المعاصرة التى تدعى العلم والتقدم والحضارة آذان تسمع ؟

هل لها عقول تعى ؟

هل لها بقية من ضمير يتقبل التربية والعلاج ؟

أما آن لها أن تعلم أن عملها زائف ، وأن تقدمهـا تأخر ، وأن حضارتها همجية ؟

انها تتخذ القمح والمـال والدواء والسلاح وغيرها حبـائل لاقتناص المحتاجين ، وأغلالا فى رقاب الطالبين ، ووسـائل لاغراء المتطلعين •

ثم تقترف أحط أنواع الخسة ، فتضاعف الجريمة ، اذ تحتجز قمحها ومالها وسلاحها ودواءها لا عن خصومها فحسب ، بل عن الذين يتأبون على الخضوع الذليل ، والتبعية المهينة [1] •

٤ ـ لا يقتل المسلمون السفراء الذين يحملون اليهم رسـائل أو أحاديث من أعدائهم ، فانه لمـا قدم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مندوبان من عند مسيلمة ـ عبد الله بن النواحة وثمـامة ابن أثال ـ قال لهما النبى : فماذا تقولان أنتما ؟

---

(١) من أخلاق النبى ١٩٨

قال : نقول كما قال مسيلمة ، أى أنهما أقرا مسيلمة على ادعائه النبوة ، فقال لهما رسول الله : لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما .

وكان رسول الله لا يحبس عنده مندوبا من عند عدوه [1] .

٥ ـ يكفل الاسلام للمستأمنين فى دياره من رعايا الدولة المعادية التى تحارب المسلمين ويحاربونها ، حقوقهم كاملة ، كأن لم تقم حرب بين قومهم والمسلمين .

فأموالهم مصونة لا تصادر ولا تسلب .

وأعمالهم محمية .

وأرواحهم مرعية .

وهم مطمئنون على هذا كله حتى يعودوا الى بلادهم .

قال تعــالى :

« وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه » [2] .

واذا رأى امام المسلمين أن يضرب أجلا لمستأمن تنتهى اقامته فى دار الاسلام بانتهائه ، فعليه أن يراعى الزمن الذى يكفيه ويتلاءم مع عمله ، وان زاد على الشهر والشهرين .

فماذا تفعل الدول المتمدنة اليوم ؟

---

(١) زاد المعاد ١٠٦/٢
(٢) سورة التوبة ٦

انها تقبض على المستأمنين ، وتصادر أموالهم ، فتضطر الدولة الاخرى الى أن تقابل العمل بمثله ، وهى البادئة بالشر •

٦ ــ اذا جنح العدو الى السلم وآثرها على الحرب كان على المسلمين أن يسالموه ، لأن الاسلام حريص أشد الحرص على السلام ، فهو يهادن من يجنح الى المهادنة ، حتى الخونة الذين نقضوا عهدهم ، فلعلهم أن يفوا بعهدهم الجديد بعد أن نقضوا عهدهم الاول ، وكذلك المنافقون الذين يدعون الى الاسلام خدعة ورياء ، على شرط ألا يكون فى قبول الصلح اهدار لحق من حقوق الدين ، أو تعويق للدعوة •

قال تعالى :

« وان جنحوا للسلم فاجنح لها ، وتوكل على الله ، انه هو السميع العليم • وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم [١] » •

وقال سبحانه :

« فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم ، وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا [٢] » •

---

(١) سورة الانفال ٦١
(٢) سورة النساء ٩٠

(٣) فى نتائج الحرب

واذا كان فى طبيعة البشر الزهو بالنصر ، والغرور بالقوة ، فانه ليس من حق المسلمين أن يبطرهم الظفر ، فيتعسفوا بالمهزومين ويستذلوهم ، لأن الاسلام قيدهم بأحكام يجب عليهم أن يتبعوها •

١ ــ فلا يبيح الاسلام التمثيل بالقتلى ، ولا تخريب العمران ، ولا احراق البنيان ، ولا قطع الاشجار واتلاف الزروع ، الا فى حال الاضطراب . وَقَدْ سَبَقَت وَصِيَةُ أَبِى بَكْر لأسَامَةَ بنَ زيدٍ حِينمَا بَعَثَه الى الروم •

٢ ــ وعلى المسلمين أن يرحموا خصومهم المهزومين ، فيكفوا عن قتلهم ، ويكتفوا بأسرهم •

وهم مخيرون فى الاسارى بين اطلاقهم بغير مقابل ، واطلاقهم بفداء •

وذهب الحسن وعطاء الى أنه لا يجوز قتل الاسير ، واحتجا بقوله تعالى :

« فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فاما منا بعد واما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها[١] »

لأن الآية نصت على المن والفداء فحسب •

وهذا هو النظام الذى ساد فى الاسلام •

---

(١) سورة محمد ٤

٣ — بعد أن ينتصر المسلمون على محاربيهم يخيرونهم بين البقاء على دينهم أو دفع الجزية •

فالجزية نتيجة للحرب وأثر من آثارها ، وليست من بواعثها ولا من أهدافها •

وان الاسلام لسمح أيما سماحة فى فرضها ، وفى جمعها ، وفى الغرض الذى توخاه منها ، وتتجلى سماحته من الموازنة بين أحكامه وأحكام سواه [١] •

وحسبنا أن ننعم النظرة الى بعض ما كان الخلفاء الراشدون وقوادهم يعاملون به غير المسلمين •

(ا) فى حوار بين خالد بن الوليد وأحد النصارى قبيل موقعة اليرموك :

جرجة : أخبرنى الى ما تدعونى •

خالد : الى شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله، والاقرار بما جاء به من عند الله •

جرجة : فمن لم يجبكم ؟

خالد : فالجزية ، ونمنعهم •

جرجة : فان لم يعطها ؟

خالد : نؤذنه بحرب ، ثم نقاتله [٢] •

(ب) جاء فى المعاهدة التى عاهد عليها عمر بن الخطاب أهل ايلياء :

---

(١) سماحة الاسلام ١٠١ — ١٢٥ للمؤلف

(٢) تاريخ الطبرى ٣٥/٤

هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الامان ، أَعْطَاهُم أَمَاناً لِأَنفسِهم وأَمْوالِهم وَلِكنَائِسِهمْ وصُلبَانِهم وَسقيمِهَا وَبَرِيئِهَا وسائر ملتها ، أنه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شىء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود .

وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص ، فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم .

ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية .

ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وما له مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم .

ومن كان بها من أهل أرض قبل مقتل فلان ، فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع الى أهله ، فانه لا يؤخذ منهم شىء حتى يحصد حصادهم .

وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء ، وذمة المؤمنين ، اذا أعطوا الذى عليهم من الجزية .

وكتب لكل كورة كتابا مثلة [١] .

---

(١) تاريخ الطبرى ٤/١٥٩ — ١٦٠

(جـ) صالح عمرو بن العاص حاكم الاسكندرية على أن يعطيه الجزية ، وأن يخير الاسرى بين الاسلام والبقاء على دينهم ، فمن اختار منهم الاسلام فهو من المسلمين ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، ومن اختار دين قومه وضع عليه من الجزية ما يوضع على أهل دينه [1] .

٤ ـ أوجب الاسلام الوفاء بالعهد فى الحرب وفى السلم ، وحرم الخيانة للعهد سرا أو جهرا ، وحذر منها بأن الله لا يحب الخائنين .

قال تعالى :

«وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها : وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ان الله يعلم ما تفعلون [2] » .

وبلغ من حرص الاسلام على الوفاء بالعهد ان الله تعالى لم يبح للمسلمين أن يناصروا اخوانهم المسلمين غير الخاضعين لحكمهم على الكفار الذين بينهم وبين المسلمين عهد .

قال تعالى فى شأن المسلمين الذين لم يهاجروا :

« وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر ، الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ، والله بما تعملون بصير [3] » .

٥ ـ وان تاريخ المسلمين لحافل بالسماحة فى معاملة الشعوب المغلوبة الى حد لم يعرفه العالم فى القديم ولا فى الحديث .

وان سلوك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى بيت المقدس ليثبت

---

(١) تاريخ الطبرى ٢٢٧/٤
(٢) سورة النحل ٩١
(٣) سورة الانفال ٧٢

الرفق العظيم الذى كان يعامل به المسلمون الامم المغلوبة ، وهو على نقيض ما ارتكبه الصليبيون فى بيت المقدس بعد بضعة قرون [1] .

ذلك أن عمر دخل بيت المقدس ، وأبدى من التسامح مع أهليه ما أمنوا به على دينهم وأموالهم وعاداتهم ، ولم يفرض عليهم سوى جزية زهيدة .

وهكذا تسامح المسلمون فى المدن الشامية الاخرى ، فلم يلبث جميع سكانها ان ارتضوا سيادة المسلمين ، وانتحل أكثرهم الاسلام [2] .

ورضى سكان مصر بالفتح الاسلامى ، وشكروا لعمرو بن العاص أنه لم يتعرض لدينهم ونظمهم وعاداتهم ، وأنه لم يطالبهم بغير جزية سنوية قدرها دينار على كل شخص ، فى مقابل حمايتهم والدفاع عنهم.

ولم يتمرد فى مصر سوى الروم ، وهم الجنود والموظفون ورجال الدين الذين أبوا أن يخضعوا ، فالتجأوا الى الاسكندرية ، فحاصرها المسلمون أربعة عشر شهرا ، قتل منهم فى خلالها ثلاثة وعشرون ألفا .

ولكن عمرو بن العاص مع هذا كان رحيما بأهل الاسكندرية ، على الرغم من الخسائر التى أصيب بها ، ولم يقس عليهم ليثأر منهم [3] .

ثم انتقل المسلمون الى الاندلس ، فأحسنوا سياسة الاهلين هنالك، كما أحسنوا سياسة أهل الشام ومصر ، فتركوا لهم أموالهم وكنائسهم وقوانينهم الدينية الخاصة ، وحق التقاضى الى قضاة منهم ، وكانت الجزية — لقاء الحماية والاعفاء من الجندية — دينارا واحدا عن كل شريف ، ونصف دينار عن كل مملوك ، فرضى السكان بذلك طائعين [4].

---

(١) حضارة العرب ١٧٠ جوستاف لوبون .
(٢) المرجع السابق ١٨٨
(٣) المرجع السابق ٢٦٤ ، ٢٦٨
(٤) المرجع السابق ٣٢٩

تعقيبـــات

(أ)حرب لا علاقة لها بالاسلام :

لقد استبان أن الاسلام لا يسمح بالجهاد الا دفاعا عن العقيدة ، أو حماية للوطن ، أو صيانة للروح ، أو انقاذ للمستضعفين من أتباعه ، سواء أكان أعداء الاسلام قد بدأوا عدوانهم على الوطن الاســـلامى أم بدأوا يعدون العدة لهذا العدوان •

فما القول العدل فى حروب شنها بعض المسلمين فيما بعد ؟

الحق أن بعض هذه الحروب سياسية خالصة ليست من الجهاد فى شىء •

وليس يصح أن نعزوها الى الاسلام ، وندعى أنه يبيحها ، لان القائمين بها مسلمون ، فالاسلام لا يقر الحرب القائمة على الغرور بالقوة والسلطان ، والغرض منها التوسع والاستيلاء والاستئثار بخيرات النـــاس •

ثم ان أولئك الفاتحين لم يدعوا أنهم يحاربون غيرة على الاسلام، أو دفاعا عنه ، أو تمكينا لذيوعه وانتشاره ، فمن الجور أن نحمل الاسلام تبعه حروبهم وفتوحهم •

نعم من الجور أن نحمل الاسلام أخطاء بعض أتباعه ، لانهم بشر يعتريهم الضعف كما تعتريهم القوة ، ويخضعون لأوامر دينهم ولكنهم أحيانا يخالفونها عن علم أو جهل ، مدفوعين بباعث الملك والسياســة لا بدافع الدين فقد فتحوا بلادا اسلامية كما فتحوا بلادا مسيحية ، كالفاطميين فتحوا مصر المسلمة ، وكالاتراك فتحوا العــراق والشام ومصر وهى ديار اسلامية ، وفتحوا بلاد اليونان وهى مسيحية •

فلا شك فى أن هذا عمل سياسى شخصى لا يتحمــل الاسلام جريرته •

(٢) موازنة بين المسلمين وغيرهم

فاذا ما وازنا بين الاسلام وسواه ، أو بين المسلمين وغيرهم أدركنا البون الشاسع بين سماحة المسلمين وقسوة الاخرين .

١ ـ فقد نهى السيد المسيح عن الحرب ، ونهى عن مقاومة الشر بالشر ، فى قوله : « أما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر بالشر ، بل من لطمك على خدك الايمن فحول له الاخر أيضا ، ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه ميلين [1] » .

وفى قوله للقديس بطرس : « أعد سيفك الى مكانه ، لان كل الذين يأخذون بالسيف ، بالسيف يهلكون » .

ولكن المسيحيين اختلفوا بعد قليل ، فخضع أتباع الكنيسة الغربية لدعوة المسيح ونفذوها ، وكفوا عن الحرب ، وان كانت دفاعا عن النفس ، على حين أن أتباع الكنيسة الشرقية مزجوا فى شخص الامبراطور الرياسة الزمنية والرياسة الدينية ، فكان من آثار هذا المزج أن جعلوا الحرب حقا للامبراطور لا يشركه فيه أحد ولا يقيده الا الصالح الذى يراه .

ونجم عن هذا أن الاباطرة حاربوا وهم ظالمون ، وطالما سيرتهم أهواؤهم ، فأشعلوا الحروب فى الشرق وفى الغرب منذ العصور الوسطى .

ثم ان تاريخ المسيحية ينوء بحروب شتى أشعلها موقدوها باسم السيد المسيح ، أريقت فيها الدماء أنهارا .

---

(١) انجيل متى .

فالحروب الصليبية أوقدها المسيحيون لا المسـلمون ، وكثيرا ما زحفت الجيوش باسم الصليب منحدرة من أوروبا الى الشرق ، لتحارب وتسفك الدماء ، وكان البابوات خلفاء السيد المسيح يباركون الجيوش المعتدية فى كل مرة ، وهم يعلمون أن المسيحية تحظر القتال ، ولكنهم لا يجهلون أنها تحظره على الاطلاق •

يقول السير توماس أرنولد : « وربما حل الاضطهاد والتنصير الاجبارى محل الدعوة الهادية الى كلمة الله ، حتى كان الملك أولاف ترايجفون ينشر الدين المسيحى فى فيكن (القسم الجنوبى من النرويج) بذبح الذين أبوا الدخول فى المسيحية ، أو بقطع أيديهم وأرجلهم ، أو بنفيهم وتشريدهم » •

وفى وصية القديس لويس : عندما يسمع الرجل العامى أن الشريعة المسيحية قد أسىء اليها فانه ينبغى ألا يذود عنها الا بسيفه ، فيجب عليه أن يطعن به الكافر فى أحشائه طعنة نجلاء •

فهل معنى هذا أن نتهم المسيحية بأنها دين حرب ؟

وهل من العدل أن نحمل المسيحية أوزار المنتسبين اليها ؟

لا ، كذلك من الجور أن نلقى على الاسلام وزر ما اقترفه بعض أتباعه ، فنزعم أن فتوحهم كانت دينية ، وندعى أن الاسلام دين حرب ودماء •

٢ ــ جاء فى شريعة اليهود :

حين تقرب من مدينة لتحاربها استدعها الى الصلح ، فان اجابتك الى الصلح وفتحت لك ، فكل من فيها مسخرون لك وعبيد •

وان لم تسالمك ، وحاربتك ، فحاصرها فاذا دفعها الرب الهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والاطفال والبهائم وكل ما فى المدينة فغنيمة لك أعطاها اياك الرب الهك .

وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك التى ليست من مدن هذه الامم .

أما مدن الشعوب التى يعطيك اياها الرب الهك فلا تستبق منها نسمة ما ، بل أحرقها احراقا [1] .

(٣) شـــهادات منصفة

ولقد شهد كثير من غير المسلمين بسماحة المسلمين فى معاملة المغلوبين .

١ ــ قال الكونت هنرى دى كاسترى :

ان المسلمين امتازوا بالمسالمة ، وبحرية الافكار فى المعاملات ، وبمحاسنة المخالفين ، وهذا يحملنا على تصديق ما قاله روبنسون : ان شيعة محمد هم وحدهم الذين جمعوا بين المحاسنة والرغبة فى انتشار دينهم ، وهذه الرغبة هى التى رفعت العرب فى طريق الفتح ، فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشه المظفرة ، ولم يتركوا أثرا للعسف فى طريقهم ، الا ما كان لابد منه فى كل حرب وقتال ، ولم يقتلوا أمة أبت الاسلام [2] .

---

(١) سفر التثنية ٢٠/١٠ ــ ١٦

(٢) اسلام خواطر وسوانح ٣٥ ترجمة أحمد فتحى زغلول .

٢ ــ قال جوستاف لوبون :

لم تكن القوة عاملا فى نشر القرآن ، فقد ترك العرب المغلوبين أحرارا فى أديانهم •

فاذا كان بعض النصارى أسلموا واتخذوا اللغة العربية لغة لهم ، فذلك لما يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذى لم يكن للناس بمثله عهد ، ولما كان عليه الاسلام من السهولة الى لم تعرفها الاديان الاخرى •

وقد عاملوا أهل سورية ومصر واسبانيا وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم ، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم ، ولم يفرضوا عليهم سوى جزية زهيدة فى مقابل حمايتهم لهم ، وحفظ الامن بينهم •

والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب (١) •

٣ ــ وقال أيضا :

كان العرب يحكمون صقلية قبل أن يفتحها روجر الاول النورماندى سنة ١٠٧٢ م •

وقد اتصل النورمانديون بسكانها قبل الفتح بنحو ستين عاما ، وعاشوا معهم مدة ، وادعوا أنهم أنصار لأهل صقلية وحماة لدينهم •

ولكن لم تكسب منهم صقلية وسكانها سوى التخريب السريع، فلم يلبث أهلها أن اعترفوا بأن صداقة فرسان النورمانديين أشد ضررا من عداوة العرب ، فاستغاثوا بالبابا لينقذهم من النورمانديين ، فلم

(١) حضارة العرب ١٤٥ جوستاف لوبون .

يجد انذاره نفعا ، فأرسل الى قيصر القسطنطينية كتابا يدلنا على سوء معاملة جيش نصرانى لبلاد صديقة استولى عليها ، يقول فيه :

يكاد قلبى ينفطر من الاخبار المحزنة التى أنبأنى بها رسل ابنى أرجيروس ، فعزمت على تطهير ايطاليا من ظلم هؤلاء الاجانب النورمان المردة الاشرار الزنادقة الذين لا يحترمون شيئا عند اندفاعهم ، والذين يذبحون النصارى ، ويسومونهم أشد العذاب ، غير راحمين ولا مفرقين بين الذكور والاناث والكبار والصغار ، وينهبون الكنائس ويحرقونها ويهدمونها ، ويعدون كل شىء فريسة يباح سلبها .

وقد أكثرت من لومهم على فسادهم وانذارهم بسوء أحكامى ، وخوفتهم سخط الرب ، فلم يزدهم ذلك الا عتوا .

فترانى قد عزمت على اعلان الحرب الدينية المشروعة على هؤلاء الغرباء الثقلاء الذين أمعنوا فى الظلم ، فصار أمرهم لا يطاق ، وذلك دفاعا عن الشعوب والكنائس .

ثم حقق البابا وعيده ، فجمع جيشا أكثر عددا من الجيش النورماندى ، لكنه هزم وأسر ، ولم يسرحه النورمان الا بعد سنة .

واستمروا فى اقتراف جرائمهم بصقلية وايطاليا .

وكان فرسانهم يفاجئون الاديار غير المحصنة ، فيسلبون كل ما فيها ، ويبقرون بطون رهبانها على بكرة أبيهم ، خشية الفضيحة .

وكان الرهبان يتغفلون بعض أولئك الفرسان بين حين وآخر ، فينتقمون منهم أشد الانتقام (١) .

---

(١) حضارة العرب ٣٧٣ جوستاف لوبون .

٤ ـ وقال أيضـــا :

عاهد فرديناند العرب على منحهم حرية الدين واللغة بعد أن انتصر عليهم سنة ١٤٩٢ م ٠

ولكن لم تحل سنة ١٤٩٩ حتى حل بالعرب الاضطهاد والتعذيب الذى دام قرونا ، ولم ينته الا بطردهم من أسبانيا ٠

وكان تنصير العرب كرها فاتحة ذلك الدور ٠

ثم صارت محاكم التفتيش تأمر باحراق كثيرمن الذين تنصروا ، واستمرت أحكامها زمنا ، لأن احراق الملايين من العرب دفعة واحدة متعذر ٠

وقد نصح كردينال طليطلة التقى الذى كان رئيسا لمحاكم التفتيش بقطع رءوس جميع من لم يتنصر من العرب رجالا ونساء وشـــيوخا وولدانا ٠

ولم ير الراهب الدومنيكى (بيلدا) الكفاية فى ذلك ، فأشـــار بضرب رقاب من تنصروا من العرب ، ومن بقوا على دينهم ، وحجته أنه من المستحيل معرفة الصـــــادقين من الكاذبين فى تنصرهم ، فمن المستحب قتلهم جميعا بحد السيف ، ليحكم الرب بينهم فى الحيـــاة الأخرى ، فيدخل النار من لم يكن صادق النصرانية منهم ٠

ولم تر الحكومة الاسبانية أن تعمل بمشورة ذلك الراهب التى أيدها الاكليروص ، لصعوبة تنفيذها ، فأمرت فى سنة ١٦١٠ م باجلاء العرب عن أسبانيا ، فقتل أكثر المهاجرين فى الطرقات ، وأبدى الراهب (بيلدا) ارتياحه لقتل ثلاثة أرباعهم ، وهو الذى قتل مئة ألف مهاجر

من قافلة كانت مؤلفة من مئة وأربعين ألفا من المسلمين فى طريقهم الى افريقيـــة •

وبذلك خسرت أسبانيا فى بضعة أشهر مليون مسلم من رعاياها•

ويقدر كثير من العلماء — ومنهم سيديو — عدد المسلمين الذين خسرتهم أسبانيا منذ فتح فرديناند غرناطة حتى اجلائهم الأخير بثلاثة ملايين •

ولا تعد ملحمة سان بارتلمى ازاء تلك المذابح سوى حادث تافه لا يؤبه له •

ولا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجد بين وحوش الفاتحين من يؤاخذ على اقترافه مظالم قتل كتلك التى اقترفت ضد المسلمين •

ومما يرثى له أن هذه الملايين الثلاثة التى فقدتها أسبانيا عمـدا كانت لها امامة السكان الثقافية والصناعية (١) •

---

(١) حضارة العرب ٣٣٤ جوستاف لوبون .

الفصل الرابع عشر

من صور الجهاد

يحفل التاريخ المجيد للمسلمين بأنواع من الجهاد وألوان من البطولة يباهى بها تاريخهم ، وتزدهى بها سيرهم ، وتتسابق الى خاطر من ينظر فى ماضيهم الفياض بذكريات المجد والعلاء .

وانها لبطولة نبيلة ، مبعثها شجاعة القلب المؤمن بالله ، الغيور على شريعته ، التواق الى الاستشهاد أو الى الظفر بالنصر ورضوان الله ، وغايتها الدفاع عن الاسلام ، والتمكين للوحدانية ، وحماية الوطن من سيطرة الشرك وعدوان الضلال وفساد الدخلاء .

وهذه صور من الجهاد فى عدة أحقاب .

(١)

رســـول الله

كان رسول الله عليه الصلاة والسلام القدوة المثلى ، والاسوة العظمى ، والمثل الكامل للاخلاق .

كان يجاهد بشجاعة فى السلم ، ويجاهد بشجاعة فى الحرب ، وكان شجاعا فى وحدته وفى قلة من أنصاره ، وشجاعا فى جماعته وفى كثرة من أعوانه .

جهـــاده فى الدعـــوة

لقد قضى حياته قبل البعثة ساخطا على ما يرى من فساد العقيدة، وضلال العقول ، وانحلال الاخلاق ، وكان قد شاركه فى بعض هـــذا السخط معاصرون له هم الحنفاء ، لكن سخطهم لم يكن مثل سخطه ، وغيرتهم على كرامة الانسان لم تكن مثل غيرته ، وتشوفهم الى العقيدة الصحيحة لم يكن كتشوفه .

ثم اجتباه الله لرسالته ، فثبت على الدعوة اليها ثباتا لا يتململ ، وغار على دينه غيرة لا تتحول ولا تتبدل .

١ ــ فقد ضاقت قريش بدعوته الى الاسلام ، وبتسفيه أحلامها، وعيب آلهتها ، فمشوا الى عمه أبى طالب ، وقالوا له : ان لك ســـنا وشرفا ومنزلة فينا ، وانا قد استنهيناك من ابن أخيك ، فلم تنهه عنا ، وانا والله لا نصبر على هذا الشتم لابائنا ، والتسفيه لاحلامنا ، والعيب لالهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله واياك ، حتى يهلك أحد الفريقين .

فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفسا بخذلان ابن أخيه ، فقال له : يابن أخى ان قومك قد جاءونى ، فقالوا لى كذا وكذا ، فأبق على وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الامر مالا أطيق •

فظن رسول الله أن عمه قد تخلى عنه ، وأنه خاذله ، وأنه قد ضعف عن نصرته ، فقال : يا عم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته •

ثم بكى رسول الله وقام ، فلما ولى ناداه أبو طالب فقال : أقبل يابن أخى ، فأقبل عليه ، فقال له : اذهب يابن أخى ، فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبدا (١) •

٢ — وعرض عتبة بن ربيعة على قريش — بعد أن أسلم حمزة بن عبد المطلب وقوى المسلمون باسلامه — أن يعرض على رسول الله أمورا لعله يقبل بعضها ، فيكف عن دعوته ، فوافقته قريش ، فقام اليه عتبة فقال : يابن أخى ، انك منا حيث قد علمت من الشرف فى العشيرة والعلاء فى النسب ، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل بعضها •

فقال له رسول الله : قل يا أبا الوليد أسمع منك •

فقال عتبة : يابن أخى ، ان كنت تريد بما جئت به من هذا الامر مالا جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا • وان كنت تريد به شرفا سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمرا دونك •

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٢٨٤ وتاريخ الطبرى ٢/٢٢٠

وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا •

وان كان هذا الذى يأتيك رئيا [1] تراه ولا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فانه ربما غلب التتابع على الرجل حتى يداوى منه •

فلما فرغ عتبة قال له رسول الله : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم •

قال رسول الله : فاسمع منى

قال : أفعل

فقال له الرسول : بسم الله الرحمن الرحيم « حم تنزيل من الرحمن الرحيم • كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون •
بشيرا ونذيرا ، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون • وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه [2] » ومضى رسول الله يقرؤها عليه ، وعتبة منصت وقد ألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله الى آية السجدة من السورة ، فسجد ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، وأنت وذاك •

فقام عتبة الى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به •

فلما جلس اليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟

---

(١) الرئى : ما يتراءى للانسان من الجن •
(٢) سورة فصلت ١ — ٥

قال : سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة • يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وان يظهر على العـــرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أســـعد النـــاس به •

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه •

قال : هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم (١) •

٣ ــ ذكر عبد الله بن عمرو بن العاص أن أشراف قريش اجتمعوا يوما فى الحجر ، فذكروا رسول الله وقالوا : لقد سفه أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، ولقد صبرنا منه على أمر عظيم •

وبينما هم كذلك اذ طلع عليهم رسول الله ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفا بالبيت •

فلما مر بهم غمزوه ببعض القول ، فعرفت ذلك فى وجه رسول الله ، ثم مضى ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفت ذلك فى وجهه، ثم مضى ، فمر بهم الثالثة ، فغمزوه بمثلها ، فوقف ، وقال : أتسمعون يا معشر قريش ، أما والذى نفس محمد بيدهِ لقد جئتكم بالذبح •

فأطرق القوم ، كأنما على رأس كل منهم طائر واقع ، حتى ان أشدهم على الرسول وطأة قبل ذلك ليسكنه ويهدئه بأحسن ما يستطيع

---

(١) سيرة ابن هشام ٣١٣/١

من القول ، ويقول : انصرف يا أبا القاسم راشدا ، فوالله ما كنت جهولا •

فانصرف رسول الله ، حتى اذا كان الغد اجتمعوا فى الحجر وأنا معهم •

فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه ، حتى اذا باداكم بما تكرهون تركتموه • فبينماهم فى ذلك طلع عليهم الرسول، فوثبوا اليه وثبة رجل واحد ، فأحاطوا به يقولون :

أنت الذى تقول كذا وكذا ــ لمـــا كان قد بلغهم من عيب آلهتهم ودينهم ــ فقال : نعم ، أنا الذى أقول ذلك •

فرأيت رجلا منهم أخذ بمجامع ردائه ، وقام أبو بكر الصـــديق دونه يقول وهو يبكى : أتقتلون رجلا أن يقـــول ربى الله ؟ ثم انصرفوا عنـــه •

جهاده فى الحـــرب

فلما اضطرته قريش وغيرهـــا الى الحـــرب شهر سيفه فى شجاعة وبطولة ، فكان يحضر الغزوات ، ويقودها بنفسه ، ويثبت فى حومة الوغى وبشائر النصر مقبلة لائحة ، ويثبت فى بطولة ونذر الهزيمـــة كالحة ، وقد فر كثير ممن معه ، فيبدل الفرار اقداما ، والهزيمة نصرا •

ولقد كان يستطيع أن يعفى نفسه من المشاركة العملية فى الحرب ، معتمدا على أنه النبى ، فيتوارى أو يتحصن أو يتخذ مكانه فى مؤخرة الجيش •

ولو أنه فعل ذلك لكان له مندوحة لا يرقى اليها تثريب أو ملام •

ولو أنه أثر هذا المسلك لرضى به المسلمون مرضاة خالصة ، فقد كانوا يؤثرون رسول الله على أنفسهم ، ويشترون سلامته بأرواحهم •

١ — ففى غزوة بدر تزاحف المسلمون والمشركون ، ودنا بعضهم من بعض ، وقد أمر رسول الله أصحابه ألا يحملوا حتى يأمرهم ، وقال لهم : ان اكتنفكم القوم فانضحوهم بالنبل •

وجعل يعدل الصفوف ، ثم دخل العرين وناشد ربه ما وعده من النصر ، وقال : اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد ، وأبو بكر يقول له : يا نبى الله ، بعض مناشدتك ربك ، فان الله منجز لك ما وعدك•

ثم خرج الى الناس فحرضهم ، وقال : والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر الا أدخله الله الجنة [1] •

٢ — وفى غزوة أحد تجلت ألوان من شجاعته :

(ا) فحينما علم بمقدم قريش لحربه قال لأصحابه : ان رأيتم أن تقيموا بالمدينة ، وتدعوهم حيث نزلوا ، فان أقاموا أقاموا بشر مقام ، وان هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها •

ولكن جماعة من الصحابة آثروا الخروج ، ولم يزالوا برسول الله حتى دخل بيته فلبس لأمته ، وتقلد سيفه ، ثم خرج اليهم ، فما لبثوا أن ندموا لانهم استكرهوه ، فلما خرج اليهم قالوا ، يا رسول

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢٧٩

الله ، استكرهناك ولم يكن لنا ذلك ، فان شئت فاقعد ، فقال : ما ينبغى لنبى اذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل ، ويحكم الله بينه وبين عدوه ، وخرج الرسول فى ألف من أصحابه [1] .

تتجلى هنا ضروب من الشجاعة :

أولها فى تدبير الخطة والموازنة بين قوة المسلمين وقوة قريش ، وايثار أن يبقى المسلمون فى مدينتهم ، ليدفعوا العدو المهاجم وهم أوفر منه قوة ، وأعز حصانة ، وأقدر على ملاقاته وان كانوا أقل منه عددا وعدة . ولا تثريب على قائد فى أن يقف مثل هذا الموقف ، لأن الشجاعة تقتضى الهجوم تارة ، وتقتضى الارتداد تارة ، وتكون فى المبادرة حينا ، وتتحقق فى التريث حينا آخر .

وثانيهما فى الاستجابة لحماسة الكثرة التى آثرت الخروج من المدينة للقاء قريش ، فانه لم يكن بد من هذه الاستجابة والجذوة متقدة ، والعزيمة ملتهبة ، والنفوس متلهفة الى الاستشهاد فى الدفاع عن العقيدة وعن الوطن ، والا كانت هذه الحماسة عرضة لان يخمدها البقاء واختلاف الاراء .

وثالثها مضاء النبى فى عزيمته ، ورفضه أن يستجيب لدعوة البقاء بعد أن أعد عدته ، ولبس لأمته،واصراره على ألا يضعها حتى يقاتل أعداء الله ، فانه بهذا الاصرار أذكى شجاعة الصحابة جميعا ، من كانوا يؤثرون الخروج ، ومن كانوا يؤثرون البقاء ، وخرج بهم يقودهم الى لقاء الاعداء .

---

(١) سيرة ابن هشام ٦٧/٣ وتاريخ الطبرى ١١/٣ وشرح الزرقانى على المواهب اللدنية ٢٤/٢

(ب) جعل على الرجاله فى يوم أحد — وكانوا خمسين رجلا — عبد الله بن جبير ، وأقامهم فى موضع ، وقال : ان رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل اليكم ، وان رأيتمونا هزمنا القوم فلا تبرحوا حتى أرسل اليكم •

وكان الموضع الذى أنزلهم به حاميا لظهور المسلمين ، فعليهم أن يلزموه ، حتى ان رأوا اخوانهم يقتلون ، فليس لهم أن يتحركوا لنجدتهم ، وان رأوهم ينتصرون ويغنمون فليس لهم أن يتركوا مواقعهم• وقد انتصر المسلمون فى أول المعركة ، حتى أسرعت نساء المشركين بالهرب • حينئذ قال أصحاب عبد الله بن جبير : الغنيمة الغنيمة ، لقد انتصر أصحابكم ، فماذا تنتظرون ؟

فقال لهم عبد الله : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ؟

قالوا : لا ، والله لتأتين الناس ولنصيبن من الغنيمة • فلما سارعوا الى الغنائم ، وتحولوا عن مواضعهم جعل رسول الله يدعوهم، يا عباد الله من كر فله الجنة •

ولكن نظامهم كان قد اضطرب ، وشاع فيهم أن النبى قتل ، وفر منهم من فر ، ولم يبق غير اثنى عشر رجلا من المسلمين •

فى هذا المأزق بقى النبى ثابتا يجالد ، ويرمى عن قوسه حتى صارت شظايا ، روى البيهقى عن المقداد قوله : والذى بعثه بالحق ما زلت قدمه شبرا واحدا ، وانه لفى وجه العدو تفىء اليه طائفة من أصحابه مرة ، وتفترق عنه أخرى ، وهو قائم يرمى عن قوسه ، ويرمى بالحجر حتى انحازوا عنه •

وفى هذه الموقعة كسرت رباعيته [1] ، وشج فى وجهه ، وجرحت شفته ، وسال دمه على وجهه ، فكان يمسح الدم وهو يقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم الى ربهم [2] ؟

ثم صلى الظهر قاعدا من الجراح التى أصابته ، وصلى المسلمون خلفه قعودا [3] .

(ج) ثم نهض المسلمون نحو الشعب ، ونهض معهم رسول الله وأبو بكر وعمر وعلى وطلحة والزبير ، فمشى اليهم أبى بن خلف وهو يقول : يا محمد ، لا نجوت ان نجوت .

فقال الصحابة : يارسول الله أيعطف عليه رجل منا ؟

فقال : دعوه .

فلما دنا منهم أبى تناول رسول الله الحربة من الحارث بن الصمة، فانتفض بها انتفاضة ، ثم استقبل أبيا فطعنه فى عنقه طعنة قلبته عن فرسه ، فمات من أثرها وهو فى طريقه الى مكة [4] .

(د) لم يكتف صلى الله عليه وسلم بموقف البطولة الذى رمى فيه عن قوسه حتى اندقت ، فجعل يناول سعد بن أبى وقاص النبل وهو يقول : ارم فداك أبى وأمى [5] .

---

(١) الرباعية : التى بين الناب والثنية .
(٢) سيرة ابن هشام ٨٤/٣ وشرح الزرقانى على المواهب اللدنية ٣٥/٢ وفتح المبدى ٢٢٧/٢
(٣) سيرة ابن هشام ٩٢/٣
(٤) سيرة ابن هشام ٨٩/٣
(٥) سيرة ابن هشام ٨٧/٣

بل انه حول انتصار المشركين الموقوت الى رهبة من المسلمين ، وتوقع للثأر القريب ، وبهذا أضعف قوى الخصوم ، وقوى المسلمين وبشرهم بنصر قريب .

وذلك أنه بعد الموقعة نادى أبو سفيان : ان موعدكم بدر العام القابل ، فقال رسول الله لرجل من أصحابه : قل نعم ، هو بيننا وبينكم موعد .

ثم بعث على بن أبى طالب فقال : أخرج فى آثار القوم ، فانظر ماذا يصنعون ، وماذا يريدون ، فان كانوا قد جنبوا الخيل ، وساقوا الابل فانهم يريدون المدينة ،والذى نفسى بيده لئن أرادوها لاسيرن اليهم فيها ، ثم لاناجزنهم .

قال على : فخرجت فى آثارهم أنظر ماذا يصنعون ، فرأيتهم قد جنبوا الخيل ، وامتطوا الابل ، وتوجهوا الى مكة [١] .

ثم عاد الرسول الى المدينة ، فناول سيفه ابنته فاطمة وقال : اغسلى عن هذا دمه يا بنية ، فوالله لقد صدقنى اليوم [٢] .

وقد جاء ذكر هذه الخرجة فى قوله تعالى : « الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم ، واتقوا أجر عظيم .

الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم ايمانا ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل .

---

(١) سيرة ابن هشام ١٠٠/٣ .
(٢) سيرة ابن هشام ١٠٦/٣ .

فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم •

انما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه ، فلا تخافوهم ، وخافون ان كنتم مؤمنين » [1] •

(هـ) ثم نفذ النبى وعيده فى العـام التـالى لاحد ، فخرج ليلقى أبا سفيان فى بدر الاخرة ، وأقام ثمانى ليال ينتظره ، وكان أبو سفيان قد خرج فى أهل مكة حتى نزل مجنة ، ثم بدا له أن يرجع ، فرجع هو ومن معه ، وأقام النبى على بدر ينتظره ، فلما لم يجىء عاد الى المدينة [2] •

٣ ــ وفى سنة ثمان بعد الفتح خرج للقاء هوازن وثقيف وغيرهم فى غزوة حنين ، فلما اقتربوا من وادى حنين ساروا فى متسع منحـدر ، وفى عماية الصبح كان القوم قد سبقوهم الى الوادى ، فكمنوا فى مضايقه وشعابه ، فشدوا على المسلمين ، فانهزموا راجعين الا قليلا منهم ، لا يلوى أحد على أحد •

لكن رسول الله انحاز ذات اليمين ، وكان على بغلته البيضـاء ، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث يقودها به ، وكان الرسول ينادى : أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب ، أيها الناس هلموا الى ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله •

غير أنهم شغلوا باضطرابهم ، وحملت الابل بعضها على بعض ، فانطلق الناس الا نفرا من المهاجرين والانصار ثبتوا مع رسول الله ، فقال

---

(١) سورة آل عمران ١٧٢ ــ ١٧٥ القرح : الجرح . قال لهم الناس : المراد نفر من عبد القيس ارسلهم ابو سفيان الى المسلمين ليثبطوهم .

(٢) سيرة ابن هشام ٣/٢٢٠ .

الرسول : يا عباس ، اصرخ قائلا : يا معشر الانصار ، يا معشر أصحاب السمرة ، فأجابوا : لبيك لبيك ، فكان الرجل يذهب ليثنى بعيره فلا يقدر، فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ، ويقتحم عن بعيره ، ويخلى سبيله ، فيؤم الصوت حتى ينتهى الى رسول الله ، فلما اجتمع منهم نحو مئة استقبلوا الناس ، فاقتتلوا حتى انتصر المسلمون [١] .

وقد سئل البراء بن عازب : أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ؟

فقال : لكن رسول الله لم يفر ، ان هوازن كانوا قوما رماة فلما لقيناهم حملنا عليهم فانهزموا ، فأقبل المسلمون على الغنائم ، واستقبلتنا هوازن بالسهام ، فأما رسول الله فلم يفر ، فلقد رأيته على بغلته البيضاء وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بلجامها ، والنبى يقول : أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب [٢] .

ولقد أشاد بشجاعة الرسول كثير من الشعراء فى عصور شتى ، وحسبنا أن نذكر بعض أبيات من احدى قصائد شوقى [٣] :

واذا غضبت فانمـا هى غضـبة فى الحق لا ضغن ولا بغضاء [٤]
الحرب فى حق لديك شريعـــة ومن السموم الناقعات دواء [٥]
الخيل تأبى غير أحمد حاميـــا وبهـــا اذا ذكر اسمه خيـــلاء

---

(١) المغازى للواقدى ٩٠٠ والسيرة الحلبية ١٢٤/٣ واللؤلؤ والمرجان ٢٦٠/٢ .
(٢) فتح المبدى ٣٠٨/٢ .
(٣) الشوقيات ٢١/١ .
(٤) ضغن : حقـــد .
(٥) الناقعات : القاتلات .

شـيخ الفـوارس يعلمون مكانه ان هيجت أسادهـا الهيجـاء
وإذا تصدى للظبـا فمهنـد أو للرماح فصعدة سـمراء [1]
وإذا رمى عن قوسـه فيمينه قدر وما ترمى اليمين قضـاء
من كل داعى الحق همة سـيفه فلسـيفه فى الراسـيات مضاء
ساقى الجريح ومطعم الاسرى ومن أمنت سنابك خيـله الاشـلاء
ان الشجاعة فى الرجال غلاظـة ما لم تزنهـا رأفـة وسـخاء
والحرب من شرف الشعوب فان بغوا فالمجـد مما يدعـون بـراء
والحرب يبعثهـا القـوى تجبرا وينوء تحت بلائهـا الضعفـاء
كم من غزاة للرسـول كريمـة فيهـا رضـا الحق أو اعلاء
كانت لجنـد الله فيهـا شـدة فى أثـرها للعـالمين رخـاء
ضربوا الضلالة ضربة ذهبت بها فعلى الجهالة والضلال عفـاء
دعموا على الحرب السلام وطالما حقنت دمـاء فى الزمان دمـاء
الحق عرض اللـه كل أبيـة بين النفـوس حمى له ووقـاء
هل كان حول محمـد من قومه الا صبى واحـد ونسـاء ؟
فدعا فلبى فى القبـائل عصـبة مستضعفون قلائل أنضـاء [2]
ردوا ببأس العزم عنه من الاذى مالا ترد الصـخرة الصـماء
والحق والايمـان ان صـبا على برد ففيـه كتيبـة خرسـاء [3]
نسفوا بنـاء الشرك فهو خرائب واستأصـلوا الاصنام فهى هباء
يمشون تفضى الارض منهم هيبة وبهم حيال نعيمهـا اغضـاء
حتى اذا فتحت لهم أطرافهـا لم يطغهـم ترف ولا نعمـاء

(١) الظبا : جمع ظبة وهى حد السيف . الصعدة : القنـاة المستوية والرمح .
(٢) أنضاء : جمع نضو وهو المهزول .
(٣) البرد : الثوب . الكتيبة الخرساء : الفرقة من الجيش لا يسمع فيها صوت .

(٢) بـــلال

أسمر شديد السمرة ، لكنها سمرة ناصعة لامعة ، تضفى على استواء تقاسيمه خفة وملاحة •

فارع الطول فى اعتدال ونحول ، كأنه تمثال من الابنوس ، غير أنه ينحنى قليلا الى الامام ، كأنما يستريح من طول ما عانى من اعتدال •

غزير الشعر فى يسير من التجعد ، خفيف العارضين ، كأنه ما زال فى ريعان الشباب •

قوى الجسد ، مفتول العضل ، متين التركيب والاعصاب •

انه بلال بن رباح ، مولى أمية بن خلف الجمحى •

كان سيده أمية معجبا به ، راضيا عنه ، عظيم الثقة فيه لانه طالما بلاه فوجده لا يميل الا للحق ، ولا يقول غير الصدق ، ولا يضجر من مشاق ما يكلف من أعمال ، وكثيرا ما تبين وفاءه واخلاصه حيث لا ينتظر من عبد وفاء واخلاص •

ولم يعجب أمية من ثناء بنى جمح كلهم على مولاه بلال ، ولم يكن فى حاجة الى أن يتعرف سبب اعجابهم به وثنائهم عليه ، لانه يعلم من أمره أكثر مما علم الناس •

لهذا رفض أن يبيعه ، على غلاء الثمن الذى سامه به الراغبون فى الشراء •

(*) البطولة والأبطـــال ٨٦ وقد اضاف القلم خيـــالا غير أنه لا يتجاوز الحقيقة (الأصل فى سيرة ابن هشام وفى طبقات ابن سعد) .

وكيف يبيعه ، وهو لا يرى فى أرقاء مكة جميعا مولى مثل بلال فى استواء تقاسيمه ، وخفة حركته ، وكرم ما يتحلى به من أخلاق ؟

ولم يكن ليفرط فيه بعد أن جرب يمنه ، فقد كان مقدمه الى بيته بشيرا بخير كثير ومال وفر ، كأنما رافقه الربح من اسم أبيه (رباح) وجاءته الخفة من اسم أمه (حمامة) ، وصاحبــه الخير من اسمه (بلال) [1] .

لكن أمية كان ينكر من مولاه بلال شيئا واحدا ، ولكنه لم يحدثه فيما أنكر منه ، ولم يحدث به سواه .

ذلك أن بلالا لم يكن يقبل على الاصنام كما يقبل الناس ، ولم يكن يطرب حين يرى بنى جمح يتنافسون على الميسر ليربحوا ، كما كان يطرب غيره من الاحرار والارقاء .

وكان أمية يصرف نفسه من التفكير فى هذا ، لان بلالا فى نظره عبد، وليس يعنيه من عبده أن يخلص للاصنام ، أو يطرب للميسر والازلام [2]

وتتابعت السنوات ، وكبر بلال حتى تجاوز الاربعين ، وهو لايزداد عند سيده الا قربا .

ثم شغلت مكة كلها بأن محمد بن عبد الله ــ عليه الصلاة والسلام ــ يدعو قومه الى دين جديد يقضى على الوثنية والاوثان ، ويدعو الناس الى عبادة الله الخالق الاحد .

---

(١) البلال : المــاء وكل ما يبل به الحلق .

(٢) الأزلام : جمع زلم على وزن سبب وهو السهم الذى يلعبون به .

فأنكر أمية الدعوة كما أنكرها غيره من السادة والاشراف ، لانهم عبيد ما وجدوا عليه آباءهم .

وكان يجتمع فى داره عشرات من بنى جمح وغيرهم ، فيسمرون ويتحدثون ، وكان أكثر حديثهم عن محمد والدين الجديد .

وقد استمع بلال أحاديثهم كلها ، واستمع الى أحاديث غيرهم ، وعرف بذكائه وفراسته واحساس قلبه أن الذى يزيفونه انما هو الحق، وأنهم انما يسخرون من جلال يحسدونه أو يجهلونه .

وعجب من تشبثهم بأصنام من الخشب أو الحجر لاتسمع ولا تجيب ولا تضر ولا تنفع .

وسخر منهم ، لانهم كانوا يستهزئون بدعوة محمد الى عبادة الله الواحد الاحد الذى لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

وكان يقول فى نفسه : لقد عرفت محمدا فى شبابه وكهولته ، فلم أتبين منه الا الجد والصدق والاستقامة ، ولم يعرف منه هؤلاء الساخرون الا كرم الطبع ، ونبل النفس ، وشرف القصد ، وهم اليوم يسخرون منه ، لكنهم لم يتهموه بأنه طامح الى ملك ، أو طامع فى ثراء، وانما يتندرون بقوله أنه يهديهم الى الله ، ويخرجهم من الظلمات الى النور ، ويستهزئون بحماسته الى دعوته ، واصراره على تبليغها ، وصبره على احتمال الاذى .

فلماذا لم يسائلوا أنفسهم عن السر العظيم الذى يكمن فى نفس محمد ؟

لماذا لم يفكروا قليلا ، ليروا أنهم غرقى فى الضلالة ؟

لمـــاذا لا يتبصرون فيما يدعوهم اليه محمد ، ليجدوه الخير والحق والسعادة ؟

أخذت هذه الافكار تعتمل فى نفس بلال ، فاتصل ببعض المسلمين سرا ، وفهم منهم حقيقة الاسلام ، وسمع منهم بعض القرآن ، فانشرح صدره وأسلم ، وجعل يغالب نفسه فى كتمان اسلامه ، واسلامه يأبى الا أن يستعلن •

وكان كثير من السادة والاحرار والارقاء قد أسلموا ، ولقى بعضهم من اعنات المشركين وتعذيبهم ألوانا تحدث بها الناس فى مكة ، وكانت أخبار المسلمين والتنكيل بهم تتردد فى دار أمية بن خلف ، ويسمعها بلال فيألم ويحزن ، ولكنه يعتز بثبات اخوانه على عهدهم ، ويطمئن الى أن النصر سيكون لهم ، ثم يلوم نفسه ، ويتهمهـا بالضعف ، لانه يكتم اســلامه •

فلماذا يكتمه ؟

أباطل فالخير له فى كتمانه ؟

أجبان هو يخشى من سادته أن يؤذوه ؟

أم الذين أسلموا وأعلنوا اسلامهم أقوى منه عقيـــدة ، وأعظم اخلاصا للاسلام ؟

لا ، فليعلن اسلامه ، وليحتمل من الاذى ما قدر له أن يحتمل ، فان ذلك أولى ، وخير له من كتمان دينه ، واخفاء ما بنفسه ، والتمويه على سيده •

كان قد اعتزم على ذلك فى وقت الظهيرة ، حينما خلا الى نفسه فى ركن ظليل بدار أمية ، وكان اليوم شديد الحر مثل أيام مضت ، لم تشهد مكة مثلها حرارة منذ سنوات .

فلما جنحت الشمس للغروب أخذ بلال يعد مجلس أمية ورفاقه وزواره ، وجعل يرش المــاء على الارض ليطفىء حرارتها .

ثم جاء الليل ، وتوافد الناس على دار أمية ، وأخذوا يتحــدثون عن حرارة الجو ، ثم انتقلوا الى الحديث عن محمد وجنته وناره ، وكان بلال يسمع وهو يكاد ينفجر من الغيظ ، لكنه يجاهد قلبه ولسانه ، ويتمتم بكلمات كأنها زمجرة الاسد المغلوب على أمره ، وكثيرا ما كانت تتوارى زمجرته فى ضحكات القوم وصخبهم .

فلما أمره أمية أن يطوف على الجلساء بأقداح من نقيع التمر جعل يطوف بها وهو حانق على أن يخدم أولئك المشركين الضالين الذين عميت عيونهم عن الحق ، فراحوا ينكلون بالمسلمين وهم الدعاة الى الحــق .

واذ كان يقدم القدح لشاب مفتون تناوله منه قائلا :

هات ، سقتك اللات والعزى ، وعشت حتى تطوف علينا بشرابك يوم يقتل محمد أو ينفى .

فما كاد بلال يسمع هذا حتى ارتعد جسده ، واحمرت عينــاه ، وألقى الاقداح من يديه ، وصاح بصوت قوى :

لا سقانى الا الله ، ولا كان لمحمد الا النصر والحياة ، اشهدوا أنى قد أسلمت ، اشهدوا أنى قد أسلمت .

حينئذ شخصت الابصـــار ، وفغرت الافواه ، وعقدت الدهشـــة ألسنة الجالسين ، وخيم الصمت المفاجىء على النادى الذى كان يموج بالحركة ، ويتجاوب بالكلمات والنكات والضحكات ، وكأنما سمر القوم فى مجالسهم ، وكأنما بلال تمثال قائم بينهم ، يشخصون اليه فى بله ، ويشخص اليهم فى يقظة وانتباه .

ثم شق السكون صوت صارخ من أمية ، اذ وثب من مكانه الى بلال، فانهال عليه وكزا وركلا [1] ولطما وسبا ، ثم دفعه الى سرداب مهجور فى بيته ، وأغلقه عليه ، وعاد الى مجلسه ثائرا يصيح بقوله : ويحك يا محمد ، أما كفاك أن تسفه أحلامنا ، وتسخر من آلهتنا ، وتحدث شقاقا بين أشرافنا ، فجعلت تفتن عبيدنا ، وتفسد علينا أرقاءنا ؟

ستعرف يا محمد أن آلهتنا أعز وأبقى ، وسنحارب بهتانك حتى نردك عن غيك ، ونبين للصابئة [2] أنك أضللتهم .

ولم يكن فى المنتدى الا حانق ثائر ، ولم يكن فيهم مشفق على بلال أو راحم ، بل لقد أشار بعضهم بقتله ، وأشار آخرون بحبسه جوعان عطشان حتى ينفق [3] كما تنفق الدابة ، واستأذن أحدهم أمية فى أن يدخل اليه فيبقر [4] بطنه .

وكان أمية يسمع ما يقولون فى صمت ، ثم وعدهم أن يكون له مع عبده شأن .

---

(١) الوكز : الضرب بجمع اليد . الركل : الضرب بالرجل .
(٢) الصابئة : الخارجون من دين الى آخر ، وكان المشركون يطلقون هذه الكلمة على المسلمين .
(٣) نفقت الدابة : ماتت ..
(٤) يبقر : يشق شقا واسعا .

فلما انصرف القوم ، وأوى أمية الى مخدعه ، بات ليله مهموما يفكر فى حيرة ، أيقتل عبده أم يحبسه أم يبيعه ؟

وهل يطيق أن يفعل به شيئا من ذلك ، وهو عبده الاثير عنده ؟

ولكن كيف يطيق أن يبقى عليه بعد أن أسلم وأعلن اسلامه ؟

ثم آثر أن يكلمه بالحسنى اذا ما أصبح ، لعله يرده عن اسلامه الذى أعلنه •

وأشرقت الشمس فى ذلك اليوم وهاجة تنذر بحر شديد لافح ، فاستدعى أمية بلالا ، وقال له : ماذا أصابك يا بلال أمس ؟ أحالما كنت أم مجنونا أم مسحورا ؟

فقال بلال : مولاى ، ما كنت حالما ولا مجنونا ولا مسحورا •

فغضب أمية وقال فى حدة : أسكت أيها العبد ، خسئت [1] وحقت عليك لعنة مناة •

وجعل يحدق النظر فيه ساخرا ، ثم قال له : والان اما أن تكفر بمحمد وبدينه ، واما مثلت بك أشنع تمثيل ، فما كان لعبد أمية بن خلف أن يتبع ضلالة ينكرها سيده ، ويعارضها بنو جمح • بعد قليل سيجتمع جلساء أمس ليسمعوا منك رجوعك عن ضلالك ، وكفرك بمحمد ، وسبك اياه •

فقال بلال فى شجاعة : لست أنا الذى على ضلالة ، ولن أشترى الكفر بالايمان •

---

(١) خسىء الكلب أو الخنزير : ابعد حتى لا يدنو من الناس .

فصاح أمية قائلا : بل الضلال ما تقول أيها العبد الحقير ، لابد مما أمرتك به •

فقال بلال : والله لن يكون ما تريد يا سيدى ، ولن أذكر محمدا الا بما يستحق من التعظيم والاجلال •

فلطمه أمية وقال : سترى عاقبة ضلالك أيها الغراب •

وبعد ساعة كان الغلمان والولدان يجرون بلالا من حبل فى رقبته، ويطوفون به فى شعاب مكة ، ويرشقونه بالحصباء ، ويصيحون من حوله : المجنون ، المجنون •

وكان الناس ينظرون اليه واليهم ، فيعجبون من أن يعامل مجنون معاملة تزيده جنونا ، ثم يعرفون الحقيقة ، وهى أنه أسلم وأصر على اسلامه ، فيتهكمون به ويسخطون عليه •

أما بلال فقد كان ثابتا صابرا ، لا ينطق الا بقوله : أحد ، أحد •

ثم تعب الاولاد ، وبحت أصواتهم ، فعادوا به الى دار أمية ، فألقى به فى السرداب ، وأهمله الى صباح اليوم التالى •

وفى الصباح عاود الحديث مع بلال ، فلم يسمع منه الا اصرارا على اسلامه ، فقال له : يا بلال ، لقد عشت معى زمنا طويلا عرفت فيه ايثارى لك ، وانى أعدك أن أطلقك حرا اذا ما كفرت بمحمد ، ولعنته على ملأ من بنى جمح ، وسأعلن أمامهم جميعا أنك حر ، ثم تعيش معنا ان شئت كواحد منا •

فقال بلال : مولاى ، لن أشترى حرية الجسد بعبودية العقيدة ، ولخير لى أن أكون طاهر النفس ، سامى العقيدة ، عابدا للخالق الأعلى ، وأنا عبد ، من أن أكون على ضلال الوثنية وأنا حر •

فوجم أمية ، وركل بلالا وتركه .

كان اليوم شديد القيظ منذ أشرقت الشمس ، وكانت أشعتها ملتهبة تكاد تحرق ما تقع عليه ، وكانت الساحة التى أمام دار أمية مليئة بالرمضاء [1] ، فأمر أمية أن يلبس بلال درعا قديمة على جلده ، وأن يلقى على الرمضاء حينما تتوسط الشمس كبد السماء .

وفى ذلك الوقت اجتمع بنو جمح ، وعلم غيرهم من أنحاء مكة ، فوفدوا الى الساحة ليروا عبدا يشوى على وهج الشمس .

وكانوا جميعا يتفيأون فى ظلال الدور ، ولا يطيقون لفح الشمس من بعيد ، وكان بلال على الرمضاء فى درعه ، ومن فوقه أحجار تمنعه أن يتحرك ، وليس فى الناظرين اليه انسان فى قلبه بصيص من الرحمة، أو أمل فى مقدرة العبد على احتمال ذلك العذاب والنجاة من الهلاك .

وكان بعضهم يتهكم به فيقول لصاحبه : لقد فاح شواء العبد ، فيرد صاحبه بقوله : شواء لكنه طعام للكلاب ، فيقهقه الاخرون .

واذا بهم يسمعون صوتا قويا يردد : أحد ، أحد ، فينظرون الى بلال فاذا هو حى يقظ قوى الروح ، شديد العزم ، فيصيح به أمية : اكفر بمحمد والعنه لنطلقك ، فيقول بلال : آمنت بالله ، وصدقت محمدا، وكفرت بالاصنام وكذبتها ، أحد ، أحد .

فيزداد القوم غيظا ، ويتسابقون فى رمى بلال بالحصا والاحجار الصغار ، ولكنهم لا يسمعون منه غير كلمة التوحيد .

---

(١) الرمضاء : الأرض الشديدة الحرارة من شدة وقع الشمس عليها .

وكان النبى عليه الصلاة والسلام قد سمع بما يلقى بلال ، فحدث أبا بكر فى أن يذهب الى أمية فيشتريه منه ، فأسرع أبو بكر ، فوجد بلالا فى شبه اغماء ، وهو يردد كلمة أحد أحد ، فلام القوم على قسوة قلوبهم ، وضلال عقولهم ، واشتد فى لومه لامية بن خلف ، فقال له أمية : أنتم أفسدتم علينا عبيدنا يا أبا بكر ، فقـــال له أبو بكر : بعنى بلالا ٠

فرضى أمية أن يبيعه ، واشتراه أبو بكر ، ثم أعتقه ٠

صار بلال السيد الحر من أعظم رجال المسلمين مكانة عند النبى وصحبه ، وكان من أشدهم حبا للرسول ، ووفاء له ٠

اختاره أبو بكر خازنا على أمواله ، كما أختاره النبى خازنا ، وكثيرا ما عهد اليه النبى بتفريق ماله ، وقال له : أنظر حتى تريحنى منه ، يا بلال عش فقيرا ، ومت مع الفقراء ٠

ولقد صحب بلال النبى فى غزواته ، وكان يسرع الى تظليله اذا اشتد الحر ، ويتردد بين قبته وميدان الحرب اذا استحر القتال ، ليطمئن على سلامته ٠

وان المسلمين ليذكرون بلالا كلما استمعوا الى الاذان ، فقـــد كان أول مؤذن وأحب مؤذن ٠

كان أول أذان له يوم فتح مكة ، اذ أمره النبى أن يؤذن على ظهر الكعبة ، فانطلق صوته الحلو القوى الخاشع ، يؤدى الاذان فى نبرات تهز القلوب ، ولعله جمع فى صوته وفى نبراته ذلك اليوم خشوع المؤمن، وفرح الظافر ، وألم الذاكر ما كان يحتمل من تعذيب ، ونشوة الاثير عند رسول الله ، وبهجة المطمئن الى رضوان الله ٠

مازال بلال مؤذن الرسول ، حتى قبض الرسول ، فسكت الطائر الصداح ، ورفض أن يؤذن بعد أن مات حبيبه رسول الله •

وكان المسلمون يلحون عليه أن يؤذن ، ويعيدون الالحاح فى مناسبات شتى ، فيأبى وهو يعلم حبهم له وشوقهم الى سماعه •

فلما ذهب الخليفة عمر بن الخطاب الى دمشق ، ولقيه بلال هناك رجا المسلمون عمر ليسأل بلالا أن يؤذن ، فسأله عمر ، فرضى ، ووقف فأذن •

هنالك اذن بصوته الحلو ، ونغمه الشجى ، وتقسيمه المناسب ، وخشوعه العابد •

وكان فى نبراته حزن الحبيب الذى رفض الاذان منذ مات حبيبه •

وهنالك بكى المسلمون ، وسالت الدموع على وجوه الابطال الذين لم يبكوا الا لله •

رحم الله بلالا •

لقد كان عظيما فى أخلاقه ، عظيما فى ايمانه ، عظيما فى جلده ، عظيما فى آذانه •

رحم الله بلالا •

فقد كان شجاعا بطلا من أبطال الاسلام •

(٣) مصعب بن عمير

كان مصعب بن عمير بن هاشم [١] يعيش فى مكة قبل أن يسلم مرفه العيش ، موفور النعمة ، فلما أسلم زهد فى متع الحياة ، واحتمل ألوانا من تضييق قومه عليه ، ثم هاجر الى الحبشة فيمن هاجروا ، معتصما بدنيه ، صابرا على شظف الهجرة .

ثم عاد من الحبشة ، واختاره النبى بعد بيعة العقبة الاولى ليكون أول مسلم يهاجر الى المدينة ، لينشر الاسلام بها ، ويعلم الناس القرآن [٢] ، فشرح الله صدور كثير من أهليها الى الاسلام ، وكان هذا هو التمهيد العملى لبيعة العقبة الثانية ، ثم لهجرة النبى وصحبه الى المدينة .

وفى يوم أحد كان مصعب يحمل لواء المسلمين ، وكان يثبت فى بطولة ، فأصابته ضربة بترت يده اليمنى ، فلم يعبأ بها ، وحمل اللواء بيده اليسرى ، فأصابته ضربة ثانية ، ولكنه لم يستسلم ، بل انحنى على اللواء بعضديه ، وضمه الى صدره وهو يقول : وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل .

ثم تكاثرت عليه الضربات ، فاستشهد ، وصعدت روحه الطاهرة الى ربها راضية مرضية .

ولما رآه رسول الله بين الشهداء ترقرق الدمع فى عينيه ،

وقال : لقد رأيتك بمكة ، وما بها أحد أرق حلة ولا أحسن منك ، ثم أنت اليوم مشعث الرأس ، فى بردة .

ثم أمر بدفنه .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣٤٤/١ والاصابة ٤٠١/٣ .
(٢) البخارى ١٦٧/٥ وسيرة أعلام النبلاء ٥٤/٢ .

(٤) الفارس الملثم

مضى على أبى محجن الثقفى دهر طويل فى الجاهلية ، وهو يعاقر الخمر ، ويسبأ زقاقها للندامى [1] ، ويباهى بمجالس الشراب ، وما تكلفه من سرف .

وكان كثير من الاثرياء على هذه الشاكلة فى العصر الجاهلى ، يدمنون الشراب ، ويتسابقون الى الميسر ، ويعيبون من يتجافى عن الشراب والميسر ، بل كانت الخمر لذة ومتعة لكثير من غير الاثرياء ، يزعمون أنهم يجلبون بها المسرة ، ويدفعون الهموم ، ويتسلون عن بعض ما ينزل بهم من أحداث .

ثم أشرق الاسلام ، وشرح الله صدر أبى محجن ، فأسلم سنة تسع من الهجرة ، وكان مخلصا فى اسلامه ، لم يرد به وطرا من أوطار الدنيا ، ولم يتخذه وسيلة للنجاة من خطر يتوقعه .

كان السبب فى اسلام هذا الفارس المقدام الذى طار صيته فى الجاهلية بالبطولة والجود ، أنه فكر فيما يعبد قومه من أصنام وأوثان وكواكب وأشجار ، فأيقن أنها مخلوقات لا تجلب نفعا ، ولا تدفع ضرا ، ولا تسمع دعاء ، ولا تملك لنفسها من الامر شيئا .

وفكر فى الدعوة التى أذاعها محمد صلى الله عليه وسلم ، فوجدها الحق والصدق والخير ، وعرف أن الاسلام هو الذى يسمو بالنفس

(*) البطولة والأبطال ١١٧ وقد أضاف القلم خيالا لا يتجاوز الحقيقة والأصل فى الكامل لابن الأثير ٢٣٢/٢ وتاريخ الطبرى ١٣٨/٤ والأغانى ١٣٨/٢٠ .

(١) يشترى أوعيتها لرفقائه على الشراب .

والعقل ، ويطهر الروح ، ويرفع البشر من حضيض الخرافة الى أوج المعـــرفة •

ونظر فرأى المسلمين اخوة فى السراء والضراء ، ورآهم أكرم العرب أخلاقا وأرضاهم نفوسا ، وأشدهم بأسا عند اللقاء ، وأكثرهم رحمة فيما بينهم ، وفيما بينهم وبين الناس اذا ما نشر السلام لواءه •

ثم نظر فرأى أنه قد أسلم أعظم العرب أحلاما ، وأرجحهم رأيا ، وأبعدهم عن الظنة [1] ، وأرفعهم قدرا فى عيون الناس •

ورأى أكثر الشجعان الذين كانوا قد عاندوا الاسلام ، شرح الله صدورهم فأسلموا ، وجعلوا يذودون عن الاسلام بأشـــد مما كانوا يعـــادونه •

فكر أبو محجن فى هذا كله ، وماجت نفسه بنوازع الخير ودوافع الشر ، ثم غلب رشده ضلالة ، فأسلم وحسن اسلامه •

لكنه مكث مدة عبدا للخمر ، يغالب النزوع اليها فتغلبه ، ويتجافى عنها يوما ويعاقرها أياما ، فاذا ما صحا من شرابه لام نفسه ، لانه شرب ما حرمه الاسلام ، وعزم على ألا يعود ، ولكن ما يكاد موعد الشراب يقبل ، وما يكاد يرى حانات الطائف ، أو يرى زقاق الخمر الوافدة منها سرا ، حتى تذوب عزيمته ، فاذا هو يقبل على الشراب اقبال النهم [2] الظمآن •

وقد غبر [3] على ذلك حينا من الدهر وهو يستر أمره ، فلما كان عهد عمر بن الخطاب انكشف من أمر أبى محجن ما كان مستورا ، وكان

---

(١) الظنة : التهمة .
(٢) النهم : الجشع .
(٣)غبر : مكث .

عمر صارما فى عدله لا يمالىء حسيبا ولا عظيما ، فحد أبا محجن كما يحد غيره من سواد المسلمين •

لكن الحد لم يردع أبا محجن ، فحده عمر ثانية وثالثة ، فلما ضاق به نفاه الى جزيرة فى البحر ، وبعث معه حرسيا ليرافقه اليها ، ثم يسلمه لحاكمها ويعود •

كانت هذه العقوبة أقسى على أبى محجن من الحد المتكرر ، فما كان الحد ليحرمه الاقامة فى وطنه ، والانس بأهله وصحبه ، وما كان الحد ليوئسه من الشراب •

أما النفى الى الجزيرة النائية فانه حرمان من الاهل والاصحاب ، وحرمان من رؤية الكأس ولذة الشراب ، وهو لا يدرى أيعود من المنفى أم يقضى به نحبه ، ولن يجد به مجالا للفروسية ولا للصيد ولا لحمل السلاح ، وسيعيش به غريبا طريدا ، همه من الحياة أن يأكل الطعام ويشرب الماء ، ويستيقظ ليتثاءب ويتمطى ، كأنه همل من سواد الناس •

أخذت هذه الهواجس تتردد فى نفس أبى محجن وهو سائر مع الحرسى ، وكلما حدثه الحرسى فى أمر صمت مرة ، وأجاب مرة •

واذ كان من طبيعة الحاجة أن تفتق الحيلة ، فقد دبر أبو محجن حيلته •

وماذا عسى أن تكون حيلته الا الهرب ؟

ولكن كيف يهرب ؟ والى أين ؟

أما الهرب فليس بعزيز على مثله ، وهو الفارس المقدام الذى تسامعت العرب ببلائه فى الحروب ، ومهارته فى ممارستها ، وبراعته

فى الكر والفر ، فمن السهل عليه بعد أن أنس الحرسى اليه أن يتغفله فى جنح الليل بعد ما يعقد النوم جفنيه ، ويسرع براحلته الى الشرق •

وفى ذلك اليوم سار حتى أجهد راحلته ، وأجهد الحرسى وراحلته، وكلما عرض عليه الحرسى أن يستريحا ماطله ، حتى اذا أقبل الليل ، وبسط القمر نوره الهادىء على رمال الصحراء ، وصل سراه كأنما يريد أن يصل ليله بنهاره •

فلما أيقن أن الحرسى يغالبه النوم وهو على راحلته نزل ليستريحا ويريحا راحلتيهما ، ثم اضطجعا على الرمال يستمتعان بالراحة بعد طول عناء ، ويقلبان النظر فى النجوم اللامعة والقمر البسام ، ويستنشقان نسمات لطيفة لم يعهدا مثلها فى رحلتهما منذ غادرا المدينة •

وما هى الا ساعة حتى غط الحرسى فى نومة غطيط المستريح الامن، فقام أبو محجن خفيفا يسترق الخطأ ، وركب راحلته ، ومضى نحـــو الشرق فى طريق لا صلة له بالوجهة التى كانا يقصدان •

فالى أين يا أبا محجن ؟

أتفر من النفى كما يفر الجبان الهارب لا هدف له الا النجاة ؟

أترضى أن يقول الناس عنك : أجبن الناس ، بعد أن قالوا : أشجع النـــاس ؟

لا ،لا ، ان مرارة النفى لأهون من هذا الهرب المخزى ، فلتكن فى هربك بطلا كما كنت من قبل بطلا لا يهاب •

ماذا يمنعك يا أبا محجن من أن تسرع السير الى العراق ، فهنالك سعد بن أبى وقاص يقود الجيش الاسلامى فى محاربة الفرس ، وهنالك

ميدان البطولة ومجال الجهاد ، فلتقصد الى سعد ، ولتحارب فى صفوف المجاهدين البسلاء ، فان قتلت كفرت عن سيئاتك ، ولقيت ربك شهيدا ، وان انتصرت كان لك من نفيك شأن •

وبعد بضعة أيام كان أبو محجن عند سعد بن أبى وقاص ، وقص عليه قصته ، فكتب سعد الى الخليفة عمر يخبره ويستشيره ، فرد عليه بأن يحبسه حتى تنتهى الحرب ، وسيأمره بما يصنع به بعد •

فحبسه سعد فى حجرة علية بركن من قصره ، وألح عليه أبو محجن فى أن يطلقه ويتخذه مع المحاربين ، فلم يستطع سعد الا أن ينفذ ما أمره به عمر ، ولعله خشى أنيهرب أبو محجن كما هرب من قبل ، فقيده بقيد من حديد ، ليطمئن الى بقائه فى محبسه •

مضى يومان على أبى محجن فى محبسه كأنهما عامان ، ثم أفاق فى فجر اليوم الثالث على جلبة وصياح وضوضاء ، وسمع رنين السلاح، فوقف لينظر من نافذة الحجرة ، فرأى المعركة دائرة بين العرب والفرس على مقربة من القصر ، فكاد يثب من الناقذة لو أنها تسعه ، وكاد يحطم القيد لو استطاع ، وكاد يكسر باب الحجرة لو قدر •

فماذا يفعل ؟

ان صدره يشتعل غيظا من رؤيته المعركة وهو قريب منهـــا غاية القرب ، ولكنه بعيد عنها غاية البعد ، وان عينيه لتقدحان بالشرر، وأنفاسه لتتوالى فى لهفة ، وقلبه ليدق فى عنف ، فصاح صيحات عاليات ، ثم دق الباب دقات قويات ، ونادى : أدركينى يا ســـلمى بنت أبى حفص ، أدركينى يا زوجة القائد البطل سعد •

فصعدت اليه سلمى وكلمته من وراء البـــاب : ماذا بك يا أبا محجن ؟

قال : هل لك فى خير يا سلمى ؟

قالت : وما ذاك ؟

قال : تخلين عنى ، وتعيريننى فرسا وسيفا .

قالت فى دهشة : وماذا تفعل بهما ؟

قال : أخرج الى الحرب ، ولك على عهد الله أن أرجع اليك ان سلمت فتضعى رجلى فى القيد كما كنت .

فاعتذرت سلمى ، ومضت ، فناداها ، فلم تستجب لندائه .

فنظر الى محبسه فأحس أنه يضغط على صدره حتى ليكاد يعصره عصرا ، ودلف [1] الى النافذة ، فرأى الحرب قد ازدادت شدة ، ورأى فرسان المسلمين يتسابقون الى لقاء الفرس ، فيستشهد بعضهم ، ويمرق بعضهم من الموت فى مهارة ، وحز فى نفسه أن الفرس ذوو عدد أكثر وعدد أوفر ، فعاد الى صياحه بسلمى بنت أبى حفص ، فصعدت اليه ، وقالت له فى برم [2] وعنف : ماذا تريد يا أبا محجن ؟ ليست الساعة ساعة صياح .

فقال لها فى صوت جهورى ونبرات باكية :

كفى حزنا أن ترتدى الخيل بالقنا ... وأترك مشدودا على وثاقيـا [3]

اذا قمت عنانى [4] الحديد وغلقت ... مصاريع من دونى تصم المنـاديا

---

(١) دلف : مشى متثاقلا لأنه مقيد .
(٢) برم : ضيق .
(٣) ترتدى : تسرع .
(٤) عنانى : أتعبنى ومنعنى .

وقد شف جسمى أننى كل شارق — أعالج كبلا مصمتا قد برانيا [1]
حبيسا عن الحرب العوان وقد بدت — واعمال غيرى يوم ذاك العواليا [2]
ولـــه عهـــد لا أخيس بعهـــده — لئن فرجت ألا أزور الحوانيا [3]

فلما سمعت ذلك سلمى رق قلبها ، وشعرت أن الرجل صادق فيما يعد ، وأنه ربما عجل بالنصر ، فكان من أسباب عودة زوجها مظفرا ، وأملت أن يفى بوعده ، فيترك الخمر التى كانت السبب فى حبسه •

فقالت له : يا أبا محجن ، انك لتعلم صرامة سعد ، وتعلم شدة عمر ، وانى لمخاطرة بنفسى فى تحقيق طلبك ، واثقة من عودتك ، ولقد استخرت الله ورضيت ، فانظر ماذا تفعل •

فكرر لها عهده ، وأقسم ليعودن ان سلم •

ففتحت له الباب ، وفكت له القيد ، وأطلقته ، فنزل مسرعا وهى تلاحقه ، وقربت له فرسا ، وأعطته سيفا ، فتلثم ووثب الى ميدان القتال يشق الصفوف ، ويهجم على الفرس وهو يزأر ، فيتراجع أبطالهم ، وتنكب مقاتلتهم على رءوسهم ، وجعل يضرب بسيفه يمينا ويسارا ، وكلما همت جماعة أن تحصره وتضيق عليه النطاق بددها تبديدا ، وكلما نهد [4] له بطل مغوار أرداه أبو محجن صريعا ، والمسلمون لا يعرفون من هذا الفارس الملثم ، وتحدثهم نفوسهم أنه جنى انشقت عنه الارض، أو مدد هبط من السماء فى صورة بطل ، وكلما رأوه يأتى بالاعاجيب زادوا حماسة وبسالة ، وازداد سعد ثقة فى النصر •

---

(١) كل شارق : كل صباح . الكبل : القيـــد .
(٢) العوان : الشديدة . العوالى : الرماح .
(٣) لا أخيس : لا أغـــدر . الحوانى : جمـــع حانة وهى الدكان والمراد الخمـــارة .
(٤) نهـــد : برز .

ولم يلبث سعد أن وقع فى مأزق بين عدة أبطال من الفرس ، وكان أقرب ما يكون الى أن يقتل ، فأخذ يضرب ضربات الشجاع المستميت ، واذا بالفارس الملثم يدركه ، فيساعده فى تبديد الفرس وقتل عدة من فرسانهم ، واذا الفرس يندحرون ، ويفرون ناجين بحياتهم ، وينتصر المسلمون •

ثم يرجع المسلمون الى معسكرهم وهم فى دهشة من الفارس الملثم ، ويبحثون عنه فلا يجدونه ولا يعرفونه ، فتزداد حيرتهم •

وان سعد بن أبى وقاص لأشدهم شوقا الى معرفته ، وأعظمهم اعجابا به ، ولكن عاد الى قصره ولم يعرف من أمر ذلك الفارس الملثم شيئا ، فأخذ يفكر فى أمره ، ويأمل أن يعرفه غدا ان كان اليوم قد أخفى نفسه • وكان أبو محجن قد انسل الى القصر ، وأعاد الفرس الى مكانه ، ورد السيف الى سلمى ، وذهب الى محبسه فوضع رجليه فى القيد ، وأقبلت اليه سلمى معجبة بما رأت من بطولته ومن وفائه ، فلم يزد على أن قال لها :

لقد علمت ثقيف غير فخر	بأنا نحن أكرمهم سيوفا
وأكثرهم دروعا سابغات	وأصبرهم اذا كرهوا الحتوفا
فان أحبس فقد عرفوا بلائى	وان أطلق أجرعهم حتوفا

فقالت سلمى : يا أبا محجن ، فى أى شىء حبسك سعد ؟ قال : أمره عمر أن يحبسنى ، لأنى كنت صاحب شراب فى الجاهلية ، فلم أطق أن أتركه فى الاسلام •

فقالت : لأنت أجدر بأن تترك الشراب يا أبا محجن • فطأطأ رأسه وقال : وكيف ؟ وأنا القائل :

اذا مت فادفنى الى أصل كرمه	تروى عظامى فى التراب عروقها
ولا تدفننى بالفلاة فاننى	أخاف اذا ما مت ألا أذوقها

فقالت له : ذلك كان فى جاهليتك يا أبا محجن ، عفا الله عما كان فيها ، أما فى الاسلام فلا • ليست البطولة يا أبا محجن فى أن تنازل الابطال فحسب ، بل البطولة أيضا فى أن تنازل أهواء النفس ونوازع الشر ، وليس الجهاد فى أن تقهر الاعداء فى ميدان الحرب فحسب ، وانما الجهاد أيضا فى أن تدمر شيطانك ، وتملك زمامك ، ألم تسمع النبى صلى الله عليه وسلم يسمى جهاد النفس الجهاد الاكبر ؟

فأطرق أبو محجن وهو يسمع ما تقول سلمى ، وأحس بضعفه أمام قوتها ، وبضلاله أمام هداها ، وتفتحت نفسه لأن يتلقى الحكمة من امرأة أضعف منه مقدرة على احتمال ويلات الحرب ، بل هى أضعف منه قدرة على تحمل صعاب شتى يحتملها الرجال فى السلم ، فما لهذه المرأة أقوى منه شكيمة ، وأمضى منه عزيمة ، وأعمق ايمانا ؟

ثم رفع أبو محجن رأسه ، ونظر الى سلمى نظرة المدرك لقولها • المعجب بحديثها ، النادم على ما فرط منه • وقرأت سلمى فى عينيه ما يدل على ندمه ، وأنه سيتوب عن الشراب ، فأسرعت الى حجرتها تنتظر أن يفرغ سعد من مجلس قواده •

فلما فرغ سعد مضى الى زوجته ، فتلقته فرحة مرحة ، وقالت له : سلمت يا سعد ، وهنيئا لك النصر فى معركة لم تروا أعنف منها ، ولا أشد هولا •

فقال سعد : أو شهدتها يا سلمى ؟

قالت : نعم ، وأعجب بما بذلت من ضروب الشجاعة والحيلة، ورأيت ذلك الفارس الملثم الذى نزل الى الميدان فأبلى أعظم البلاء ، وشاهدته وقد أقبل نحوك فى المأزق ، فبدد معك الأساورة [1] حتى انكسروا •

---

(١) الاساورة : جمع أسوار وهو قائد الفرس •

فقال سعد : نعم يا سلمى ، كانت أعنف معركة خضناها ، وانى لفى حيرة من ذلك الفارس الملثم ، فانى لم أستطع أن أعرفه ، وعجز جنودى جميعا عن معرفته • فابتسمت سلمى وقالت : أو تريد أن تعرفه ؟

قال سعد : نعم نعم •

قالت : ويسرك أن تعرفه ؟

قال : نعم نعم •

قالت : ولا تغضب اذا عرفته ؟

قال : لا ، لا ، وكيف أغضب وأنا به معجب ، وله شاكر ؟

قالت : انه أبو محجن • وقصت عليه ما طلب : وأنها وجدت الخير فى اجابته الى ما طلب •

فقال سعد : خيرا فعلت يا سلمى •

وبعث الى محجن من يطلقه ويحضره ، وشكر له شجاعته وبلاءه ، وسأله عن السبب فى الحاحه أن يشهد المعركة ، وقد كان بنجوة منها •

فقال له أبو محجن : لشد ما كنت أحزن وأشعر بالصغار والمذلة اذ أراكم تقاتلون الاعداء ، وأنا فى محبسى لا أخوض المعركة معكم ، ولو لم تستمع سلمى لتوسلى لمت غيظا •

ولقد أملت أن ينتصر جيش المسلمين فيكون لى شرف المشاركة فى النصر ، أو أستشهد فأنال أجر الشهداء ، وسكت قليلا ، ثم قال : وددت أن يغفر الله لى بجهادى ذنب الخمر التى حدنى عمر فيها مرات ، ثم نفانى •

قال سعد : يغفر الله لك يا أبا محجن ، أما أنا فلن أحدك فى شربها أبدا •

فابتـــدر [1] أبو محجن قائـــلا : أما اذ قلت ذلك فأنا والله لن أذوقها أبدا •

فقال سعد : لأنت جدير يا أبا محجن بثقتى ، وجدير بأن أكتب الى أمير المؤمنين بما رأيت منك وسمعت •

---

(١) ابتدر : أسرع .

(٥) وأمعتصـــماه

كانت حدود الامبراطورية البيزنطية تتاخم حدود الدولة الاسلامية، ولطالما دارت المعارك بين العرب والروم فى عهد بنى أمية وفى عهد بنى العباس ، ولطالما أوقع بهم من بعد سيف الدولة بن حمدان ، وتغنى بنصره الشاعر الكبير أبو الطيب المتنبى •

فلنرجع القهقرى [١] الى القرن الثالث الهجرى ، لنجد الخليفة المعتصم فى قصره بسامرا ، حيث الحضارة التى كانت زينة عصرها ، وهو جالس على أريكته ، مرتفق على وســـادة ظاهرها زخارف من الدمقس والقصب المذهب ، وباطنها من ريش النعام ، ومن خلفه ستائر من القطيفة الحمراء تتدلى منها ذلاذل [٢] ملبسة بالشبه [٣] كأنها العناب ، ومن أمامه أعمدة البهو الفسيح لا تمل العين النظر الى رخامها المجزع [٤] ، وما فى ذوائبها [٥] وقواعدها من زخارف وحلى •

وحول المعتصم بعض قواده وحاشيته يتحدث معهم فى حربه المقبلة للدولة البيزنطية اذ انتهز الامبراطور (توفيل) اشتغال المعتصم بالقضاء على ثورة بابك الخرمى ، وأغار على أملاك المسلمين ، ودخل زبطرة وقلطية، وأحرق المنازل ، وقتل الرجال ، وسبى النســـاء والذرارى ، وعذب الاهلين عذابا أليما ، ومثل بهم أشنع تمثيل ، وتقدم حتى دخل سورية •

(*) البطولة والابطال ١٤٨ وقد أضاف القلم خيالا لا يتجاوز الحقيقـــة الاصل فى تاريخ الطبرى ١٠/٣٣٤ والاغانى ١٧/٤٦ •

(١) لنرجع الى الوراء .

(٢) ذلاذل : أطراف مدلاة .

(٣) الشبه : النحاس الاصفر .

(٤) المجزع : الذى به خطوط .

(٥) الذوائب : الاعالى .

وبينما هم يتحدثون أقبل رجل عربى من آسيا الصغرى ، فأسرع يطلب لقاء المعتصم ، واستأذن فأذن له ، فصمت الجالسون فى انتظار ما يحمل هذا القادم من أنباء ، واذا بالرجل يقصد الى الخليفة قدما ، فيحييه ، ويسأله المعتصم عن أنبائه ، فيصمت ويغالب همـا مكتوما ، فيصيح فيه المعتصم أن يجهر بما فى نفسه ، فيقول : يا أمير المؤمنين ، كنت بزبطرة ـ مسقط رأس المعتصم ـ فرأيت بسوقها امرأة عربية مسلمة مهيبة جليلة تساوم روميا فى سلعة ، وحاول أن يتغفلها ، ففوتت عليه غرضه ، فأغلظ لها ، فردت عدوانه بمثله ، فلطمها على وجهها لطمة كادت تنخلع منهـا أسنانها ، وتجحظ [1] عيناها ، فصاحت فى لهفـة : وامعتصماه [2] ، فقال الرومى فى سخرية : وماذا يقـدر المعتصم أن يفعـل ؟ انتظريه أيتها الحمقـاء حتى يجىء اليك على فرس أبلق [3] وينصرك •

فقال المعتصم : وماذا فعلت أنت ؟

فأجاب الرجل : سللت سيفى لأطوح بعنقه ، فأحاط الروم بى ، وغلبت كثرتهم شـجاعتى ، فكدت أنشق من الغيظ ، ثم واسيت المرأة المسلمة ، وأقسمت لها لأبلغن أمير المؤمنين نداءك ، فتندر الروم بنا ، يحسبون أنهم يتقون بأسك بحصونهم المنيعة ، فأنذرتهم سوء العاقبة •

عندئذ أربد [4] وجه المعتصم ، وبدا الغضب فى نظراته ، وقطب الجالسون معه ، وتململوا فى مقاعدهم كأنما نهشتهم حيات ، وهموا بأن يتكلموا ، لكنهم تركوا للمعتصم أن يتكلم ، واذا هو ينظر الى ناحيـة

---

(١) تجحظ : تبرز •
(٢) أستغيث بالمعتصم •
(٣) أبلق : فيه سواد وبياض أو ارتفع تحجيله الى رجليه •
(٤) أربد : تغير واغبر •

عمورية — سقط رأس الامبراطور — قائلا فى ثورة : لبيك أيتها المرأة الحرة ، لبيك ، لقد سمع المعتصم صيحتك ، ولبى نداءك ، ولسوف يعلم الروم أن استغاثتك خرجت من قلبك الى قلبه •

وكان قواده مثله حماسة ونخوة وحمية [1] ، فأمر بتجهيز جيش فى اثنى عشر ألف فارس على أثنى عشر ألف فرس أبلق •

سار المعتصم بجيشه اللجب [2] فى فصل الربيع من سنة ٢٢٣ هـ (٨٣٨ م) الى طرسوس ، وقسم جيشه ثلاث فرق ، ففتح أنقرة ، ثم زحف الى عمورية وكانت منيعة الحصون ، عالية الأسوار ، قاومت خمسة وخمسين يوما ، فألح عليها بالمجانيق والسهام والعرادات [3] ، فلم تخضع له ، ولم يظهر من أبوابها أو شرفاتها أحد ، كأنها مدينة حصينة للموتى لا للأحيـــاء •

ولكن المعتصم لا ييأس ، ولن يعـــود الا بعد أن يحقق وعيـــده ووعده [4] ، فاقترب بطلائع جيشه الى السور ، وشدد الضرب ، فبرز له رجل من كوة وقد لبس سلاحه ، ونادى : قد طال حصاركم لنا ، فليبرز الى منكم رجلان بل ثلاثة بل أربعة ، وجعل يزيد الى العشرين •

فقال المعتصم : من له ؟ فتسابق القواد الكبار ، كل منهم يريد أن يبرز الى هذا الرومى المغرور ، فضج المتطوعون ، وقالوا : ليحفظ أمير المؤمنين قواد جيشه ، وليأذن لنا أن نبرز ، فاننا قوم متطوعون لا بأس على الجيش من أن نفنى فأذن المعتصم لعشرين منهم ، فأتوا اليه وحدثوه

---

(١) النخوة : العظمة والعزة . الحمية : الانفة .
(٢) اللجب : العظيم .
(٣) المجانيق : جمع منجنيق : آلة ترمى بها الحجارة . العرادات : جمع عرادة : آلة أصغر من المنجنيق .
(٤) الوعيد فى الشر والوعد فى الخير .

بأن قواده مشهورون بالبأس والنجدة وممارسة الحروب ، فاذا خرج واحد منهم فقتل الرومى لم يكن فى ذلك نصر ذو قيمة ، وان قتله الرومى كانت سبة ونذير وبال واضعافا لحماســة الجيش ، ورجوه أن يدعهم ليختـــاروا هم رجلا من بينهم ، فيخرج الى الرومى المغرور ، وقالوا للمعتصم : ان ظفر رجلنا علم الرومى أننا قد ظفرنا بأعزهم وأقواهم على يد رجل من عامتنا ، فيضعف ذلك من قوتهم ، ويزلزل ثقتهم فى أنفسهم ، وان قتل رجلنا فانما استشهد أحدنا ، ولم يؤثر فقده فى عسكرنا ، ثم يخرج اليه رجل ثان أو ثالث الى أن نفنى نحن العشرين •

قال المعتصم : لقد استصوبت رأيكم هذا •

فاختاروا رجلا منهم كان معروفا ببأسه ونجدته ، فقال له المعتصم : أتخرج ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، وأستعين بالله •

قال المعتصم : أعطوه فرسا ورمحا وسيفا وترسا •

فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ، أنا بفرسى أوثق ، ورمحى بيدى أشد وأطوع ، ولكنى قبلت السيف والترس •

ولبس الرجل سلاحه ، واستدناه المعتصم وودعه ، ودعا له ، وخرج ومن ورائه تسعة عشر مقاتلا ، فلما دنوا من السور قال لهم الرومى : جئتم بأقصى عدد طلبته ، ولكن لا بأس ، سأنازلكم جميعا •

فقالوا : ليس يبارزك منا الا رجل واحد •

ثم برز الرجلان ، وقد أشرف أكثر الروم من الحصون والاسوار ، حتى ظن المسلمون أنه لم يبق أحد الا أشرف • وأخذ الجيش الاسلامى يتطلع فى اشفاق ، وجعل الرجلان يتطاعنان ويتضاربان ولا يخدش أحد

منهما صاحبه ، ثم تحاجزا بصخرة ، فزج [1] كل واحد منهما رفيقه برمحه، ثم شهر سيفه ، وتجالدا طويلا حتى اشتد الحر عليهما ، وكل فرساهما ، وكلما ضرب العربى خصمه الرومى الضربة التى يرى أنها القاضية اتقاها الرومى بترسه الصلب ، فيسمع له صوت منكر .

وما راع المسلمين الا أن العربى يجرى القهقرى ، فاكتأبوا كآبة مرة ، وقهقة الروم قهقهة السخرية والمسرة ، وتبع الرومى العربى ليدركه ويضربه من الخلف ، واذا العربى قد استدار فى سرعة البرق ، ورمى الرومى بوهق [2] ، فوقع فى عنقه ، وركض حصانه ، فسقط الرومى عن فرسه ، فعاجله العربى بضربة فصلت رأسه .

عند ذلك كبر المسلمون أعلى تكبيرة ، وأن الروم أوجـع أنين ، وأسرعوا الى الباب الضخم فأغلقوه .

ولبث المسلمون يحاصرون المدينة العصية ، وهى لا تريد أن تستسلم.

ولـما طالت اقامتهم حولها جمع المعتصم المنجمين [3] وسألهم ، فزعموا له أنه لا يفتحها الا فى زمن نضج العنب والتين ، فشق ذلك عليه وأغمه ، فانه لا يريد الا نصرا عاجلا يشفى به غيظه ، ويرد الى المرأة المسلمة المستذلة كرامتها وعزتها ، وما هى فى رأيه الا رمز لنساء المسلمين جميعا ، بل هى رمز للمسلمين وللمسلمات ، وكيف يحتمـل أن يروى التاريخ عنه أنه حاصر عمورية ، ثم عجز عن فتحها ؟

---

(١) زجه : ضربه بالحديدية التى فى أسفل الرمح .
(٢) الوهق : الحبل يرمى فى أنشوطة فيمسه .
(٣) المنجمون : الذين ينظرون فى النجـوم ليعرفوا مسيرها ومواقيتها ، والمراد هنا الذين يزعمون معرفة الغيب .

وجعل يتدبر فيما زعم المنجمون ، ويتذكر قوله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو » فتصغر فى عينه همته أن يصدق الخرافة ، ويغفل عن الحقيقة ، وينكر من نفسه أن ينسى قول الله تعالى ويسأل المنجمين عن غيب لا يعرفون من أمره شيئا ، ويستنكر من هؤلاء الذين جمعهم أن يهرفوا [1] بما لم يعرفوا ، وبما لن يعرفوا .

فجمع مستشاريه ، وكشف لهم عن رأيه هذا ، فلم يجد فيهم من عارضه ، أو راجعه فى شىء ، فقال لهم : عجبا لكم أنتم أيضا ، استشرتكم فى أن أسأل المنجمين فوافقتم جميعا ، ثم كاشفتكم بسوء رأيى فيهم ، فكنتم معى جميعا ، فلست أعرف رأيكم الخالص ، ألم يكن منكم من يراجعهم فيما زعموا ، أو يضعف عندى تكهنهم ؟

فاعتذروا بأعذار شتى ، سمعها المعتصم فى غير عناية ، ثم قال لهم : لا تنجيم ، ولا منجمين ، ولا انتظار بعد اليوم .

وصاح بالقواد صيحة عنيفة قوية صارمة : اجعلوا النار فى المجانيق ، وارموا الحصون رميا متتابعا .

ففعلوا ، وجعلوا الكتان والنفط على الحجارة ، وأضرموا فيها النار ، ورموا بها الحصون والأسوار ، فكانت النار تلصق بما تقع عليه فتشعله ، وتتطاير الاحجار شظايا كبارا وصغارا فتدمر وتهلك .

فانكمش الروم وبعدوا عن الاسوار ، فاقتحمها المسلمون ، وجاسوا خلال المدينة يقاتلون من تصدى لهم ، الى أن استسلمت عمورية ، وسلمت حصونها سنة ٢٢٣ هـ ٨٣٨ م .

---

(١) يهرفوا : يخرفوا .

وما زالت النيران تشـــتعل ، ودخانها ينعقد فى السماء ركاما [1] يحجب الشمس ، حتى ود الروم لو أنهم قد استسلموا من أول الامر ، وتمنوا لو أنهم لم يغيروا من قبـــل على زبطرة وقلطية ، ولم يفعلــوا بالمسلمين والمسلمات ما فعلوا ، وجعلوا يسخطون على امبراطورهم ، وعلى الرجل الرومى الذى اعتدى على المرأة العربية ، ويتمنون لو أنهم لم يتهكموا بالمعتصم • واضطر الامبراطور توفيل الى طلب الهـــدنة ، فهادنه المعتصم ، وعاد الى سامرا مكللا بالظفر •

وبعد أن هدأ الناس دعا المعتصم الرجل الذى بلغه صياح المرأة المسلمة واستغاثتها ، وقال له : أبحث عن المرأة وأحضرها ، فأحضرها الرجل ، ودخلت على المعتصم مشرقة الوجه ، باسمة الثغر ، مختالة بأن ثأر لها المعتصم ، فسلمت عليه ، ودعت له •

فقال المعتصم لها : هل أجابك المعتصم ؟

قالت : نعم ، حفظ الله أمير المؤمنين عزا للاسلام ، ومجدا للعرب ، ونصيرا للمظلومين ، ورعى الله ملكه ، وأيده بروح من عنده •

قال المعتصم : الآن أمرت بأن يحضر الرومى الذى لطمك وعابنا ان كان حيـــا •

فلما أحضر الرومى قال المعتصم للمرأة : هذا هو ؟

قالت المرأة : نعم ، واتجهت الى الرومى فى ازدراء قائلة : لطمة لامرأة حرة كان عقابها ما رأيت ، ها قد جاء المعتصم على فرسه الأبلق ،

---

(١) الركام : المتجمع .

فنصرني ، وأخزاكم أيها الروم جميعا • فلم ينطق الرومى ، ولم يرفع عينيه من الارض ، وكانت أسنانه تصطك [1] ، ومفاصله تريد أن ينفصل بعضها من بعض ، فانه كان لا يتوقع غير القتل •

ولم يرد اليه الأمل فى الحياة الا قول المعتصم للمرأة : الآن هو عبد لك ، وكل ما يمتلك صار ملكك أنت •

فقالت المرأة للمعتصم : أعز الله أمير المؤمنين ، حسبى من المجد أنك ثأرت لى ، وأن لطمتى كانت السبب فى سعادتى بلقائك ، وحسبى من الفخر أنك انتصرت ، ورددت خصومنا الى رهبتهم منا ، وتقديرهم لنا ، فهل يأذن لى أمير المؤمنين أن أعفو عن هذا الرومى ، وأن أدع له ماله ؟ فأعجب المعتصم بمقالها وبحسن رأيها ، وقال لها : لأنت جديرة بأن حاربت الروم ثأرا لك ، ولقد أذنت لك فى أن تصفحى عن الرومى وعن ماله ، ليعلم الروم أننا نحن المسلمين نعفو حينما نقدر •

الشعر يشيد بانتصار المعتصم

كان انتصار الخليفة المعتصم ثأرا للذين اعتدى عليهم امبراطور الروم فى زبطرة وقلطية وغيرهما ، وكان ردعا للروم من أن يستبيحوا حمى الدولة الاسلامية أو يستهينوا برجل منها أو امرأة •

وقد أشاد الشعراء بهذا الانتصار ، وكان أبو تمام أعظمهم اشادة وأبرعهم تصـــويرا •

وحسبنا أن نمثل بأبيات من قصيدته الطويلة •

---

(1) تصطك : يخبط بعضها بعضا •

بدأ أبو تمام قصيدته بالسخرية من المنجمين الذين زعموا للمعتصم أن عمورية لن تفتح فى هـذا الوقت ، وقالوا اننا نجـد فى الكتب أنها لا تفتح الا فى وقت نضج التين والعنب .

وتهكم بما كانوا قد زعموه من قبل وهو أن صفر ورجب شـهرا شؤم لا يأتيان بخير ، وأن كوكبا ذا ذنب سيقترب من الأرض فيقضى على من فيها :

السيف أصـدق أنبـاء من الكتب	فى حـده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف فى	متونهن جلاء الشـك والريب [1]
والعلم فى شهب الارماح لامعـة	بين الخميسين لافى السبعة الشهب [2]
اين الرواية بل أين النجـوم وما	صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصـا وأحاديثـا ملفقـة	ليست بنبع اذا عدت ولا غرب [3]
عجائبـا زعمـوا الايام مجفـلة	عنهن فى صفر الأصفار أو رجب [4]
وخوفوا الناس من دهيـاء مظلمة	اذا بدا الكوكب الغربى ذو الذنب

ثم نوه بالفتح فقال :

فتح الفتوح تعـالى أن يحيط به	نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتـح تفتـح أبواب السـماء له	وتبرز الأرض فى أثوابها القشب [5]
يا يوم وقعـة عمورية انصرفت	عنك المنى حفلا معسولة الحلب [6]

---

(١) الصفائح : جمع صفيحة وهى السيف العريض . الصحائف : جمع صحيفة والمراد كتب التنجيم .

(٢) شهب الارماح : الرماح التى كالشهب . الخميس : الجيش . الشهب السبعة : هى الشمس والقمر وزحل والمشترى والمريخ والزهـرة وعطـارد .

(٣) التخرص : الكذب . النبع : شجر صلب . الغرب : نبات رخو .

(٤) مجفلة : مدبرة .

(٥) القشب : الجديدة .

(٦) حفل : جمع حافل أى ملآن . الحلب : الحلبة من اللبن .

أبقيت جد بنى الاسلام فى صعد
والمشركين ودار الشرك فى صبب [1]

جرى لها الفأل نحسا يوم أنقرة
اذ غودرت وحشة الساحات والرحب [2]

لما رأت أختها بالأمس قد خربت
كان الخراب لها أعدى من الجرب

تدبير معتصم بالله ، منتقم
لله ، مرتقب فى الله مرتغب

لم يغز قوما ولم ينهد الى بلد
الا تقدمه جيش من الرعب [3]

ثم أشار الى استغاثه المرأة بالمعتصم فقال :

لبيت صوتا زبطريا هرقت له كأس الكرى ورضاب الخرد العرب [4]
أجبته معلنا بالسيف منصلتا ولو أجبت بغير السيف لم تجب [5]

وختم القصيدة بالدعاء للمعتصم ، وذكر أن انتصاره أعاد الى الأذهان انتصار المسلمين فى موقعة بدر :

خليفة الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والاسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال الا على جسر من التعب
ان كان بين صروف الدهر من رحم موصولة أو ذمام غير منقضب [6]
فبين أيامك اللاتى نصرت بها وبين أيام (بدر) أقرب النسب

---

(١) صبب : انحدار وهبوط .
(٢) يشير الى أن المعتصم فتح أنقرة قبل عمورية .
(٣) لم ينهد : لم ينهض ويبرز .
(٤) زبطريا : نسبة الى زبطرة . هرقت : صببت . الرضاب : الريق . الخرد : الحسان . العرب : جمع عروب وهى المرأة التى تتحبب لزوجها .
(٥) منصلت : مسلول .
(٦) زمام حق وحرمة . منقضب : منقطع .

(٦) قطز التتـار

هجم التتار على بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) فى حشود يموج بعضها فى بعض ، فخربوا عاصمة الخلافة تخريبا ، ثم عبروا نهر الفرات وساروا تلقاء الشام ، يدمرون المدن والقرى ، ويذرون الديار بلا قع .

فلما استقروا بحلب بعث رئيسهم هولاكو رسالة الى سلطان مصر قطز يقول فيها :

« لكم فى جميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا الينا أمركم ، فنحن لا نرحم من بكى ، ولا نرق لمن اشتكى .

خيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال » .

فماذا فعل قطز ؟

هل ارتجف عزمه ، وانخلع قلبه ، فآثر المسالمة والمهادنة ؟

لا ، لقد أمر أن ينادى فى مصر كلها بهذا النداء :

« ألا من كان يؤمن بالله ونبيه ، وبملائكته وكتبه ورسله ، وباليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره ، فليخرج لملاقاة أعداء الله » .

فلم يلبث المسلمون أن نفروا الى الجهاد ، وخرج السلطان قطز وزوجته وجيشه اللجب ، حتى بلغ الصالحية ، وهناك أشار عليه بعض

(*) السلوك للمقريزى الجزء الأول وبدائع الزهور لابن اياس الجزء الأول وتاريخ ابن خلدون الجزء الخامس وتاريخ الخلفاء للسيوطى وصبح الأعشى للقلشقندى الجزء السابع والثامن .

مشيريه بأن يتلبث حتى يقدم التتار ، فسفه السلطان رأيهم ، وقال لهم : بئس الرأى رأيكم ، أما والله ما حملكم على هذا الا الجبن والهلع من سيوف التتار أن تقطع رقابكم هذه التى سمنت من أموال الامة •

ألم تعلموا أن ما غزى قوم فى عقر دارهم الا ذلوا ؟ والله لأتوجهن بمن معى لقتال أعداء الله ، فمن اختار الجهاد منكم فليصحبنى ، ومن لم يشأ فليرجع الى بيته غير مأسوف عليه •

وكان هولاكو قد قفل الى بلاده ، واستخلف قائده (كتبغا) ، فأرسل جيشه الى حدود مصر يقوده (بيوزا) •

فاختار قطز أعظم قواده حماسة وخبرة وهو ركن الدولة (بيبرس) [1] ، والتقى الجمعان فى معركة ضارية ، تجلت فيها بطولة المسلمين الذين يشترون الحياة الآخرة بالدنيا ، فانتصروا ، وانكسر التتار •

ثم التقى قطز بالتتار — بعد صلاة الظهر فى الخامس والعشرين من رمضان ، وبعد تصعيد الدعوات الى الله — وبدأت هجمات المسلمين بنداء مثير يهز قلب كل مسلم ، ويثير غيرته وحماسته ، وهو : وا اسلاماه ، فانقض الجيش المسلم على قطعان الكفر ، وحمل السلطان قطز على (كتبغا) فقتله ، فاندحر التتار فى موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠م) حينئذ جمع قطز كتائبه ، وصلى شكرا لله ، ثم خطب فى جنوده قائلا :

---

(١) صار فيما بعد السلطان بيبرس وانتصر على التتار سنة ٦٧٠ و ٦٧٥ هـ •

لقد صدقتم الله الجهاد فى سبيله ، فنصر قليلكم على كثير عدوكم. أياكم والزهو بما صنعتم ، ولكن أشكروا الله ، وأخضعوا لقوته وجلاله ، وأعلموا أنكم لم تنتهوا من الجهـاد بعد ، وانما ابتدأتموه ، وان الله ورسوله لن يرضى عنكم حتى تقضوا حق الاسلام بطرد أعدائه من سائر بلاده ، ويومئذ يفرح المؤمنون .

ثم سير قطز سراياه تتعقب فلول التتار ، لتطهر منهم ديار الاسلام.

ولولا انتصار الجيش المصرى فى عين جالوت لأنزل التتار بالوطن العربى كوارث تحتاج الافاقة منها الى زمن طويل .

(٧) عمر مكرم

كان السيد عمر مكرم [1] مجاهدا بلسانه وبماله وبدمه ، يغار على دينه ، ويخلص لوطنه ، ويغضب لشعبه ، ويكلف بالعدالة مهما يحتمل فى سبيلها من مخاطر ومشقات ، فقد حارب مرات ، ونفى أربع مرات •

١ ــ ولد فى أول النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وتعلم فى الأزهر ، وتخرج فيه ، وكان محبا للقراءة والاطلاع ، لكنه لم يدرس بالأزهر ، أو يشتغل بالتأليف ، كما كان يطمح أمثاله ، بل جارى ميله الى الاشتغال بالسياسة ، ورعاية شئون قومه •

وقد عرفه الناس عالما بعيد الهمة ، عظيم النفس ، عفيف اليد ، كريما رحيما ، غيورا على حقوق قومه ، فأحبوه وأكبروه • وعرف الحكام عظمة نفسه ، وتقدير الشعب له ، فتقربوا اليه وأجلوه •

٢ ــ اعتمد عليه الاميران الحاكمان ابراهيم بك ومراد بك سنة ١٧٩١ م فى تهدئة الثورة عليهما ، فساعدهما ، وأعادهما الى الحكم •

ولكنه أخذ نفسه بالنصح لمراد بك أن يكف عن مظالمه وطغيانه • ثم شارك فى المعاهدة التى وقعها مراد وابراهيم وبقية الامراء بأن يعدلوا فى حكمهم ، ويرجعوا عن ظلمهم ، ويؤدوا الأموال لمستحقيها ، ويرسلوا الى الحرمين الشريفين نصيبهما من المال ، ويرفعوا الضرائب الجديدة عن الشعب ، ويكفوا أتباعهم عن العسف والنهب ، ويسيروا جميعا فى الحكم سيرة يرضاها الله •

---

(١) البطولة والابطال ١٥٤ (الاصل فى تاريخ الجبرتى وسيرة عمر مكرم لمحمد فريد أبو حديد والحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى) .

٣ ــ فلما ناداه الجهاد المسلح لباه ــ وهو ليس من رجال الحرب والقتال ــ فقاد الشعب مرات ٠

قاده فى صد نابليون عن مصر ، اذ هجم عليها ، وحكامها فى غفلة ، لم يعدوا وسائل الدفاع ، فاستولى نابليون على الاسكندرية ، وقصد القاهرة ، فخرج مراد وابراهيم للقائه ، ولكن السيد عمر مكرم لم يطمئن الى حماسة الأمراء ، فأهاب بالشعب أن يهب ليذود عن حماه ، وجعل يشجعه على النضال والاستبسال ٠ وقد كان الشعب لا يحتاج الا الى قائد يقوده وزعيم يهديه ، فلبى عمر تلبية سريعة راضية ، وخرج الذين فى القاهرة وضواحيها من شيب وشبان ، ليردوا عن عاصمتهم المغير الدخيل ، وتنافس القادرون فى السخاء بمالهم لشراء السلاح ، وجاد الفقراء بقوتهم ليحصلوا على سلاح ٠

وكان منظرا جديرا بالتقدير والاكبار أن نزل السيد عمر مكرم من القلعة الى بولاق ، يرفرف فوقه علم الجهاد ، ومن حوله ألوف من الشعب مسلحون بما قدروا عليه ، يزحمون السبل والرحبات ، وتتعالى فى الجو أصوات طبولهم ومزاميرهم وتهليلهم وتكبيرهم ٠ ولكن ماذا تجدى الحماسة والفداء فى حرب لا تكافؤ فيها بين المتحاربين ؟

وماذا تفعل الأسلحة القديمة فى مدافع نابليون التى لا عهد للمصريين بمثلها ؟

ولو أن الحرب كانت بالشجاعة وحدها لحق للمصريين أن ينتصروا ، ولكنها كانت حرب آلة ، وحرب خطة وصراعا بين الحديد والنار وبين الشجعان المحاربين بالارواح ٠

احتل الفرنسيون القاهرة ، فأبى السيد عمر مكرم أن يقيم فيها والغاصبون يحتلونها ، فهجرها هو وبعض اخوانه ، وأصروا على ألا يعودوا اليها الا ليستأنفوا الجهاد والكفاح ٠

وفيما هو بعيد عن القاهرة فى اقليم الشرقية والعريش ويافا كان يعلم أن الفرنسيين يشـــيدون به ، وأنهم اختـــاروه وهو غائب ليرأس الحكومة معهم ، ويودون أن يعود ليتصل بهم ، وكان يعلم ان سلامته فى أن يعود ، ولكنه رفض العودة ، وآثر أن يظل بعيدا عن القـــاهرة ، ليؤلب القوى على الفرنسيين ، ويعد العدة لطردهم من مصر •

ثم فتح نابليون يافا وقبض على من كان بها من المصريين ، وأرسلهم الى مصر ، وعاملهم بتكريم ، ومنهم السيد عمر مكرم ، وكان نابليون يبتغى من وراء ذلك أن يستميله ، ولكنه لم يزدد الا حمية وعزيمة وبغضة للاحتلال ، وتربصا به الى فرصة مواتية •

٤ ـ عاد السيد عمر الى القـــاهرة ، بل أعيد اليهـــا ، بعد أن غاب عنها ثمانية أشهر ، ثارت فيها ثورتها الاولى على نابليون ، فسكت حينا سكوت الحانق ، وربض ربوض الاسد ليستجم للوثوب ، ولكنه قنع من اظهار سخطه بأن رفض الاشتراك فى الحكم ، فلم يقبل أن يكون عضوا بالديوان الذى أنشأه نابليون ، ولم تسمح عزة نفسه بأن يطالب نابليون برد ما أغتصب من أملاكه •

وكيف تطاوعه نفسه أن يشـــارك أعداء الوطن فى حكمه ، أو أن يطلب منهم ارجاع أملاكه الخاصة اليه ، وهو يبغضهم ويأنف من أن يطلب منهم شيئا ؟

وبعد قليل سنحت الفرصة للزعيم الشعبى أن يجاهد أعداء الوطن بالسلاح مرة ثانية ، فقد اضطر نابليون الى الرجوع الى فرنسا خفية ، وخلف كليبر على الحملة ، فبدأت تترنح ، وحاول كليبر أن ينقذها ، فاتفق مع مراد بك ـ وكان معتصما بالصعيد الاعلى ـ على أن يكون هو حاكم الصعيد من قبل الحكم الفرنسى ، ثم فاوض الانجليز والترك

ليخرج من مصر ، وتمت المفاوضة سنة ١٨٠٠ ، فابتهج المصريون بقرب الجلاء ، واجتهدوا فى جمع المال المطلوب لنفقات رحيل الدخلاء .

وبينما الناس فى أمل وفى عمل اذا بالانجليز يرفضـــون شروط المفاوضة ، واذا بالجيش الفرنسى يحارب الجيش المصرى التركى ويهزمه عند المطرية فى ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ .

وعلم الشعب فى القاهرة بذلك فهاج ، وخشى أن يعود الفرنسيون الى حكم مصر ، وتطلع الى زعيمه السيد عمر مكرم ، وهتف به ، ولم يكن عمر بحاجة الى أن يدعوه الشعب ، فسرعان ما خرج من عزلته ، ليؤدى واجبه الذى طالما انتظره ، وانتهز فرصـــة غياب كليبر بأكثر جيشه فى مطاردة الجيش التركى بالشرقية ، وصاح فى الشعب أن يهب ، وآزره جماعة من الكبراء ، فهبت الثورة المصرية الثانية ، ودامت سبعة وثلاثين يوما ، تآزر فيها الشعب أغنياؤه وفقراؤه ، رجاله ونساؤه ، وكان عمر مكرم قلب هذه الثورة لا يهدأ ولا يفتر ، يتنقل بين أحياء القاهرة ، فيدبر الخطط ويشرف على تنفيذها ، ويشعل الناس حماسة ، ويشارك فى القتال على شيخوخته .

وفتقت [1] الحاجة الحيلة ، فأنشأ المصريون مصنعا للبارود ، وصنعوا بأيديهم المدافع والذخائر ، وكانت المصانع تعمل النهار كله ، والليل كله .

وكان الناس — على ما بهم من جهد — لا يخالفون لزعيمهم أمرا ، فاذا أمرهم بالقتال قاتلوا ، واذا طالبهم بالمال بذلوا ، فهم جميعا فى طاعته ، يعملون ما يأمر به ، ويعملون ما يصح أن يأمر به ، كأنما انتقل قبس من نفسه الى كل نفس .

---

(١) فتقت : شقت وفتحت .

ولقد بلغ من قوتهم أن أهل بولاق هزموا كتيبة من الجيش الفرنسى، وغنموا سلاحها وزادها •

فلما رجع كليبر الى القاهرة عزم على أن يقمع ثورتها بأقسى العنف ، فطوقها ، وحاصرها شهرا كاملا ، فلم يزدد المصريون الا بسالة وسخاء بالارواح والاموال وكثيرا ما هاجموا المحاصرين ليردوهم •

وكيف تفتر بسالتهم وزعيمهم عمر مكرم وأنصاره ينفخون من روحهم فى قلوب الناس ، ويحضونهم على الجلد والفداء ؟ فلم يكن عجيبا أن يئس الفرنسيون قبل أن يتسرب اليأس الى المصريين ، فأرسل كليبر الى عمر وأعوانه يطلب الصلح ، فأصر الشعب أنه لا صلح حتى يرحل الفرنسيون عن مصر ، أو يفنى المصريون فى الجهاد ، واستمروا فى الحرب الى أن عاندهم الحظ ، وأمطرت السماء مطرا مدرارا غرقت منه الشوارع فى الوحل ، وسالت بالمياه ، فعوقهم ذلك عن الحركة ، فهجم الفرنسيون على القاهرة من جميع نواحيها ، ورموا أطرافها بالنيران ، وساعدتهم الحصون الفرنسية التى بداخل المدينة ، فصوبت قذائفها الى الثوار وكانت نتيجة الثورة النبيلة أن سلمت القاهرة بعد أن دافع عنها أهلوها شبرا شبرا ، وأن اتفق الثوار مع كليبر على أن يخرج من القاهرة من أراد أن يخرج ، فكان عمر مكرم أحد الخارجين ، خرج من القاهرة ثانى مرة ، لانه أنف أن يقيم بها والعدو يحتلها • وفرض الفرنسيون على القاهرة غرامة فادحة جبوها بوحشية ، ونهبوا بيت الزعيم عمر مكرم وبيوت الزعماء الذين غادروا القاهرة معه ، ثم رحل الفرنسيون عن مصر فى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٠١ ، وعادت مصر الى الحكم التركى ، ورجع السيد عمر مكرم الى القاهرة ، فخرج الشعب للقائه والترحيب به ، وقد ازداد عظمة ونفوذا فى النفوس ، لانه مثل النضال والاباء ، ولانهم لم يجدوا من يستحق الزعامة سواه •

٥ ــ مضت فترة على عمر مكرم وهو معتزل فى داره ، ثم خرج من عزلته ليشارك أمته فى تحقيق مطلبها ، وليقودها الى حيث تريد ويريد لها •

وقد بدأ ذلك فى يوم ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ اذ اجتمع الزعماء فى أربعين ألفا من الشعب ، وقرروا اختيار محمد على واليا على مصر ، وكان عمر مكرم أول المنادين بتوليته ، وهذه أول مرة ينتخب فيها الشعب حاكمه •

وقد اشترطوا على محمد على أن يكون الحكم شوريا لا فرديا مطلقا ، وأن يرجع اليهم فى الشئون الجليلة ، وألا يفرض ضريبة الا بموافقتهم ، وأن يرحل الجيش التركى من مصر لتستقل ، وأن يسير فى حكمه على سنن العدل ومراعاة الصالح العام •

وأغلب الظن أن عمر مكرم واخوانه لم يختاروا واحدا منهم واليا على بلاده وقومه ، لان بوادر الشقاق والغيرة كانت قد دبت فيما بينهم ، فلم يكن بد من صراع بعضهم لبعض فى الوقت الذى يحتل مصر فيه جيش تركى وجيش انجليزى ، فأراد عمر مكرم أن يجنب مصر صراعا داخليا يجره الانقسام ، فولى محمد على •

٦ ــ لكن خطرا آخر لم يكن فى الحسبان هدد مصر وواليها غائب فى الصعيد ، وكأنما كانت المخاطر تنزل بمصر ليدرأها عمر مكرم ، فقد رسا الاسطول الانجليزى بالاسكندرية واحتلها ، ثم سار نحو رشيد ، وحاول الانجليز أن يغرروا بالاهلين فلم يفلحوا ، فتقاتلوا ، وانتصر المصريون ، وأسروا ، وعرضوا الاسرى ورءوس القتلى بالقاهرة فى موكب كبير • وتخوف عمر مكرم أن يهب الانجليز المعسكرون بالقاهرة ليثأروا ، أو أن يعاود الانجليز المرابطون بالاسكندرية هجومهم ، فنبه الشعب الى أن يتسلح ، ويتأهب للدفاع ، وأمر مدرسى الازهر وطلابه

بتعطيل الدراسة ، فلباه الشعب ، وتنادى للجهاد ، وتنافس فى التطوع ، وأنفق الاغنياء على الفقراء ، واستعد المصريون للمقاومة فى رشيد وفى القـــاهرة •

ولم يلبث ما توقعه الزعيم أن حدث ، اذ كر الانجليز على الحماد ، فهزمهم الشعب الباسل ، وقتل كثيرا ، وأسر كثيرا ، وعرض فى القاهرة رءوس القتلى مرة ثانية •

٧ ـ ثم استقرت الامور فى مصر ، لكن حياة الزعيم المجاهد لم تستقر • وكيف تستقر وهى تأبى الا أن تكون سلسلة من الكفاح ، أحيانا مع الاعداء ، وحينا مع الاصدقاء ؟

لقد كان عمر مكرم صاحب الفضل على محمد على فى اختيـــاره واليا ، وفى تذليل الصعاب التى اعترضته فى أول حكمه ، وكان محمد على يقربه أول الامر ، ويستمع مشورته ، ويلقبه بوالده ، لكن ذلك لم ينس الزعيم حقوق أمته عليه ، فانه ما كاد يجد محمد على يتنكر لمـــا عاهد عليه من العدالة والحكم الشورى ، فيثقل الشعب بالضرائب ، ويستبد بالحكم دون استشارة الزعماء ، حتى جعل يجهر بلومه على مسمع من الناس ، ثم تزعم الشاكين الساخطين ، فأرسل الى الوالى شـــكوى وقع عليها معه كثير منهم ، فبعث اليه الوالى ليقابله ، فرفض أن يسعى اليه الا بعد معرفة الاساس الذى يتفاوضان عليه ، ولم تنجح حيل الوالى فى أثنائه عن عزمه ، سواء فى ذلك الملاينة والمخاشنة ، حتى لقد عرض عليه قدرا كبيرا من المال ، وراتبا شهريا ضخما ، فرفض الزعيم أن يلقاه أو يصافيه الا أن يشترط على نفسه العدل فى الحكم ، ورفع الضرائب التى فرضها وحده •

لكن الوالى أرسل اليه يستدعيه ثانية لمقابلته ، فأبى ، وقال : فلينزل الوالى من القلعة الى بيت السادات ، ليلقانى هناك ، فتكون المقابلة بين ند ونده •

وكان من الطبيعى أن يغضب محمد على وأن يثور على عمر مكرم ، فأعلن أنه خلعه من نقابة الاشراف ، وأمر بنفيه الى دمياط ، فكيف تلقى الزعيم أمر الخلع والنفى ؟

أما الخلع فقد قال عنه : ان منصب النقابة لا خير فيه ، وانه قد استراح منه ومن متاعبه •

وأما النفى فانه لم يكترث به ، وقال : أود أن أنفى الى بلد لا يخضع لحكم محمد على ، فليكن النفى الى الطور أو السودان أو الى بلد آخر بعيد •

لكن محمد على أصر على نفيه الى دمياط ، وكان يوم رحيله من القاهرة ١٣ أغسطس سنة ١٨٠٩ يوما حزينا احتشـــد فيه ألوف من المصريين ليودعوا زعيمهم الابى ، ودموعهم تنهمر ، وعيونهم شاخصة الى السفينة المتجهة به صوب منفاه ، وسخطهم شديد على الوالى الذى نفـــاه •

قضى الزعيم فى المنفى ثمانى سنوات بين دمياط وطنطا ، لم يشك فيها الى محمد على ، ولم يعتذر أو يستعطف ، على شيخوخته وضعف جسمه وحاجته الى الحياة الوادعة •

ثم اذن محمد على فى أن يعود عمر مكرم الى القاهرة ، فعاد اليها سنة ١٨١٩ ، وهو فى السبعين من عمره ، فخرجت القاهرة لتتلقـــاه وترحب به ، لكنه كان محزون النفس ، ضائق الصدر ، فلم يهش لفرحة الشعب ، واعتكف فى داره ، ولم يسمح بزيارته الا لاخلص أصدقائه وأوفى أقربائه •

وقضى بالقاهرة ثلاث سنوات ضعفت فيها قوته وان لم تضـــعف عزيمته ، لكنه كان لا يشارك فى السياسة ، ولا يتصل بالناس غير أن

الناس لم ينسوه فكثيرا ما هتفوا به اذا حزب الأمر فماذا يمنعهم اليوم من أن يرددوا اسمه وهم يتبرمون بالضريبة الجديدة التى فرضها الوالى على مساكن القاهرة والقرى ؟

انهم ينقبون عن زعيم تتمثل فيه أصواتهم فلا يجدون غير السيد عمر مكرم •

وعلم محمد على بما يتهامس به الشعب ، وبما يفكر فيه ، فسبقه الى زعيمه ، وحال بين الناس وبينه ، فنفاه الى طنطا فى ٥ أبريل سنة ١٨٢٨ •

كانت هذه رابع مرة ينفى فيها أو يبعد نفسه ، غير أنها كانت الخاتمة ، فقد توفى فى العام نفسه ، غريبا عن العاصمة التى تزعمها ، ودافع عنها ، وغرس فيها بذرة العزة والكرامة والشجاعة والجهاد •

— ٨ —
أحمـــد عـــرابى

من ذلك المصرى الباسل الذى جهر فى وجه الخديوى توفيق بأن المصريين ولدوا أحرارا ، ولن يستعبدوا بعد اليوم ؟

من ذلك الزعيم الشعبى والقائد الحربى الذى جاهد ليصد العدوان البريطانى عن وطنه الحبيب ؟

انه المجاهد الأول فى مصر الحديثة ، أحمد عرابى [١] .

ولد سنة ١٨٤١ بمديرية الشرقية من أبوين مصريين ، ودرس بضع سنوات بالازهر ، ثم جند ، ورقى الى سلك الضباط ، وما زال يترقى حتى وصل الى رتبة (قائمقام) سنة ١٨٦٠ .

فلما تولى الخديوى اسماعيل الحــكم لم يقرب اليه الضـــباط المصريين كما كان يفعل سلفه سعيد ، فعاودللضباط الشراكسةالاستئثار بالنفوذ والسلطان والترقيات ، حتى سبق صغارهم كبار المصريين ، فتذمر أحمد عرابى منهذا الاجحاف ، وجعل ينبه الضباط المصريين على حقوقهم المهضومة ، ويدعوهم الى الاتحاد لدفع الجور النازل بهم ، فى كلمات حارة ، وحجج قوية ، ومنطق مؤثر أخاذ ، فشرعوا يتعلقون به ، ويقـــدرونه .

وحينما تولى توفيق رقاه الى رتبة (أميرالاى) سنة ١٨٧٨ ولكن هذه الترقية لم تضعف عزيمته ، ولم تشغله عن حقوق زملائه المغتصبة ، فكلما ازداد الشراكسة محاباة التهب عرابى غيظا وموجدة .

---

(١) البطولة والأبطال ١٦٤ (الأصل فى مذكرات عرابى والثورة العرابية لعبد الرحمن الرافعى وأحمد عرابى المفترى عليه لمحمود الخفيف والكافى لميخائيل شاروبيم) .

وكان وزير الحربية عثمان رفقى شركسيا فظا عدوا للمصريين ، فدبر الوسيلة لقصر الترقيات على بنى جنسه ، وحرمان المصريين منها ، وأراد أن يفل من قوى الضباط المصريين ، ففصل القائمقام المصرى أحمد عبد الغفار ، وأنزل الاميرالاى عبد العال حلمى الى وظيفة أصغر ودرجة أقل ، وعين أثنين من الشراكسة بدلهما •

حينئذ غضب عرابى غضبة الرجل العظيم الذى يعتزم على مقاومة الطغيان مهما تكن العاقبة ، فقال حينما علم بذلك : هذه لقمة لا يقوى عثمان رفقى على هضمها •

كان الغضب من هذا الحادث متبادلا بين عرابى وزملائه الضباط ، وكان قد شعروا بأنه الوحيد الكفء لزعامتهم ، فاجتمعوا فى داره من تلقاء أنفسهم ، وحدثوه فى طغيان وزير الحربية ، وبايعوه زعيما لهم ، وأقسموا على المصحف والسيف أن يفدوه ويفدوا مصر بأرواحهم ، فاطمأن اليهم عرابى ، واستبشر باجماعهم واباتهم ، وكتب فى الليلة نفسها (١٦ يناير سنة ١٨٨١) الى رئيس الوزراء رياض باشا يشكو من تعصب وزير الحربية ، ومن جوره على حقوق المصريين ، ويطلب عزله من الوزارة ، وتعيين مصرى فى مكانه ، ويطالب بانشاء مجلس نيابى من نبهاء الامة ، وابلاغ الجيش الى ثمانية عشر ألف جندى ، وبتعديل النظم العسكرية تعديلا يكفل العدالة والمساواة بين رجال الجيش ، ولم ينس أن يطلب اعادة أحمد عبد الغفار الى الجيش •

وما من شك فى أن هذه المطالب كانت قنبلة على الخديوى توفيق وعلى وزرائه ، لانهم لم يجابهوا بمثلها من قبل ، بل انهم لم يكونوا يتوقعون جرأة مثل هذه الجرأة ، لذلك لم يكد مجلس الوزراء يجتمع برياسة الخديوى حتى قرر محاكمة الضباط الثلاثة الذين تزعموا الحركة ، وهم أحمد عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى ، أمام مجلس عسكرى •

وسرعان ما قبض عليهم ، وسجنوا فى قصر النيل ، وشكل المجلس لمحاكمتهم برياسة الجنرال الانجليزى استون باشا رئيس أركان حرب الجيش المصرى • ولكن الضباط الاخرين الاحرار ما كادوا يعلمون بذلك حتى ثاروا ، وهبوا لانقاذ اخوانهم ، وكان أولهم محمد عبيد ، فأعلن فى جنوده أن يتأهبوا للسير ، ولم يعبأ بمعارضة رئيسه الشركسى خورشيد بسمى ، بل أمر باعتقاله فى حجرة بالمعسكر ، ومضى الضابط الباسل بفرقته الى قصر النيل ، ورآهم الخديوى فاستدعاهم ، فلم يستجيبوا له ، وأسرعوا الى قصر النيل فحاصروه ، وهجموا على الديوان فاقتحموه، وصيحات الجنود الأعزة تدوى ، ففر الضباط الشركس ، وقفز عثمان رفقى الوزير المتغطرس من نافذة الى مصنع الملابس ، وضرب وكيل الحربية واستون باشا وغيرهما ، وانبث الاشبال ينقبون عن الزعماء الثلاثة المعتقلين ، فكسروا الابواب ، وحطموا النوافذ ، الى أن عثروا عليهم فأطلق محمد عبيد سراحهم •

خرج الضباط الثلاثة فى موكب عظيم الى قصر عابدين حيث يقيم الخديوى ، وهناك لحق بهم الجيش المعسكر فى طرة وهو مسلح ، واحتشد الشعب فى الميدان ، ليشهد المنظر الرائع لجيشه الباسل المتحد المستهين بالمخاطر ، وخطب عرابى فى ذلك الحشد بصوت قوى تتميز فى نبراته العزة بيقظة مصر ، وبسالة بنيها ، ووفائهم بما عاهدوا الله عليـــه •

لم يجد الخديوى بدا من عزل وزير الحربية عثمان رفقى ، وتعيين محمود سامى البارودى خلفا له •

وقد كان لهذا النصر رنات بهجة فى الجيش وفى الشعب ، وكان باعثا آخر على عظمة عرابى فى نفوس الضباط وفى قلوب الشعب ، وشرع الناس يرددون اسمه ، ويفاخرون به ، ويتخذونه زعيمهم •

والحق أن الشعب كان يرزح تحت أثقال من المظالم ، ولا يجد الوسيلة للتحرر ، وكان يسخط على سياسة الحكومة مثل ما يسخط الجيش ، ويعيب من الوزارة استسلامها للأجانب ، وخضوعها للقناصل وتمييزها لغير المصريين •

وكان عرابى زعيم الشعب يشعر بما يشعر به الشعب ، فأخذ يتصل بالعلماء وبالاعيان والعمد ومشايخ القبائل ، ويبين لهم حاجة الحكم الى الاصلاح ، وينبههم على ضرورة الحكم النيابى • فلم يطمئن الخديوى توفيق الى هذه اليقظة ، فبيت الغدر بعرابى وبالحركة الناهضة ، فتلكأت الحكومة فى اصدار القوانين العسكرية التى اقترحتها لجنة الاصلاح ــ حينما كان البارودى وزيرا للحربية قبل أن يستقيل ــ وأمرت بنقل الفرق الموالية للحركة العرابية من القاهرة الى الاقاليم ، لتحل محلها فرق أخرى موالية للخديوى توفيق •

فماذا فعل الضباط الاحرار أنصار عرابى ؟

لقد رفضوا أن ينفذوا النقل ، لانهم يعلمون ما وراءه من اضعاف النهضة ، واخماد الشعلة ، واتفق عرابى وأنصاره على أن تجتمع فرق الجيش كلها بميدان عابدين فى مظاهرة عسكرية مساء الجمعة ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ •

وعلم الخديوى فارتعد ، وخاف عاقبة المظاهرة المسلحة ، وحاول أن يصرف عرابى والضباط عن التجمهر المسلح ، فرفضوا ، فذهب ومعه رئيس الوزراء رياض باشا الى جيش القلعة ليصرفه عن موالاة الحركة وعن التجمهر بساحة عابدين ، فوجده على أهبة المسير الى الاجتماع ، فتظاهر الخديوى بالقوة والشجاعة ، ولام الضباط على عصيانهم أمره ، وكان أحدهم على مقربة من رياض ، فأمسكه رياض من طوقه ، وقال له:

أمثلك يعارض أوامر الحكومة ، ويمنع تنفيذها ؟ فهاج الضباط والجنود، وصاح فيهم (البكباشى) محمد السيد أن يشهروا سلاحهم ، وأحاطوا بالخديوى ورياض صائحين : اترك البكباشى •

فلما رأى الخديوى ما رأى أمر رياضا بترك الضابط ، وقال له فى لهجة استعطاف : مر عسكرك أن ينصرفوا عنا ، ثم أخذ يتملق الضباط ، ويلاين الجنود بقوله : ألست خديويكم ؟ ألست ولى أمركم ؟ هل تأخر لاحد منكم راتب ؟ هل نقصت لاحد منكم مئونة ؟ هل حرم أحدكم حقه فى ملبس ؟ فلماذا جاهرتم بالعصيان وخالفتم أمرى ؟

لكن هذا كله لم يجد نفعا ، فلما يئس من اقناعهم اتجه الى جيش العباسية ليجرب الحيلة والخديعة معه ، فوجده قد نفر الى ميدان عابدين •

أسرع الخديوى الى القصر حانقا لا يكاد يصدق أن الجيش قد بلغ تمرده الى هذا الحد ، ولا يكاد يتخيل أن لعرابى نفوذا يطغى على نفوذه •

وكانت الفرق المعسكرة بالقاهرة قد تجمعت فى الموعد المحدد ، وكان عددها أكثر من أربعة آلاف جندى ، معهم مدافعهم وأسلحتهم ، وفى صدر كل منهم عزيمة تتوقد ، وفى نظراته شرر يتطاير •

كان أولئك الضباط والجنود هم قلب مصر الخافق ، ويدها الباطشة ، ومجدها المأمول •

وكان الشعب قد تسامع بخبرهم ، فخفت الجماهير لتحيتهم وتشجيعهم ، فكانت جموع على حفافى الميدان ، وحشود على أفواه الطرق ، وكتل متراصة فى شرفات المنازل ونوافذها وفوق سطوحها ،

وهم يتدافعون بالمناكب ، ويشرئبون ليشاهدوا معركة من معـــارك الكفاح الشعبى المنظم ، وليسمعوا الصيحة التى تنذر بأن الشعب قـد استيقظ وأفاق .

وهل شهدت مصر مظاهرة كهذه من قبل يحتشد فيهــا الجيش المصرى الخالص ليهدد الخديوى والحكومة ، ويجهر بطلبات الشـــعب وحقـــوقه ؟

وهل علمت مصر فى تاريخها السابق أن حرس الخديوى تخلوا عنه مختارين ، لينضموا الى اخوانهم المجاهدين المنادين بحقوق الشعب ؟

نظر الخديوى توفيق من نافذة القصر الى القوى المتجمعـــة ، وكان معه الوزراء وبعض قناصل الدول وبعض الاجانب ، فتهيب ، ثم حسب أن نزوله الى الميدان كفيل برد المتمردين عن تمردهم ، ولو أنه عقل لعرف أنه سيكون أشد عجزا من عجزه أمام جيش القلعـــة ، لكنه أراد أن يجرب آخر محاولة ، فنزل ومعه قنصل انجلترا والمراقب المالى الانجليزى .

وكان اللقاء بين الخديوى وعرابى جديرا بأن يخلد .

نعم كان يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ يوما منصورا فى تاريخ مصر الحديثة ، بما سبقه من عزة وفداء ، وبما ظهر فيه من بطولة ووطنية ، وبما وليه من يقظة الشعب وجهاده المسلح فى الثورة العرابية .

ولو أن مصر كانت فيما مضى حفية [١] بأيام مجدها لســجلت يومها ذلك فى سجل شرفها ، ولجعلته عيدا من أعيادها ، كما جعــل

---

(١) حفية : مهتمة .

الفرنسيون اسقاط الباستيل عيدا من أعيادهم . نزل توفيق الى الميدان، فنادى أحمد عرابى ، ولعله كان يتوقع أن يقدم عليه عرابى مترجلا ، ويمشى اليه فى تواضع واذعان ، لكن الزعيم خيب توقعه ، فاتجه نحوه راكبا جواده الابيض ، شاهرا سيفه المرهف ، ومن خلفه ثلاثون ضابطا شاهرون سيوفهم ، فلما دنا من الخديوى ترجل ، وأغمد سيفه ، ووقف أمامه وجها لوجه ، فى الوقت الذى أشار فيه مستر كوكسن الانجليزى على الخديوى أن يطلق عليه مسدسه ، غير أن الخديوى كان أعقل من أن يستجيب لهذه المشورة الحمقاء ، وقال لكوكسن : ألست ترى هؤلاء الجنود الذين يطوقوننا ؟

وأراد الخديوى أن يضعف من شجاعة عرابى قبل أن يحدثه ، فصاح فى الضباط الثلاثين الذين وراءه قائلا : أغمدوا سيوفكم يا ضباطى، وعودوا الى معسكراتكم .

فلم يطيعوا ، وثبتوا وراء زعيمهم يحرسونه ، وهنا دار هذا الحوار بين الخديوى وعرابى :

الخديوى : لماذا جئت بالجيش الى هنا ؟

عرابى : جئنا لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة ، وهى كلها طلبات عادلة .

الخديوى : ما هذه الطلبات ؟

عرابى : عزل رياض باشا من رياسة الوزراء ، وتشكيل مجلس النواب ، وابلاغ عدد الجيش الى القدر المعين فى الفرمانات السلطانية.
الخديوى : كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا خديوى البلد ، وأعمل كما أرى ، وما أنتم الا عبيد احساننا .

عرابى : لقد خلقنا الله أحرارا ، ولم يخلقنا تراثا وعقارا ، فو الله الذى لا اله الا هو لن نستعبد ، ولن نورث بعد اليوم •

عندئذ تخاذل الخديوى ، وخشى عاقبة النزاع ، فتقهقر الى القصر ، ثم عاد الى السير أوكلن كلفن والمستر كوكسن ، وتطوع هذا بمحادثة عرابى على أنه رسول من الخديوى •

كوكسن : ان عزل الوزارة من حقوق الخديوى ، وطلب تشكيل مجلس النواب ليس من حقوق الجيش ، وزيادة الجيش لا داعى لها الآن •

عرابى : أعلم يا حضرة القنصل أن طلباتى الخاصة بالشعب لم أطالب بها الا لأن الشعب نصبنى نائبا عنه فى المطالبة بها •

كوكسن : كيف ؟

عرابى : هؤلاء الجنود والضباط هم أبناء الشعب وممثلوه ، وهم قوته التى تنفذ ما يعود عليه بالخير • أنظر الى هذه الجموع الحاشدة خلف الجنود ، وأنظر الى الطرق والنوافذ والسطوح ، هؤلاء هم الاهلون الذين أنابونا عنهم فى المطالبة بحقوقهم •

كوكسن : هب أن الخديوى لا يستجيب لمطالبكم •

عرابى : أعلم اننا لن نتنازل عنها ، ولن نبرح مكاننا هذا حتى تنفذ •

كوكسن : أفهم من كلامك أنك تريد أن تنفذ مطالبكم بالقوة ، وهذا عمل يضر بلدكم •

عرابى : بلادنا نحن أبناؤها ، والحراص على سلامتها وخيرها ، ومن الذى يعارضنا فى شئوننا الداخلية ؟ اننا سنقاوم من يتصدى لمعارضتنا أشد المقاومة •

كوكسن : ستقاومون ؟

عرابى : نعم ، سنقاوم الى أن نفنى عن آخرنا •

كوكسن : وأين قوتكم التى ستقاومون بها ؟

عرابى : قوتنا موفورة ، وعند الحاجة نستطيع أن نحشد مليون عسكرى يلبون اشارتى ، ويحمون بلادهم بدمائهم وأرواحهم •

كوكسن : مليون جندى ؟

عرابى : نعم ، مليون جندى وأكثر ، عدتهم ايمانهم بوطنهم ، وثقتهم فى نفوسهم ، وسلاحهم الذى تصنعه أيديهم •

كوكسن : وماذا تفعل ان لم يجبك الخديوى الى ما تطلب ؟

عرابى : أقول كلمة أخرى •

كوكسن : ما هى ؟

عرابى : لا أقولها الا عند اليأس •

ولم تكن هذه الكلمة التى ادخرها عرابى الى حين اليأس الا عزل الخديوى من منصبه •

حينئذ رجع الانجليزيان الى الخديوى ، وتداول توفيق هو وأعوانه من الوزراء والاجانب فى حل المشكل المتأزم ، وقضوا ساعة رهيبة ، قرر الخديوى بعدها أن يذعن لمطالب الجيش •

وسرعان ما أبلغ القرار الى عرابى ، وسرعان ما عرض عليه

الخديوى أن يرضى بعلى حيدر يكن رئيسا للوزراء ، فرفضه عرابى ، لانه قريب الخديوى ، فعرض عليه أن يقبل محمد شريف باشا ، فقبله •

حينئذ توجت طلبات الجيش بالفوز ، وتبين الضباط الاحـرار ان الاتحاد قوة ، وأن الصلابة فى الحق رجولة ، وأن صدق العزيمـة سـلاح قوى ماض لا يفل ، وشـعروا بألاعيب الانجليز ، وباحتماء الخديوى بهم ، وأيقنوا أنهم مكلفون حماية وطنهم ، والدفاع عن حقوق شـعبهم ••

وبعد قليل كان الهجوم الانجليزى الغادر على مصر ، وضربت بوارجهم الاسكندرية فى ١١ يولية سنة ١٨٨٢ ، فقامت الثورة العرابية عسكرية وشعبية ، وكان عرابى يتزعم الجهاد المسلح ليدرأ عن مصر عدوان الانجليز المتلهفين على احتلالها منذ زمن بعيد ، وأبلى الجيش والشعب بلاء مجيدا فى الجهاد ، وقرر مجلس وطنى من خمسـمائة يمثلون الامة أن الخديوى توفيق خائن لدينه ولوطنه فلا تطاع أوامره ولا أوامر وزرائه ، ولكن الغدر والخيـانة والخديعة فوتت على الثورة المجاهدة غرضها النبيل •

وكانت النهاية المحزنة أن حوكم عرابى •

حوكم ، فلم يتنصل من التبعة •

ثم نفى ، فلم يذل ولم يندم •

وقضى بالمنفى البعيد عشرين عاما متصلة •

ثم عاد بعدها الى وطنه الذى أحبه ، وخاطر بروحه فى الدفاع عنه ، وأراد له القوة والمجد •

وبعد بضع سنوات ضم ثرى مصر جسد المجاهد الأبى العظيم •

لكن جهاده كان حافزا على جهاد متكرر بعده ، الى أن تحررت مصر وتم الجـلاء •

المراجـــع

١ — الاسلام — خواطر وسوانح — الكونت هنرى دى كاسترى ، ترجمة أحمد فتحى زغلول .

٢ — الاصابة فى تمييز الصحابة . ابن حجر . المطبعة الشرفيـة بمصر ١٣٢٥ هـ ١٩٠٧ م .

٣ — انسان العيون فى سيرة الامين المـأمون المعروف بالسـيرة الحلبية . برهان الدين الحلبى . المطبعـة الازهرية المصرية ١٣٢٩ هـ .

٤ — بدائع الزهور فى وقائع الدهور . ابن اياس الحنفى . مطبعة بولاق .

٥ — البطولة والأبطال . الدكتور أحمد محمد الحـوفى . نشره المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م .

٦ — تاريخ الأمم والملوك . الطبرى . المطبعة الحسينية المصرية .

٧ — تاريخ الخلفاء . السيوطى .

٨ — تيسير الوصول الى جامع الاصول من حديث الرسول . ابن الربيع الشيبانى الزبيدى . المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٦ هـ

٩ — الجامع لأحكام القرآن . القرطبى . مطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٣٥٤ هـ ١٩٣٥ م .

١٠ — جامع البيان فى تفسير القرآن • الطبرى • المطبعة الاميرية ببولاق ١٣٢٥ هـ •

١١ — حضارة العرب • جوستاف لوبون • ترجمة الأستاذ عادل زعيتر •

١٢ — رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الابصار فى فقه الامام أبى حنيفة ، المشهور بحاشية ابن عابدين • مطبعة الحلبى •

١٣ — زاد المعاد فى هدى خير العباد • ابن القيم • مطبعة صبيح بالقاهرة ١٣٥٣ هـ ١٩٣٤ م •

١٤ — السلوك لمعرفة دول الملوك • المقريزى •

١٥ — سماحة الاسلام • الدكتور أحمد محمد الحوفى • نشره المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٣٨٣ هـ ١٩٦٣ م •

١٦ — السياسة الشرعية • ابن تيمية •

١٧ — سير أعلام النبلاء • شمس الدين الذهبى • دار المعارف بمصر ١٩٥٧ •

١٨ — السيرة النبوية • ابن هشام • تحقيق الاساتذة مصطفى السقا وابراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبى ١٣٥٥ هـ ١٩٣٦ م •

١٩ — شرح الزرقانى على المواهب اللدنية • القسطلانى • المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٢٥ هـ •

٢٠ — صبح الأعشى • القلقشندى • دار الكتب بمصر •

٢١ ــ صحيح مسلم بشرح النــووى • المطبعــة المصرية ١٣٤٧ هـ
١٩٢٩ م •

٢٢ ــ العبر وديوان المبتدأ والخبر • ابن خلدون •

٢٣ ــ فتح البارى بشرح صحيح البخارى • العسقلانى • المطبعــة
الاميرية ١٣٠١ هـ •

٢٤ ــ فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى • عبد الله الشرقاوى •
مطبعة الحلبى بمصر •

٢٥ ــ فتوح البلدان • البلاذرى • مطبعة الموسوعات بمصر ١٣١٩ هـ
١٩٥١ م •

٢٦ ــ الكامل فى التاريخ • ابن الاثير •

٢٧ ــ الكشاف • الزمخشرى • مطبعة مصطفى محمد بالقــاهرة
١٣٥٤ هـ •

٢٨ ــ كنز العمال فى سنن الاقوال والافعال • علاء الدين على المتقى
ابن حسام الدين الهندى • مطبعة دائرة المعارف النظاميــة
بحيدر آباد ١٣١٢ هـ •

٢٩ ــ اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان البخارى ومســلم •
جمعه الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى • مطبعة عيسى البابى
الحلبى بمصر ١٣٦٨ هـ ــ ١٩٤٩ م •

٣٠ ــ المبسوط • السرخسى • مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٤ هـ •

٣١ ـــ مجموع فتاوى ابن تيمية • المجلد الثامن والعشرون • جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد العاصمى النجدى • طبع سنة ١٣٨٣ هـ •

٣٢ ـــ المحلى • ابن حزم • ادارة الطباعة المنيرية بالقاهرة ١٣٤٩ هـ •

٣٣ ـــ المسند • الامام أحمد بن حنبل • تحقيق الاستاذ أحمد محمد شاكر • دار المعارف ١٣٦٨ هـ ـــ ١٩٤٩ م •

٣٤ ـــ المغازى • الواقدى • طبعة كلكتا بالهند ١٨٥٥ م •

٣٥ ـــ من أخلاق النبى • الدكتور أحمد محمد الحوفى • نشره المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ١٣٨٧ هـ ١٩٦٨ م •

٣٦ ـــ وطنية شوقى • الدكتور أحمد محمد الحوفى • دار نهضة مصر •

٣٧ ـــ وفيات الأعيان • ابن خلكان • مطبعة بولاق ١٢٩٩ هـ •

٣٨ ـــ Nicholson, Aliterary : History of the Arabs

الفهرس

المقدمة ٣

الفصل الأول

معناه وحكمه ٩ — ١٦

معناه (٩) حكمه (١١) حكمه اليوم (١٤)

الفصل الثانى

المعفون من الجهاد ١٧ — ٢٣

الأصل فى الاعفاء (١٧) من هم المعفون (١٨) معفون تطوعوا (٢٠)

الفصل الثالث

النساء والجهاد ٢٥ — ٣١

نسوة مع رسول الله فى غزواته (٢٥) نسوة فى الحروب الاسلامية (٢٩) اشتراك الصبيان (٣٠)

الفصل الرابع

الحض على الجهـــاد ٣٣ — ٤٣

آيات قرآنية تحض على الجهاد (٣٣) أحاديث نبوية فى الحض على الجهـــاد (٤١)

الفصل الخامس

وسائــل الجهــاد ٤٥ — ٥٧

المحاربة بالنفس (٤٥) الحراسة والمرابطة (٤٥) المـــال (٤٨) اللسان (٥٤) الجهاد النائب (٥٦) وسائل أخرى (٥٧)

الفصل الســادس

الحض على التسلح ٥٩ — ٦٢

المراد بالسلاح (٥٩) قيمتـــه (٥٩) حكم الفروسية وتعلم الأسلحة (٦٠) حض رسول الله على الفروسية والرمى والتــدرب على الســلاح (٦١)

الفصل السابع

الحض على الشــجاعة ٦٣ — ٨٢

قيمة الشجاعة (٦٣) ضروب من الحض عليها فى القرآن الكريم

(٦٥) حكم الفرار (٦٨) أمثلة عليا يضربها الله تعالى للاسوة (٧٠) تسلية القرآن الكريم للمسلمين بعد غزوة أحد (٧٣) شجاعة رسول الله العملية والقولية (٧٥) أمثلة من شجاعة الرسول والمسلمين (٧٧)

الفصل الثامن

النصر من الله ٨٣ — ٩٤

أثر الانتصار بالله (٨٣) الآيات التى تؤكد أن الله هو الناصر (٨٤) لن ينهزم من ينصرهم الله (٨٥) نصر الله منوط بالاخذ بما أمر به (٨٥) تذكير الله للمسلمين بمؤازرته لهم (٨٦) بيعة المسلمين لرسول الله بيعة لله تعالى (٩٢)

الفصل التاسع

عقوبات المنافقين ٩٥ — ١٠٦

فى كل أمة شرذمة منافقة (٩٥) أنوع من انكار القرآن عليهم وانذاره لهم (٩٥) هم حصب جهنم (٩٥) كذبهم فى معاذيرهم (٩٥) نبذ المجتمع لهم (٩٦) حرمانهم من دعاء النبى لهم (٩٦) مروقهم من الاسلام (٩٦) ضيقهم وحيرتهم واضطرابهم (٩٦) عداوتهم

للاسلام وللمسلمين (٩٧) جبنهم (٩٧) عقوبتهم فى الدنيا القتل فى بعض المذاهب (٩٧) آيات قرآنية تصفهم وتبين حكمهم (٩٨) فرصة للتجربة والامتحان (١٠٣)

الفصل العاشر

تقريع الجبناء ١٠٧—١٢١

فى كل مجتمع جبناء (١٠٧) تأنيب القرآن للجبناء (١٠٧) تيئيسهم من طول الأجل بسبب الجبن (١٠٩) ندم وتوبة (١١١) جماعة تكاسلوا عن المسير مع رسول الله ثم لحقوا به (١١١) ثلاثة تخلفوا واعترفوا بذنبهم وندموا (١١٢) ثلاثة آخرون يروى قصتهم كعب بن مالك (١١٣)

الفصل الحادى عشر

جزاء الجهاد ١٢٢—١٤١

الثواب الالهى (١٢٢) : الجنة (١٢٣) المغفرة (١٢٧) الرضوان (١٢٩) أجر عام (١٣٠) جزاء الشهداء (١٣٥) جزاء المرابطين (١٣٨)

السعادة النفسية (١٣٩) التكريم الاجتماعى (١٤٠)

الفصل الثانى عشر

أهـــداف الجهـــاد ١٤٣—١٦٢

مراحل الدعوة الى الاسلام (١٤٣) لماذا شرع الله الجهاد (١٤٥): حماية الدين (١٤٥) تقوية المؤمنين (١٤٨) نجـــدة المستضعفين (١٥١) التمكين للتوحيد (١٥٣) اقامة المجتمع الفـــاضل (١٥٤) الرد على فريتين : هل الجهاد حرب استعمارية ؟ (١٥٦) هـــل انتشر الاسلام بالسيف ؟ (١٥٧)

الفصل الثالث عشر

رفـــق وسماحة ١٦٣—١٩٩

تسامى قوانين الحرب الاسلامية (١٦٣)

فى بواعث الحرب (١٦٤) مع قـــريش (١٦٤) مع اليهود (١٦٥) مع النصارى (١٦٥) مع الفـــرس (١٦٨) مع المـــرتدين (١٦٨) الحرب الاسلامية دفاعيـــة (١٧٣) نهى الاسلام عن مباغتـــة المعاهدين (١٧٤) أمثلة من رحمـــة المسلمين وسماحتهم (١٧٦) موازنة بين عظمة الاسلام وما ترتكبه الدول المعاصرة (١٧٦) فى سير الحرب (١٧٨) : مسالمـــة المدنيين وغـــير المشتركين فى الحرب (١٧٨) الحرب للردع لا للانتقام (١٨٠) لا يجوع المسلمون أعداءهم ولا يمنعونهم المـــاء (١٨١) لا يقتـــلون السفراء (١٨٣) كفـــالة السلامة للمستأمنين فى دار الاســـلام من رعايا الدولة

المعادية (١٨٤) استجابة المسلمين الى السلام (١٨٥)
فى نتـائج الحرب (١٨٦) مظاهر من الرحمة بالقتـلى (١٨٦)
وبالمغلوبين والاسرى (١٨٦) كفالة الحـرية الدينية للمغلوبين
(١٨٧) أمثلة من معـاملة المسلمين للمغلوبين (١٨٧) الـوفاء
بالعهود فى الحرب وفى السلم (١٨٩) أمثلة (١٨٩)
تعقيبات (١٩١) حرب لا علاقة لها بالاسلام (١٩١) موازنة بين
المسلمين وغيرهم (١٩٢) شهادات منصفة (١٩٤)

الفصل الرابع عشر

من صور الجهـاد ١٩٩ — ٢٦٨

رسول الله (٢٠٠) جهاده فى الدعوة (٢٠٠) جهاده الحربى(٢٠٤)
بـلال (٢١٣)
مصعب بن عمير (٢٢٤)
الفارس الملثم (٢٢٥)
وامعتصماه (٢٣٦)
قطز فى صـد التتـار (٢٤٦)
عمـر مكرم (٢٤٩)
أحمـد عرابى (٢٥٨)
المـراجع ٢٦٩



رقم الايداع بدار الكتب
١٩٦٩ / ٤٢٧٩

مطابع الأهرام التجارية